دكان أحلام مكسورة

محمد إبراهيم محمد

اسم الكتاب: دكان أحلام مكسورة

اسم الكاتب: محمد إبراهيم محمد

تصميم الغلاف: مي مجدي

تنسيق : نورهان هاني

رقم الإيداع: ٢٠٢٥/٤٤٧٤م

الترقيم الدولي: ٣-٠٥-٨٢٩٧-٦٣٣-٩٧٨

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

دكان أحلام مكسورة

مؤسسة الكاتب العربي
The Writer Operation

الإهـــــــــــــــــــداء

إلى:

الذين قلوبهم، أياديهم، أيامهم، ثيابهم، وأكفانهم كلها بيضاء بياض الثلج.

الذين أهدافهم، غاياتهم، أحلامهم، وآمالهم أكثر من بسيطة؛

الذين يمشون في وداعة، سلام، وخشوع على وجه هذه البسيطة؛

ولكنهم يفارقونها، وفي حلوقهم غصة، وفي قلوبهم حرقة؛

وإلى الوردة البيضاء ف.ب

المؤلف،

وركعتُ أقّبلُ أم درمانْ

هذى العاصمةُ الأنثى

أهواها مذ كنتُ غراماً في عيني أمي وأبى

وحملتُ الحبَّ معي بدمى..

في رحلة هذا العمرِ...

وأحْمِلُهُ حتى ألقى ربى

كلماتي يا زمن الأفراح الوردية

عبرت موجات البحر لتصل إليك

لتقول: أنا مشتاق

لِتُطِلَّ قليلاً في عينيكْ

ولتحملَ عذري في سفري

فأنا يا سمراءَ الصحراء..

هذا قدري..

أن أعشق أنثى عاصمةً

تلك المحبوبة أم درمان

الشاعر سيف الدين الدسوقي

افتتاحية

دوافع كثيرة أجبرتني على كتابة هذه الرواية، عشت بعضا من فصولها، قابلت بعضا من شخوصها، سمعت بعضا من حكاياتها، المسرح الذي وقعت فيه أحداثها ما زال قائما شاهدا على كل ما جرى فيه من أحداث مفرحة ومحزنة، للضرورات الفنية الرواية مزيج من واقع وخيال، أردت بها إرسال رسائل للظالمين وللمظلومين على حد سواء رسالتي للظالمين لن يهدأ لكم بال أبدا لأن دعوات المظلومين تلاحقكم وأنتم أحياء وأموات، رسالتي للمظلومين، حقكم لن يضيع سدى، ميزان العدل لا بد وأن يأخذ يوما مجراه، وإني لعلى يقين بأنكم كلما تأتون إلى الملجة، وتقع أعينكم على دكاكينكم، تصبون جام غضبكم على من احتلوها بدون وجه حق، ترسلون عليهم اللعنات، ولكني أقول لكم: (صبرا آل الملجة صبرا).

(١)

الجـــــــــــــذور

صلى الفجر حاضراً في المسجد الذي لا يبعد عن داره سوى خطوات معدودات، تلك الدار التي تميزها عن باقي دور الحارة نخلة طويلة تنبت في قلب صحنها؛ على غير عادته لم يعد إلى بيته وإنما توجه تلقاء الشارع العام، أوقف أول حافلة صادفته من حافلات خط السوق الشعبي، ذهنه مشوشاً وفي داخله اضطراب، لا يدري كم من الوقت مضى، لا يعني له ذلك شيئا، زمنه لا قيمة له، المهم في الأمر أنه سمع صبي الحافلة (الكمساري) ينبهه بلهجة حادة قائلا:

(يا حاج سارح وين، متين أصبحت، أدينا حقنا واسرح).

مد يده بالنقود بعد أن نهره في حنق قائلاً:

(يا ولد يا عديم الحياء أمسك قروشك وقول لسواقك السجمان مثلك ده يوقف هنا، أنا نازل من كربتكم دي، الله يكربها عليكم، دي رخصوها ليكم كيف؟)

رد على نفسه لأن الركاب لا يعيرونه أسماعاً فهم غارقون في همومهم الخاصة:

(رخصوها من منازلهم).

صَفَر الصبي، نادى على السائق:

(قرصة يا معلم).

نـزل عـلى عجـل، مشى. ببطء في أزقـة سـوق ضـيقة، مرتـع نشـالين يثقبـون بعيـون قويـة جيـوب جبـب ويخطفـون حقائـب يـد؛ جـاءه إحسـاس بأنـه يمشي. بـين صـفين لعربـات قطـاري ركاب يقفـان فـوق قضـيبين متجـاورين، تزحفـان عليـه مـن الجـانبين، تعتصره.انه عصره، يسيل دمه كعصير قصب سكر معصور؛ جرجر رجلين ثقيلتين ومشى. مـتمهلاً نحـو دكانتـه المزعومـة، يؤنـث دكانـه لأنـه يحبـه حبـاً لا يمكـن تصـوره، تحياتـه لأهـل السـوق الـذين يعـرفهم جميعـاً خرجـت مـن فيـه مقتضـبة ليسـت كسـابق عهـدها مشـحونة بعاطفـة جياشـة، أومـأ بالتحية على الأسـطى (حمـدتو) الـذي كان وقتهـا يقـوم بـرص إطـارات قديمـة مسـتعملة أمـام محلـه، وبعـد عـدة خطـوات حيـا الأسـطى (العجب) الذي كان يقوم بتعبئة ملابس زي مدرسي في أكياس نايلون، بعـد عـدة خطـوات أخـرى حيـا معلـم (جـودة) الـذي كان يقـوم بفـرز وتعبئـة كـراتين بأحذيـة وشباشـب نسـائية يحـاول بقـدر الإمكـان أن يضاهي بها الصناعة الصينية، خاطبه بنبرة مازحة قائلاً:

(الله يكفيكم شرور ناس جاينا؟)

رد بحرقة قائلاً:

(شرور نـاس جاينـا بـس، ولا هنـود، وجـن أحمـر، الحكايـة انتهـت، المشكلة ما عارفين لينا محل نتلم عليه).

رأي زمـرة (شماسـة)، فتـوات الشـوارع، متجمعـين، ثلاثـة أفـواههم محشوة بخرق مشبعة بسلس يون، غائبون عن الدنيا، ثلاثة جالسون وبينهم كيس بلاستيك به (كرتة) بقايا أكل مطاعم، يلوكون طعامهم في لـذة يحسـدهم عليهـا باشـوات، ثلاثـة يتشـاجرون، معركـة حاميـة الـوطيس، يسـتخدمون فيهـا كل أسـاليب القتـال، قديمـة وعصريـة، كراتيه، ملاكمة، مصارعة، بونيه، شلووت، عض، وكل الأسلحة، عدا الأسـلحة الناريـة، عصـا، سـيخ، حجـر، مطـواه، سـاطور، آخـرون يشـجعونهم وهـم يعـوون كـذئاب ضـارية، أريقـت دمـاء، قطعـت أذن،

جدعت أنوف، إنه عالم مجنون يعج بأبالسة، شياطين، وعفاريت؛ مشى بهدوء على مسافة آمنة تبعده عنهم وعن شرهم، وفي مخيلته مشهد تاجر مسكين كان يمشي نحو دكانه آمناً مطمئنا تدور في رأسه حسابات أرباح وخسائر، صادفته قذيفة طوبة من شماسة مثلهم كانوا يتقاتلون حتى الموت، عجلت برحيل المسكين إلى قبره؛ خرجت منه زفرات حرّى، قال في سره:

(أصبحنا وأصبح الملك لله، ده ما سوق، ده مرتع عصابات أخطر من مافية إيطاليا).

حيا الأسطى (موسى) الذي كان مشمراً عن ساعديه، بمعطف رمادي اللون ملطخ ببقع زيت التشحيم، ممسكاً بمفكّات ومفاتيح، منكباً بكلياته على إصلاح ماكينة خياطة عفى عليها الزمن، تآكلت تروسها وتساقطت مساميرها كأضراس جده آدم عليه رحمة الله؛ حيا الأسطى (أبو شنب) الذي كان مدفوناً في (عراقي) واسع وسروال طويل، يحرك شفرتي مقص ألماني لامع في مسارات مستقيمة يمزق بها نسيج قماش ناصع البياض صنع في الصين، إنه لا يقل عن الصينيين شطارة، يبذل قصارى جهده ليحوله إلى جبة أنيقة تجعل لابسها يمشي مزهواً مختالا، يباهي الجبال طولاً؛ ابتسم ابتسامةً مبهمة في وجه (ود الجزيرة) الذي كان ممسكاً بسيجارة برنجي يدندن في سرور:

لي أهل الجزيرة *** لي أهل المحبة
برسل للأحبة *** حِتَة سكيرتي
وبلوزة محبة

لم يرد على تحيته، قلبه هناك في الجزيرة مشغول بالأحبة، ويده هنا تنفض غباراً وتراباً عن ملابس معلقة على حبال مربوطة في واجهة المحل، لونها تغير بفعل أشعة شمس، عجاج، وكثرة لمس بأيدي متسخة؛ مر على جماعة جالسين على كراسي بلاستيك متحلقين حول ود أحمد بائع زلابيا وشاي حليب، مشهور ب (هلّا، هلّا يستر الله)، ردوا على تحيته بتجشؤات لا يمكن قياس قوتها إلا على مقياس (ليختر)، ألقى باقتضاب على غير عادته بتحية الصباح على (عشوشة)، امرأة طيبة ناهز عمرها الأربعين عاماً، ظلت تبيع الشاي في هذا المكان قبالة دكانته لفترة طويلة، كانت من خلق الله الذين لا يعرفون مكاناً للارتزاق إلا هذا السوق، درج على أن يختصها بدعابات وبكلام حلو، فهي في نظره على باب الله، تحاول أن تنحت صخراً لتستخرج منه جنيهات تعطي منها شركاءها في الريع، باشبوزق المحلية، الذين يأتون إليها بأوراقهم أول كل شهر، والباقي تنفقه على عيالها الذين تركهم أبوهم واختفى كهر مجدور، اختفى بغتةً كما يختفي آباء كثيرون، يختفون بدون مسببات معلومة، ولا أحد يعلم هل تنشق الأرض وتبلعهم أم يتبخرون في الهواء؛ قعد على مقعد منعزل من مقاعد مبعثرة داخل وخارج المكان، طلب كوباً من قهوة ثقيلة، رشف رشفةً واحدة، وكأنما رشف رشفةً من مزيج سحري، في تلك اللحظة الحرجة الفارقة في حياته...

امتدت خيوط عنكبوتية متداخلة متشعبة متشابكة، جزيئاتها المرئية دخان يتلوى في الهواء، جزيئاتها غير المرئية موجات كهرومغناطيسية تتماوج في الأثير، لا يهمه إن كانت مرئية أو غير مرئية، كل ما يهمه في تلك اللحظة ما تحمل هذه الخيوط مجتمعة بين طياتها من صور، في حقيقة الأمر كانت تحمل له صوراً شتى، إنه

الآن، في هـذه اللحظـة بالـذات، اللحظـة الـتي امـتزج فيهـا ماضـيه بحاضره، وبمستقبله، التي تلاشت فيها كل أبعاد الزمان والمكان، التي تداخلت فيها الأشياء في الأشياء، التي فيها الموت هو الحياة والحياة هي الموت، رأى من خلال عدسة هلامية في مركز بؤرة عينه جده من ناحيـة أبيـه، (آدم)، بلحمـه، وشـحمه، وعظمـه تحـت شـجرة نخيـل سـامقة ناميـة في قلـب بيـت العائلـة الكبـير، جـالس عـلى سريـره (عنقريبه)، عرشه المصنوع من أعواد شجر وحبال مجدولة من ناعم سعفها، وجدته (حليمة) جالسة على مقعدها (بَنْبَرِها)، خشبي قصير، مائل غير متوازن، بانت عيوب صنعته بسبب ثقل وزنها المفرط؛ خاطب بصوت عال بنبرة لا تخلو من حب عميق جده الذي ناهز التسعين عاماً قائلاً:

(مـا شـاء الله يـا جـدي لـولا فقـدك البصر، كل شيء فيـك تمـام التمام، سمعك مش بطال، صحتك عال العال، ذاكرتك قوية ما شاء الله، ما زلت تتذكر مشايخ الخلوة وتحفظ سور من القرآن الكريم، كله ذلك بسبب حبك الشديد للنبي، أندادك كانوا يحكون: (في أيام صبانا عملنا السبعة وذمته، لا خلينا مريسه، ولا جاي وجاي، إلا آدم كان وحده مستقيماً فينا)، يا جدي طعامكم حلال عصيدة بسمن، وشرابكم حلال عسل، ولبن من الضرع للخشم، ولكن يا جدي عندي طلب ما معروف الموت لينا ولا ليكم، يا جدي قعِد لي الكلام، حدثني بكل شيء عن بلدنا، أحكي لي عن حالها كيف كانت أيام صباك؟)

هـرش فـروة رأس متجعـدة كطبقـة إسـفلت بعـض شـوارع المدينـة كمن يبحث عن إبرة وسط كومة قش، مسح على عينين مظلمتين، وبصـعوبة وبطلـوع الـروح خرجـت حـروف كلماتـه مـن بـين شـفتين ناشفتين وفكين بارزين:

(شوف يا ولدي، الحكاية طويلة، والدي، جدك الحاج (إدريس) رحمة الله عليه كان يحكي لي عن بلدنا دي، كانت قرية صغيرة، كانت راقدة زي شافع صغير على (القيف) شاطئ النيل الغربي، كان لما يتكلم عنها تنزل الدموع من عينيه ويدخل في حالة ثانية، حبه ليها كان شديد، أكثر من حبه لمال، زرع، ضرع، ونسوان؛ بلدنا كان معروف للناس من قديم الزمان، أجدادنا الأوائل سكنوه من زمن بعيد، الوالد لمن يكون مزاجه رائق يقول لي كلام عجيب، مرة قال إنه سمع عجائز البلد يحكون قصة حبوبتنا النوبية الصالحة التي كان بيتها في مكان (المشرع التجاري) الموردة الحالية، نعم يا ولدي اسمها كان معروفاً لكل الناس).

جر أنفاساً عميقة لها صدى حتى خيل إليه أن أنفاس جده سوف تنقطع، ثم استطرد قائلاً:

(احتفظوا بهذا الاسم، (الموردة)، لا تغيروه، تغيير الجلد عيب).

خاف على روح جده من الطلوع من شدة جهده الذي بذله في التنهد، عظامه رقيقة، ونفسه قصير، حاول أن يشحذ همته ليجعله يتذكر أقصى ما يستطيع، خاطبه متسائلاً:

(يا جدي والدك كان يحب أكثر مال، ولا نسوان، ولا البلد؟).

تنحنح، بلل حنجرته بما استطاع أن يجمع من لعاب غارت آباره وجفت منابعه:

(أنسى الحب يا ولدي، الحب بالأول للنسوان، كَدي خلينا نكمل باقي حديث الوالد عليه رحمة الله، كان التجار من كل النواحي، صعيد، سافل، دار ريح، جبال بحرية، جبال نوبة، تقلي، فرتيت، جزر واق واق، ومن فاس ال ما وراها ناس يأتون بمراكب، جمال، وحمير إلى بلدنا بغرض التجارة، التجارة ما كانت رائجة مثل اليوم، السلع قليلة، فحم، حطب، أزيار مويه، قفاف بروش، ثياب زراق، ثياب قنجة، عيوش، فول، وسمسم، القروش كانت عملة تركية، الخلق

قاصدين البلد كثيرة، من كثرتهم المرحوم جدك كان يقول الزحمة هنا أكثر من زحمة الحج، كانت مرسى وورشة لمراكب شراعية طالعة ونازلة).

قاطعه قائلاً:

(يا جدي نسيت تكمل حكاية حبوبتنا النوبية).

لمح وجه جدته حليمة ينبسط وتتهلل أساريره، سمعها تكسر حاجز صمت بارد جامد، غمغمت بعبارات غير واضحة، ولكنه استشف أن الحديث بات يعنيها ويجذب انتباهها، حك جده فروة رأسه مرةً أخرى، ونقر بسبابته الوسطى على رأسه الأقرع ثلاث نقرات ثم قال:

(ذكرتني يا ولدي، الشيطان الرجيم نساني، كان لتلك المرأة النوبية الصالحة ولد اسمه (درمان)، وكان التجار عندما يأتون للمكان ينادونها على اسم ولدها (أم درمان)، وخلاص الاسم مشى على البلد كلها).

وفي حدة ارتفع صوته عالياً وهو يرمي بعبارة استدراكية قائلاً:

(وهل يلقى أولياء الله الصالحين في أيامكم دي مثقال مما كانوا يلقونه من تقدير واحترام في أيامنا؟).

ثم استطرد قائلاً:

(وكان المرحوم جدك يقول في حسرة وغبينة، جات ثورة المهدية، جات بسبب مظالم التركية السابقة، الترك ما نسوا المك نمر وحرقه لإسماعيل باشا، والناس ما نسوا حملات (الدفتردار) الانتقامية، الضرائب كانوا يأخذوها بالقوة، كانوا يدخلون قططاً جائعة داخل السراويل ويزنقون عليها بالتكك، أنصار المهدي سموا بلدنا بقعة مباركة، عملوها عاصمة بدلاً من خرطوم غوردون باشا التي دخلها الإمام المهدي رجالة وحمرة عين، وقطع فيها رأس ودابر الكفر).

هنا... في هذه اللحظة بالذات، جاءه صوت عشوشة (وين سرحت يا حاج أحمد)، تيار كهربائي خمسة فولط صعقه فجأة،

أيقظه مما كان فيه، على وقع كلماتها تنبه إلى ما كان يجري من حوله، كأنما عيناه انفتحتا بعد إغماضه طويلة... رأى جموعاً غفيرة من الناس يتزاحمون حول المكان، يغطون شارع الإسفلت الذي يفصل بين طرفي السوق، شارع متآكل لا يكاد يبين سواده من كثرة غبار، تراب، وأوساخ متراكمة من فوقه، رآه يغوص بجحافل من الناس، أتوا من كافة الأطراف والأصقاع ليشهدوا كيف يمكن لإنسان باستخدام آلة أن يهدم في طرفة عين أهرامات بناها أصحابها خلال سنوات طويلة، نقشوا حجارتها وطوبها بأظافرهم وبأسنانهم، مزجوا طينها وترابها بدمهم وعرقهم ولعابهم؛ رقاب خلق متزاحم متلاطم تحمل وجوهاً شتى، مؤمنين صالحين، بائعين ومشترين فضوليين، بائعات غالي ورخيص طعام، بائعات سمن، باميا مجففة، ودك، لحم قديد، سمك مدخن ومجفف، ولبائعات شاي، قهوة، حلبة وشيشة، ولبائعات هوى، وأشياء محظورة، ولغيلان، عفاريت، وشياطين، ولشامتين حاسدين ضاربي طبول يحملون دفوفهم وطبولهم لصب الزيت على النار في أي مكان، ولحرامية ونشالين، ولربويين ومطففين، ولأفاكين، نصابين، ودجالين، ولأناس هدهم سرطان، سكري، كلى، إيدز، ودرن، ولكائنات غريبة غير مرئية أتت من كواكب أخرى؛ على رأس الشارع رأى المصيبة الصفراء اللون، الآلية الحديدية الضخمة (الكراكة) التي ما دهست ولا داست على شيء وإلا أحالته في رمشة عين إلى لا شيء، ما زمت وما نفثت دخانها وما جلجلت جنازيرها إلا وتركت المكان من خلفها قاعاً صفصفا، رأى (الدفار) الأزرق زرقة مياه البحر، ولكن شتان بين زرقة وزرقة، الزرقة هناك طراوة ونسيم، وهنا لسع بسياط، هراوات، عصي وخراطيش، رأى (الكروزر) الرمادية اللون، تقف على مسافات بعيدة،أُسُود متوثبة للهجوم على طرائدها، خلاص الرسالة وصلت ليقظين ولغافلين (حسم الأمر الذي فيه تستفتيان).

خيوط جده أقوى من كل الخيوط التي تشده، جرته بقوة، غصباً عنه مرةً أخرى إلى مركز بؤرة عدسته الهلامية.

التفت نحو جده وخاطبه قائلا:

(يا جدي هل ترى ما أرى؟ - لم ينتظر إجابته وإنما استطرد- أكمل باقي حديثك يا جدي).

بلل جده حنجرته الصدئة مرةً أخرى ثم قال:

(كبرت البلاد وصارت مدينة يسكنها خلق كثير، أحسِب معي، معهم كم جمل، وكم حصان، وكم حمار، وكم بقرة، وكم عنزة وخروف؟ وفدوا إليها ناس من البقارة جابهم الإمام المهدي، بعدهم جاء أولاد البحر، ثم الأشراف أولاد عمومة المهدي، في الآخر جاء نوبة، دينكا، شلك ونوير، ومع دخول الإنجليز جاء أقباط صعيد مصر، وفي أيام حكم الإنجليز جاء مغاربة، هنود، طليان وغيرهم؛ في أيام المهدية سكان المدينة كانوا مصنفين على ثلاثة، جهادية عساكر، ملازمين موظفين، وأمراء قادة جيوش).

بدأت الصور تختلط في ذهنه كما يختلط إسمنت بحصى. وتراب داخل خلاط، حتى هذه اللحظة بدأ له أن صوراً حقيقية ماثلة أمامه وقعها وتأثيرها عليه أقل من صور خيالية تدور كدوامة في ذهنه، عاد مرةً أخرى غصباً عنه وبحركة غير إرادية إلى مركز بؤرة عدسته الهلامية، إلى جده حيث خاطبه متسائلاً: (كيف يا جدي تحول بلدكم من قرية حفنة بيوت إلى مدينة كبيرة؟)

كعادته بلل حنجرته التي تحتاج فعلاً في كل مرة إلى مُلَيِن لكي تعمل بكفاءة معقولة، وبعد أن مسح برفق على عينيه رد قائلاً بصوت مبحوح:

(في أيام المهدية كانت البيوت عادية مبنية من قش وطين، ومباني الميري بحجر، وكان للمدينة أبواب، كلها تهدمت ووقعت باقي فقط بوابة واحدة حقت عبد القيوم، الأحياء مقسمة ومسمية على قبائل،

سروراب، رباطاب، عمراب، هاشماب، فتيحاب، عرب، ركابية، بعض الأحياء كانت لجماعات بعينها، حي أمراء للأمراء، حي مسالمة للمسالمين من غير المسلمين، بعض الأحياء بأسماء أمراء قادة وعلماء، ود نوباوي، أبوكدوك، أبوروف، أبوعنجة، وسموا أحياء بأسماء دواوين الدولة، ملازمين، بيت مال، بيت أمانة، أمراء، وعرضة؛ يا ولدي في عهد خليفة المهدي عبد الله التعايشي- الله يرحمه امتدت البلد حذا النيل، عرضها من الشمال للجنوب كبير، الخليفة عمل أربعة شوارع، شارع الأربعين، شارع العرضة، شارع الموردة، وفي شارع رابع من جهة الشمال).

تهجد صوته ثم انخفض ثم صمت فجأة، كأنما حط على رأسه طير.

استفسر بنبرة لا تخلو من حب وود قائلاً:

(مالك يا جدي إن شاء الله خير، لماذا سكت، هل غلبك الكلام؟)

تنحنح كما لم يتنحنح من قبل، مسح ببطن كفه الأيمن على عينيه ووجهه، قال في صوت حمل من الرسائل ما لا يعلم سرها إلى الله:

(استغفر الله العظيم، أعوذ بالله من غضب الله، تذكرت حاجتين حكاهما جدك ودموعه نازلة مطر، الأولى مجاعة سنة ستة، سنة حرب، جفاف، وجراد، الناس البعيدين جاءوا إلى هنا، الناس أكلت عروق شجر، فئران، جعارين، فطائس، جلود، ما خلوا وادي إلا ولموا قشه وطرق شجره، أكلوا برسيم وعشر، لموا حبوب أرض وشوارع وكوش، أكلوا كل شيء إلا لحم البني آدم، المجاعة أخذت من النفوس الكثير، الحاجة الثانية دخول جيش الإنجليز البلد بعد حرابة كرري، الإنجليز كانوا زعلانين من ذبحة (غردون)، عندهم تار بايت، المهدية قواتها ستين ألف مقاتل، سلاحهم عصي، سكاكين، سيوف، حراب، وبنادق قديمة (دق أبوظرطه)، الغزاة ستة آلاف مقاتل مسلحين بمدافع حديثة، ومن البحر مساندهم بواخر عليها مدافع تضرب من بعيد، استشهد تمنتاشر ألف وانجرح أكثر من ثلاثين ألف في ساعتين، الخواجات ديل متعلمين على إبادة الناس، كم أفريقي ذبحوهم لمن

كانوا يسوقوهم رقيق لي بلادهم، يطاردوهم في الغابة، من يمسكوه يربطوه بسلاسل حديد، ومن لا يمسكوه يقتلوه، وقبال ما يشحنوهم في مراكب كبيرة يوسموهم زي البهائم بأسياخ حديد محمية في النار، كل مركب عندها وسم، يهينوهم إهانة ما بعدها إهانة، يشتموهم، يدفروهم، يلكزوهم، يجلدوهم، ويشلتوهم بأحذيتهم، يحبسوهم حبس انفرادي، وما خفي أعظم، الخواجات ديل ناس لا يخافون الله).

سهى لفترة طويلة، أيقظه من سهوه قائلا:

(لذلك يا جدي شهد الأعداء قبل الأصدقاء على شجاعتهم وإخلاصهم وقالوا فيهم كلام كثير سمح:

(ما هزمناهم، لكن أبدناهم من أولهم لآخرهم، ولا واحد هرب)،

(أبداً ما في إنس ولا جنس ضحى مثلهم في هذه الدنيا)،

(ديل أشجع خلق الله المدفونين والماشين فوق الأرض).

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى: (ثاني رجعت لسرحانك يا حاج أحمد).

التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة عشرة فولط، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة وعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتيه وكوشيه تقاتل راجلة وبأيديها حراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادقها، ومدافعها، وقنابلها، جيوش مهدية بسيوفها، وحرابها، وعصيها، وحجارتها.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، ويرى نفسه، بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(٢)
بواكير صبـــــــا

يرى نفسه، قبل ثنتي وخمسين عاماً كان واقفاً كصنم أمام أبيه تحت شجرة نخيل يستمع إليه وهو يخاطبه قائلاً:

(يا ولدي الآن عمرك سبع سنين، دخلت الخلوة وحفظت من القرآن الكثير، لمنفعتك أحسن تذهب لأهلك في (ود البولاد) تتعلم في مدرستهم الأولية، المدينة محل إزعاج وتحصيل العلم يحتاج لجو هادئ، يا ولدي التعليم أصبح ضرورة، تعلم وما شرط تتوظف في الحكومة، إذا اشتغلت في تجارة البصل حقتنا دي تكون بصّالي شاطر).

أومأ له برأسه دلالةً على رده بالإيجاب.

بعد أسبوع واحد كان هو وشنطة صفيح مفتاح قفلها مربوط بخيط ملفوف حول ذراعه الأيمن على متن لوري (نيسان) حمولة سبعة طن يعمل في نقل ركاب وبضائع ما بين المدينة وقرية ود البولاد، استغرقت الرحلة زهاء الست ساعات، ما كان متصوراً أنه ذاهب إلى عالم جديد مجهول، ولكن في قرارة نفسه شعر بسعادة غامرة منشؤها أن اللوري يجري بهم في سرعة فائقة، في أرض واسعة مسواة، الهواء بارد منعش رغماً عن تشبعه بذرات غبار وتراب، السماء صافية، النجوم فضية لامعة، الركاب طيبون، بقلوب مفتوحة يتحدثون، لا يتركون كلاما تافهاً ولا فاضحاً إلا وفي غير حشمة يتناولونه وهم يتضاحكون، علق أحدهم بنبرة خبيثة:

(الحمد لله ما معانا مَرَة كان جابت أجلنا).

رد آخر قائلاً:
(لو امرأة واحدة خُتوا تحتها حجر، بإذن الله، ربنا يكفيكم شرها).

السائق داخل الكابينة ماسك بمقود شاحنته مزهواً كأنه ملاح طائرة جامبو، يتجاذب أطراف الحديث مع راكبين جالسين بجانبه في الأمور التي تُعْلي من شأنه، فهو زير نساء لا يشق له غبار، وهو سائق متفرد، وميكانيكي مقتدر؛ مساعداه جالسان فوق سقف الكابينة ينفثان دخان سيجارتيهما، يغنيان، يتمايلان، ويؤشران كصم وبكم لأن الريح تبعثر موجات صوتيهما، التقطت أذناه بصعوبة بالغة عبارةً واحدةً من كلامهما:

(دووس، دووس، يا أبو شخره يا معلـــم، دووس، دووس، خلي الحديد يتكلم).

رحلته سعادة وعذاب، ألم وفرح، تعب ورجاء، كل جوارحه مهيأة لمعاينة ود البولاد، شوقه لها يزداد كلما يزيد اقترابهم منها أكثر وأكثر، بعد ساعات خالها لن تنتهي مرق اللوري من بين بيوت طين وقش غارقةً في ظلام دامس، تتخلله بؤر لضوء باهت، سمع حميراً تنهق، كلاباً تنبح، وديوكاً تصيح.

سعادته في منتهاها، كأنه مغامر جاب أعالي البحار بحثاً عن جزيرة كنز، ولما رآها وقع مغشياً عليه من شدة الفرح؛ وقف بهم اللوري في سرة سوق، أضواء مقاهي لمطاعم تنير جنبات المكان، جمهرة من رجال نساء وأطفال التفوا حول اللوري الذي كانت ماكينته تشخر شخيراً عالياً يضاهي شخير عشرة ثيران هائجة؛ رنا ببصره في كل الاتجاهات مستكشفاً كل ما هو باين بين الظلال وما هو مستخف في الظلام، دكاكين مبنية من طوب أحمر تصطف أمامهم، خلفهم، وعن يمينهم، ويسارهم؛ قفز الركاب من فوق اللوري في رشاقة نسانيس تقفز بين أشجار بحثاً عن ثمار ناضجة، أما هو نزل على مهل، ما عنده ما يدعوه للعجلة، مسك بيد شنطة الحديد، وتشبث بالأخرى بزاوية حديد اللوري، انزوى في طرف قصي، جال ببصره في هذا المشهد الغريب.

سمع أبو شخره يتكلم مع رجل يبدو من طريقة كلامه معه أنه الشخص الذي يدير حركة هذا الموقف:
(معانا ولد صغير وصانا أبوه عليه، أدانا خطاب وقال يدوه لأي واحد من أولاد ود البولاد).
رد عليه بنبرة متلهفة قائلاً:
(أنا ذات نفسي واحد منهم، أديني الخطاب، وينوا الوليد؟)
أشار له بيده نحوه، لم يأخذ وقتاً طويلاً في قراءة الخطاب، نادى بصوت جهوري: (تعال، تعال يا ولد يا أحمد، خلاص وصلت أهلك تب، أبوك وأمك صحتهم وأحوالهم كيف؟ إن شاء الله أهلك كلهم طيبين ومبسوطين؟)
مشى بخطوات سريعة نحوه، رد عليه بنبرة مؤدبة قائلاً:
(الحمد لله يا عمي كلهم بخير).
جاءته كلماته برداً وسلاماً، في نبرة مترعةً شهامةً كرماً وطيبة قائلاً:
(وصلت خلاص يا ولدي أمورك تب مقضية ومحلولة).
نادى بصوت عال:
(تعال يا الحسين، أنت وين؟ تعال ودي أخوك أحمد البيت وقوم بالواجب، تعشوا أنا يمكن أتأخر شوية).
أيقظه من نومة عميقة جاءت بعد ليلة شاقة طويلة ما يشبه غناءً عذباً، غثاء شياه مخلوط بصياح ديوك وشقشقة عصافير، ليلة قاسى فيها ما قاسى من ألوان العذاب لأن ظهر اللوري لم يكن مفروشاً بحرير وإنما بجوالات محشوة بأشياء خشنة، صلبة، وناشفة، نكدت عليه، وحرمته متعة الجلوس، وجعلته يتململ ويتبرم ويتحرك يمنةً ويسرى كأنما ما تحته صخور سخنة ناتئة، سمع من الكلام حلو ومر، رأى من المشاهد جميل وقبيح؛ أول صباح له في القرية كان صباحاً فاتناً ماتعا، صباح من الصعب عليه نسيانه، خيوط الفجر الأولى تسللت في خجل إلى عينيه المتعبتين من طول سهر، نسمات باردة

من هواء عليل لامست في لطف مسامات وجهه المجهد بفعل لطمات تيارات هواء معاكسة ظلت تلطمه لأكثر من ست ساعات، ثغاء الماعز ساعة حلبها شنف أذنيه، الهدوء الآسر المخيم على المكان منحه إحساساً براحة وسعادة.

توسطت صينية شاي حليب وقطع زلابيا محلاة بسكر وعسل ديوان استقبال الضيوف، عمه ود البولاد في صدر المجلس، وهو والحسين وثلاثة من إخوانه الذين يصغرونه سناً الحسن، الخير، والفاتح يجلسون من حوله، يشربون لحد الارتواء، ولما يتوقفون يأتيهم صوته في نبرة لا تخلو من أريحية عجيبة قائلاً:
(اشربوا يا عيال، الخير كتير والحمد لله، لما كنّا في سنكم حدنا الحلقوم).

أخذه عمه إلى أهل داره، سلم على خالته نفيسة، وعلى بنتيها سعدية وسعيدة، زهرتان متفتحتان تتوهجان بندى الحياة، شعر في تلك اللحظة ببراءة الأطفال أن هناك شيء خفي يجذبه نحو سعيدة، خرج عمه وتركه مع أولاده في الديوان يتجاذبون أطراف الحديث، سأله الحسين وإخوته في براءة عن البلد التي أتى منها، كيف هي؟ كيف حياتها؟ كيف أناسها؟ ألهم حمير ونياق؟ ألهم سوق خميس؟ ألهم عربة كارو تجلب الماء من (الدونكي)؟ سألوه عن أشياء كثيرة لا حصر لها، أجابهم بان البلد الذي أتى منه مدينة كبيرة، حياتها زحمة وجري وتعب، وأهلها يركبون سيارات، حناطير، وبسكليتات، أسواقهم عديدة مفتوحة على مدار الأسبوع، وعندهم نيل جاري يصطادون فيه السمك، وعندهم...وعندهم؛ سألهم لماذا ليس لديهم نخلة تنمو داخل البيت؟ أجابوه بعفوية: (النخل لا ينمو عندنا، ينمو عندنا شجر السيال).

عاد عمه بعد ساعات قضى فيها بعض شئونه، وجدهم في نفس جلستهم التي تركهم عليها، جاءوا بطعام الإفطار، عصيدة بملاح تقليه وشعيرية، وبعد أن تناولوه هنيئاً مريئا خرج برفقة عمه، عمه يمشي أمامه حاملاً عصاه وهو على أثره متأبطاً شنطة الحديد، حث الخطى ليحافظ على مسافة معقولة بينهما.

وصلا المدرسة، وقفا عند بوابتها الكبيرة التي كانت عبارة عن عمودين من أعواد الشجر، مستعرض عليهما عمود طويل، رفع عمه العمود وبعد أن دخلا أعاده إلى مكانه السابق، ولج عمه مكتبا عليه لافتة مكتوب عليها (مكتب الناظر)، وقف بالخارج أجال أنظاره في آفاق عالمه الجديد الذي يدخله وفقاً لإرادة ورغبة أبيه، أتاه صوت عمه من كوة باب المكتب الذي انفتح وأحدث صريراً عالياً:

(تعال يا ولدي أحمد قابِل حضرة الناظر).

ارتعدت فرائصه قليلاً، كيف له أن يقف أمام ناظر، صاحب قوة، جبروت، أمر، ونهي، غشيته حالة أشبه بحالة وعل بري سمع زئير أسد، ولج من الباب ورجلاه تصطكان قليلاً تحت ثقل جسمه النحيف، جاءه صوت الناظر الذي ظلت نبراته هادئة متعالية محفوظة في ذاكرته طوال حياته:

(يا ابني يا أحمد منذ اليوم أنت ابننا وتلميذنا، ود البولاد نوارة البلد، ابنه ابننا).

مسك بورقة وقلم، كتب عليها ما شاء، مدها لعمه، ثم استطرد قائلا:

(اذهبا بهذه الورقة إلى أستاذ الفاضل مشرف الداخلية في المكتب المجاور).

شكر عمه الناظر غاية الشكر، ظل لسانه يلهج بالدعاء له بالتوفيق والصلاح بلا انقطاع، ذهبا إلى مكتب مجاور، دخلا كالعادة عمه أولاً وبقي هو بالخارج، بعد مدة سمعهم ينادون عليه، دخل وخوف ورهبة يأخذان منه كل مأخذ، خاطبه عمه بلهجة آمرة قائلاً:

(سلم على أستاذك الفاضل).
أتاه صوت جهوري خاطبه في لهجة صارمة قائلاً:
(أهلاً بك يا أحمد منذ اليوم أنت تلميذ بداخليتنا، لن تر ولن تسمع إن شاء الله ما يؤذيك أو يكدرك، بَلِغني أول بأول أي مشكلة تواجهك، خصوصاً وأنت ولد بندر، وأولاد القرية عفاريت، من طبعهم مشاكسة أولاد البندر).
خرج من مكتبه، نادى بأعلى صوته بلهجة حادة على تلاميذ كانوا في الأرجاء المحيطة بالمكاتب وبالفصول، يتسابقون كأحصنة سبق، يتصارعون كصغار فيلة، يتناطحون كسخلان معيز تحت المطر، يتمرغون في الرمال، ويتشعلقون في كل شيء، قائلاً:
(خلاص يا أولاد وقفوا اللعب، خلاص، أدخلوا الفصول، واحد يشوف (بلولة) رئيس الداخلية، يحضر حالاً).
لم تمض سوى دقائق معدودات إلا وبلولة بسحنة سوداء داكنة، وبطول فارع مميز، يقف أمامه وفي يده حلقة حديدية بها دقشة مفاتيح.
خرج صوت أستاذ الفاضل في لهجة آمرة قائلاً:
(رافق التلميذ الجديد أحمد، خليه يكمل العدد في عنبر ستة، وأعمل كل اللازم نحوه، اعمل حسابك ما اسمع منه شكوى).
ثم التفت نحو عمه الذي كان في غاية من غبطة وسرور وخاطبه في نبرة ودودة قائلاً:
(وأنت يا عمنا ود البولاد خلاص مهمتك انتهت، الولد ولدنا، تقعد معانا مرحب بيك، تزورنا في أي وقت مرحب بيك، كل خميس إن شاء الله ولدكم يكون عندكم يغير وجوه، يغير هواء، ويغير أكل كمان).
وقف عمه من على الكرسي الذي كان جالساً عليه ومد يده مودعاً قائلاً:

(الولد أمانة في رقبتكم، اللحم حقكم والعضم حقنا، أعجنوه زي ما تعجنوه، المهم يطلع راجل).
ودعه في مودة ومحبة كأنه يعرفه منذ يوم ولادته، قرص شحمة أذنه وهمس له قائلاً:
(مع السلامة يا أبو حميد، كل خميس تجي البيت، وما تنس أنفاسك عاديها في المدرسة، كل صغيرة وكبيرة معي أول بأول، وبعدين كلامي الحلو معك يبقى مر، الكرباج موجود، معمول لمن؟)
رد في سرعة فائقة قائلاً:
(للبختا الدرب).
مسك به بُلولة من طرف أصابع يده اليمنى والشنطة تحت إبطه، وعلى بركة الله توجها نحو عنبر ستة.
غمره في تلك اللحظة إحساس فياض بأن أبواب السعادة كلها انفتحت أمامه، أينما ذهب وجد أناساً طيبين، فرحين، مرحين، يحبون الحياة، يحبون الخير ويتفانون في خدمة الآخرين، وصلا عنبر ستة، (دُردُر) مدور أسفله مبني من حجر وأعلاه قمع مبني من قش، كان خالياً من ساكنيه الذين كانوا تلك الساعة في داخل فصولهم الدراسية، استل البلولة مفتاحاً من دقشة مفاتيحه التي تشبه دقشة حرامية البيوت (تُلب)، فتح قفل باب خشبي صغير، دخلا، من بصيص ضوء مترقرق من فراغات نافذتين خشبيتين متقابلتين، رأى ستة عناقريب صغيرة، على ثلاثة منها فُرُش من حصير سعف دوم وفوقها بطائن رمادية لون، وعلى اثنتين منها فرشان خفيفان من قطن، وغطاءان، أشار نحو عنقريب سادس عليه غطاء رمادي وخاطبه بنبرة ودودة قائلاً:
(ده فراشك، ضع الشنطة تحته وأبقى عليها عشرة، أعمل حسابك ما تفتحها قدام الأولاد، يلا نمشي على الفصول لتتعرف على فصلك ورئيس عنبرك).

عادا بنفس المسار الذي أتيا به، ما مرا بثلة من التلاميذ إلا وعيونهم تشرئب نحوهما، يحدقون فيهما كأن بلولة ليس هو بلولة الذي يعرفونه، وكأنما الذي يمشي معه مخلوق من كوكب آخر، نادى بلولة على تلميذ أقصر منه طولاً وأكثر امتلاءً، خاطبه بلهجة آمرة قائلاً:

(يا التوم قُدامك أحمد التلميذ الجديد في الصف الأول، معكم في عنبر ستة، أغراضه كلها هناك، أعمل حسابك، ده قريب عمنا ود البولاد وقريب شيخ الفاضل كمان).

ذهب إلى حجرة الفصل الأول، وجد التلاميذ أمامه يتصايحون وهم يلعبون ويتمازحون، وجموا لما رأوه يمشي نحوهم، ظلوا مبهوتين لفترة طويلة وهم يحدقون فيه ببلاهة، دخلوا حجرة الفصل ونظرات حب استطلاعهم تتابعه، جلس على حافة أول مقعد صادفه، بعد برهة قصيرة سمع صوت جرس المدرسة يرن، وإذ بتلاميذ في ثياب بيض قصيرة، تتدلى من على كتفهم حقائب قماش مدرسية، محشوة بألواح وأقلام أردواز، وأشياء أخرى لا علاقة لها بالمدرسة، تزاحموا وهم يحشرون أجساماً ضعيفة واهنة من خلال باب الفصل الضيق، جلسوا في أماكنهم وهم ينظرون نحوه بنظرات حملان وديعة ترى حملاً غريباً ينضم إليها، ثم دخل مدرسٌ، طوله فارع، جسمه ممتلئ، يرتدي قميصاً أبيضا، وبنطلوناً أسوداً، يحمل في يد يمنى سوط عنج قصير، وفي يد يسرى طبشورا أبيضا، صاح فيهم قائلاً:

(السلام عليكم، قيام).

وقفوا كلهم وفي صوت واحد ردوا:

(وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته).

صاح فيهم مرةً أخرى قائلاً:

(جلوس).

وبعد أن جلسوا أخرج كل واحد منهم لوحه وقلمه، لوحهم لا يشبه لوح خلوته اللامع ذو العطر البهيج المنحوت من خشب شجر الهجليج، وإنما لوح من أردواز جاف لا لمعة له ولا رائحة، وقلمهم ليس كقصبته التي كان يدخلها في دواية حبر معمول من هباب أسود ممزوج بمسحوق صمغ هشاب، أول حصصه كانت في مادة اللغة العربية، كتب المدرس حرفاً ونطقه بصوت جهوري (ألف)، أ، أسد، حاول التلاميذ تقليد رسم الحرف على ألواحهم وهم يرددون في نغمة موسيقية طروبه:

(أ...أ...أسد، أ...أ...أسد).

قال في سره بصوت لا يقل طرباً عن أصواتهم:

(حروف اللغة العربية الثمانية والعشرين عارفها، الكتابة منذ أن كنت في خلوة سيدنا فكي عيسى- عارفها، يعني أموري ميسرة، وما يحصل إلا خير).

مضت سنته الدراسية الأولى بسرعة عجيبة، مضت بخيرها وشرها، خيرها، في فترة وجيزة تآلف وانسجم مع أقرانه من تلامذة فصله، ومع أقرانه الذين يشاطرونه عنبر ستة، ومع عدد كبير من التلامذة سكان العنابر الأخرى، شرها، قملٌ يعشش، ويتكاثر، ويتناسل، وبيض في شعر وهدوم، مرقوتٌ يبني مستعمراته بين حبال عناقريب، الاثنان في شراهة عجيبة يمتصان دمهم على فقره وقلته؛ الخوف والرهبة من الناظر شعور لم يفارقه أبداً، يخشاه لوجه الله ولذلك كان يتحاشاه أينما يراه، يأتي الناظر أحياناً في طابور الصباح إلى ساحة العدالة التي تتوسط الفصول والمكاتب ليصدر توجيهات، وأحكام عقابية، ويأمر بتنفيذها على تلامذة مشاغبين، متأخرين، غائبين بدون عذر، ومتصنعين يدعون مرضاً هرباً من حصص تسميع وإملاء، كان دوماً يشيح بنظره بعيداً عنه خوفاً من أن تتلاقى نظراتهما لأن ذلك يعد نوع من أنواع قلة الأدب، لا ينس ذلك اليوم الذي

اندلعت فيه نار هائلة أتت على مطبخ الداخلية وعنبرين صغيرين، التهمت هدوم، نِعال، وشُنط حديد، دخل في مأزق كبير، وجد نفسه وجهاً لوجه قبالة الناظر الذي كان في ذلك الوقت يحمل سطلاً مملوءً بالماء يحاول مع الآخرين إخماد الحريق، ثيابه مبتلة، حالته لا تسر، هيئته لا تشبه هيئة ناظر، كتم ضحكةً طفولية عربدت في داخله، لأن ناظره كان آخر لخبطة، وآخر رثاثة، وآخر دمامة.

كان يذهب في نهاية كل أسبوع إلى بيت عمه برفقة الحسين الذي كان يسبقه بسنة دراسية، يترافقان إلى سوق الخميس، إنه يوم مشهود في القرية، تأتي إليه لواري من كل النواحي مثلما كانت تأتي مراكب إلى الموردة في زمان غابر حاملةً معها تجاراً وبضائعاً، دكاكين السوق صغيرها وكبيرها، طينها وزنكيها وقشها، بلا استثناء، تكون مفتوحةً على مصراعيها طوال ساعات نهار ذلك اليوم، مخازن السوق تغطي مداخلها وأبوابها أكوام تراب وروث بهائم، بين فينة وأخرى يفتحها أصحابها لإدخال بضاعة جديدة، أو إخراج قديمة، يفتحونها ويغلقونها بعد أن نسوها وأهملوها لفترات طويلة، عياشّةٌ.. يكومون عيوشاً، دخن، ماريق، زنارة، وفيتريتة علف الحمير، لا تستريح لهم يد من كيل متواصل للزبائن، تَقْتَقة طواحين الغلال (تُق.. تُق.. تُق.. تُق.. تُق..)، إيقاع موسيقي مصاحب لحركة السوق يدخل الأذن عنوة بدون استئذان، هتّاشّةٌ.. يبيعون كل شيء، خيوط، زراير، ملح طعام، وسكر، وخلافه كثير، لا يجدون فسحةً من وقت للذهاب لتبول أو لقضاء حاجة لأن المشترين يتقاطرون عليهم كنمل جائع، بلّاحّةٌ.. يبيعون التمور، قُنْديل غالي، بركاوي وسط، وجاو رخيص، يسيل العرق أبحراً على صفحات وجوههم وظهورهم لدرجة أن ملابسهم تلتصق كلزقة طبية بجلودهم وتجعلهم فريسةً سهلةً لكحة وزُكام، ولكنهم لا يهتمون، يكدحون ويكدون في أمان الله، قمّاشّةٌ.. يبيعون الثياب، نسائية، كِرِب، دمور، وزراق، ورجالية، دبلان، بوبلين، وقنجة

يغنـون فـائقين: (الكـرب السـادة.. جـابتني ليـك إرادة. خلـت قلوبنـا نداده.. وريدي كله ليك)، ينطون كقردة فرحى بخضرة غاب مطير، حطّابّةٌ وفحّامّةٌ.. يبيعون حطباً وفحماً، حطب دخان للنساء، حطب حريق للأفران، فحم مواقد لبيوت لم تسمع عن ولا تعرف بعد شيء اسـمه غـاز طـبخ، يتفحمـون بالتصـاق ذرات فحمهـم بوجـوههم وأطرافهم وملابسهم، يذكرون أهل السوق بالموت وبنار جهنم، كل صابون جاف وسائل موجود في دكاكين السوق لن يعيد لجلودهم مرةً أخرى نضارة لونها الأسمر، قصابون.. ينادون بحلوق كبيرة وألسن طويلـة عـلى لحـوم أنعـامهم الـتي يضـاهئون ببياضـها بيـاض قمـاش دبلان، وبكـروش كبـيرة، وسـكاكين حـادة طويلـة، وسـواطير سـنينة، يثيرون خوفاً، فزعاً، ورعباً في قلوب مشترين ومارة لا رغبة لهم في لحم أو عظم، خضَرجِية.. ينادون عل خضرهم، بطاطس، طماطم، فجل، جرجير، بصل أخضر، وليمون، ويغنون طربين: (الليلة والليلة نار أم بادر يا حليلة... جايبنو من باره شايلنو الجمالة)، يضفون على السوق أجـواءً سـاحرة تفـيض فكاهـة ومرحـا، الخـبز.. (حـلاوة رغيـف يسـيل لعـاب أطفـال المدرسـة والقريـة لـه كما يسـيل لعـابهم لحـلاوة قطـن)، معـروض في كل مكان في السـوق ما لاقي من يشـيل، رواكيب.. عشـش قـش تتمـدد عـلى طـرف السـوق، تبيـع أشريـة محليـة، بعـض النـاس يحسـبونها خمـراً وآخـرون يحسـبونها نوعـاً مـن أنـواع الفيتامينـات تكسـب أجسـامهم قـوة ومناعـة، مريسـة، بقنيـة، وعسـلية، يلتهمـون أثناء شرابهم لها كميات مهولة من لحم مشوي على الجمر، في يوم السـوق، يـدخل الفـرح قلـوب كل النـاس، يبيـع مـن يبيـع، يشـتري مـن يشـتري، ويـدفع عربونـا مـن يـدفع، كلهـم في ذلـك اليـوم يـأكلون لحمـاً، خبزاً، وخضارا، تلامذة داخلية المدرسة.. يذهبون إلى السوق، المُرِيش والمُفَلِس، كلهم يأكلون، ويشربون ما يشتهون، وفي داخليتهم يتناولون وجبةً خاصة، فوق العادة، عامرة بمرق، لحم، ورغيف.

كاتب الصحة (ود طه).. على عاتقه تقع مسئولية صحة عامة بيوت القرية، مدرستها، محكمتها، نقطة غيارها، زريبة مواشيها، وسوقها الذي يطوف في كل خميس على دكاكينه، ملاحمه، أمكنة بيع خضره، مطاعمه، وأفرانه، يوزع ضحكات مُلَح وطرائف، يؤلف جديداً منها في كل يوم سوق ليبرهن بها على حدة ذكائه، حنكته، وسذاجة وغباء كل من يحاول غشه واللعب عليه، له قدرة عجيبة على اكتشاف ألاعيب القصابين الذين يحاولون بيع اللحم (الكيري) غير المختوم بخاتمه الذي يؤكد خلوه من أمراض وديدان، وألاعيب الهتاشّة الذين يبيعون زيتاً زنخاً نتناً من طول التخزين، وألاعيب غيرهم من تجار محتالين.

إدارة وحفظ الأمن والنظام في سوق شاسع مترامي الأطراف مزدحم بالخلق منوطة بستة أشخاص، شرطيان، اثنان من خفر عمدة البلد، كاتب سوق، وكاتب زريبة بهائم؛ هم السلطة وزيادة، مع ذلك لا يحشرون مناخيرهم إلا في الذي يعنيهم، أما ما لا يعنيهم لا علاقة لهم به أبدا، إنهم جزء من حياة الناس لا فوقها ولا تحتها، لا يعنيهم حجم معاملات مالية تتم بين التجار، لا يضايقونهم أبدا، لأنهم غير مهتمين بإيرادات تجمع، أو رسوم تفرض، أو حوافز تصرف.

قبل الغروب.. يعود القادمون للسوق إلى من حيث أتوا، وتعود القرية إلى حالها الأول، يعود إليها هدوؤها، ركودُها، سكونُها، وكمونُها، كل شيء فيها ممل رتيب، تتنفس بصعوبة كضفدع في حالة بيات شتوي، وتعود إليها الحياة في ثوب جديد مع كل خميس جديد، وهكذا لها دورة حياتية مداها أسبوع، تكون في حالة صحو بهيج كل خميس وفي نوم عميق باقي أيام الأسبوع.

في منتصف سنته الدراسية الثانية اندلعت أكتوبر، ثورة مجيدة، كل تلامذة المدرسة، من صفها الأول إلى الرابع ما كانوا يدركون معناها، ولكنهم كانوا يعلمون أن إخوة لهم، طلاب كبار هم الذين

أشعلوا نارها، هم الذين غيروا الحكومة، ولذلك كلهم عن بكرة أبيهم كانوا يحفظون عن ظهر قلب نشيدها، يرددونه في مناسبات وفي غير مناسبات، يدندنون بأحلى مقاطعه في الحمامات، وفي الفسح بين الحصص، وفي عنابرهم الضيقة عند النوم:

أصبح الصبح فلا السجن ولا السجان باق
وإذا الفجر جناحان يرفان عليك
وإذا الحزن الذي كحل هاتيك المآقي
والذي شدّ وثاقاً لوثاق
والذي بعثرنا في كل وادي
فرحة نابعة من كل قلب يا بلادي
يا بلادي.. يا بلادي.. يا بلاااااااادي

انقضت من عمره أربع سنوات، في شهر مارس من كل عام، ذروة حر شمس الصيف الحارقة، حينما تخترق أشعتها جلد فروة لحم الرأس كحقنة تمُرجي، يعود إلى مدينته في عطلة طويلة مداها ثلاثة أشهر، يقضيها في جلوس تحت النخلة، وفي منادمة ومناجاة لا تنقطع أبداً مع جده آدم، وجدته حليمة، وأبيه أيوب، وأمه بتولة، وأختيه نجوى ونجاة، وفي مساعدة أبيه في دكانه في زريبة البصل، أبوه مشهود له باستقامة ونزاهة وحل المشاكل التي تنشأ بين الناس، في واحدة من تلكم العطلات فارقت الروح جسد جده آدم، رحل عن الدنيا بعد أن ضعفت قواه، حواسه، وجوارحه، لحقت به جدته حليمة بعد شهر، لم تطق العيش من بعده، وبفقدهما فقد أنيسين وجليسين مجمعا حكمة وإباء، مستودعا حب ووفاء، وملاذا آمناً عند الشدائد؛ يعود في بداية كل شهر يوليو مرةً أخرى إلى مدرسته، تغيرت ملامح وجهه قليلاً، أصبح أكثر طولاً وصوته أكثر خشونة.

أكمل مرحلته الأولية بنجاح، شبع فيها من قراءة مجلة الصبيان، صاحب فيها عمه تنقو وخالته العازه، استمتع بنوادر وحكايات عمه جحا التي تضحك الحجر، ونوادر عمه الطنبوري التي حدثت له بسبب كوارث جرها عليه حذاء لعين، تمتع بحصص مدونة طبيعية عرف فيها كيف يدون ويصف بالتفصيل مشاهداً لاحظها على مدار أيام أسبوع فائت، وكيف أن صفحات كراسة المدونة الخاصة بيوم الخميس، يوم السوق، تكون دائماً متخمةً ببيانات ومعلومات أكثر تفصيلا، حالة الطقس: غائم ملبد بغيوم، حالة الشمس: متوارية، وأشعتها باهتة خجولة تتسلل بين سحب تغطي صفحة السماء بأشكال متغيرة مدهشة، تنحتها رياح بأزاميل فنانة، حالة الأمطار: نزلت أمطار كثيفة أضحكت أعشاباً، وازهاراً برية خرجت من رحم أرض طيبة، أشياء مشاهدة في ذلك اليوم: رغيف، موز، برتقال، جرجير، بصل أخضر، طماطم. خلب لبه، سحره، وشد نياط قلبه نشيد آخر غير نشيد الثورة، إنه النشيد الذي عرَفَه بتراب الوطن، النشيد الذي ردده عشرات المرات مع أترابه في الفصل في حماسة وغبطة منقطعة النظير، النشيد الذي لم يزل يحفظه ملحناً عن ظهر قلب:

في (القولد) التقيت بالصديق *** أنعم به من فاضل صديقي
خرجت أمشي معه للساقية *** ويا لها من ذكريات باقية
فكم أكلت معه الكابيـــــدا *** وكم سمعت آورو ألـــودا

وتتوالى باقي المقاطع عن (ريره)، (الجفيل)، (بابنوسة)، (يامبيو)، (محمد قول)، (ود سلفاب)، (أم درمان)، (أتبرة).

آخر مقاطعه:

كل له في عيشه طريقـــــة *** ما كنت عنها أعرف الحقيقة
ولا أشك أن في بـــــــلادي *** ما يستحق الدرس باجتهاد
فأبشر إذن يا وطني المـفدى *** بالسعي مني كي تنال المجدا

انتقل بعدها إلى مرحلته الوسطى في بلدة أكبر، لأن العلاقة بين درجة المدرسة وحجم القرية اضطراديه، من العبارات التي لا ينساها، وكان أبوه أيوب يرددها كثيراً عندما تعود به الذاكرة إلى المدارس في أيامهم، وعزوف الناس عن إرسال أبنائهم إليها:

(لا فائدة من فصول ومدرسين بلا تلامذة، مثل لا فائدة من راعي ومرعى بدون غنم).

هنا.. كذلك عاش، سكن، وتمتع على نفقة أم ودودة تدللا يسمونها (الحيكومة)؛ الخارطة المعمارية لمدرسته الوسطى هي نفسها لمدرسته الأولية، إلا أن الاتجاهات هنا معكوسة، ما يوجد هناك في جهة الشمال يوجد هنا في جهة الجنوب، عنابرها من حجر، حجارتها جبلية صلبة، بيوت مدرسيها في وسطها، بيت ناظرها أكبر وأرحب وأوجه، يفصل ميدان فسيح بين عنابر وبيوت من جهة، وفصول ومكاتب من جهة أخرى، به ملاعب كرة قدم، كرة سلة، وكرة طائرة، ومسرح، وقاعة كبيرة سفرة لتناول الطعام، يأتيها تلاميذ الداخلية في ساعات محددة لتناول ثلاث وجبات، يملؤون بطونهم بما لذ وطاب من أطعمة، أرغفة وفول أو عدس في الفطور، أرغفة وفاصوليا أو أسود أو قرع في الغداء، أرز بلبن في العشاء؛ وبعد أن تخلو من روادها وتغلق أبوابها ويذهب عمالها في حال سبيلهم، تأتي حمير، معيز، كلاب، وقطط من خلال فتحات في سور شوكي هش متآكل، ترتع كما يحلو لها، تعيث فساداً في مخلفات أكل مكومة؛ بها بئر سطحية عمقها طول سبعة رجال تمدها بمياه سقيا وشرب، تروي نباتات زينة، وأشجاراً ظليلة تضفي عليها هالة من جمال أخضر أخاذ.

أكرمه الله بود بولاد آخر اسمه (الباهولي)، حيره هذا الاسم وجعله يتساءل من أين أتى هذا الاسم الغريب؟ زالت حيرته حين علم من كهول الحي أن الباهولي الجد البعيد حمل هذا الاسم الذي يدل على إفراط في جود وكرم من بَهَل يَبْهُل فهو باهِل باذِل، ولذلك بيته داخلية مصغرة، سبحان الله في بيته تنمو نخلة الخالق الناظر من نخلتهم الكريمة، طويلة وحلوة، ديوانه يؤوي أربعة تلامذة قدموا من قرى مختلفة، وكما كان رفيقه خلال المرحلة الأولية الحسين ود البولاد فإن رفيقة خلال المرحلة الوسطى مكاوي ود الباهولي، يأخذه في نهاية كل أسبوع إلى بيتهم، يغير وجوهاً مُبَوِزة، يغير أكلاً، ويغير هواء، يسمع حكايات عمه الباهولي التي لا تنتهي أبدا؛ سوق بلدته الجديدة لا علاقة له بيوم خميس أو غيره من الأيام، أبوابه مفتحة على الدوام، دكاكينه عديدة، من كل الأحجام، موزعة في أنحائه حسب التخصص، دكاكين حلاقين، محلات حدادين وسمكرية، زنك قصابين، زنك خضر ـ وفاكهة، زنك نسوان، شجرة دجاج، مطاعم ومقاهي، زريبة محاصيل، زريبة حيوانات، موقف لواري؛ يحيط به من كل الجوانب مكتب بريد، مركز شرطة، سجن، مستشفى، وبيوت تبدو عليها مسحة من تنظيم وتخطيط عمراني، وبعدها يتغير الحال، تتبعثر في غير نظام بيوت عشوائية من قش متناثرة هنا وهناك.

مرت أربع سنوات طيف أحلام جميلة، شبع فيها من أكل حلاوة طحنيه سعد معبأة في علب فضية حديدية مدورة مغطاة بطبقة زيت سمسم زكي، ومربى سعيد معبأة في برطمان زجاجي أنيق، شبع فيها من لحس عسل ذهبي، وارد بريطانيا، معبأ في علب خضراء مرسوم عليها صورة أسد، شبع من أكل سمك سالمون معبأ في علب سردين صغيرة، يفتحونها بمفتاح سحري يدخلون طرف غطاء العلبة في فتحة فيه ويلفونه برفق فينطوي الغطاء كسجاد، ويظهر سردين متلاصق بصورة تسيل اللعاب؛ هنا كذلك لم تتخل عنه أمه الشفوقة

الحيكومة، يتعلم، يأكل، يشرب، ويتعالج على نفقتها؛ تعلم شوية إنجليزي، تعلم شوية فصاحة وبيان لسان عربي، اكتسب شجاعة أدبية جرأة وإقدام، بدأ يفهم شيئاً فشيئا معنى وطنية وحب وطن؛ جاءت مايو، بعض الناس سموها ثورة، ثورة على أوضاع كثيرة كانوا يرونها مقيدة لطاقات وطن، لا تفجرها بالقدر الذي يجعل عمليات تطوير، تنمية، وبناء، ممكنة، آخرون سموها انقلاب، انقلاب على شرعية كانت تحكم من خلال آلية ديمقراطية، ما كان على قدر كاف من وعي وفهم وإدراك يجعله قادراً على تمييز وتحديد موقفه بالانحياز إلى إحدى الفئتين، لم تسعفه في الخروج من هذا مأزق كل الكتب التي قرأها باللغة العربية، ألف ليلة وليلة، قصص جرجي زيدان، وخلافها، وباللغة الإنجليزية، كنوز الملك سليمان، وجزيرة الكنز، وأيام توم براون المدرسية، وأوليفر تويست؛ كل كتبه التي قرأها كانت كوم، وقصة أوليفر تويست كوم آخر، رسخت تفاصيلها في دماغه، وأثرت في تفكيره، وفي كثير من آرائه فيما بعد، ربما لأن هناك أوجه شبه بين حياة داخلية وحياة إصلاحية، الاثنان يوفران مأوى وطعام، ولهما لوائح، وقوانين، ونظم تقيد الحريات، مرت برفق أحداث الرواية أمام عينيه:

(أوليفر، في إصلاحية صغيرة للأحداث ولدته أمه هزيلاً ثم فارقت الحياة، لا يعلم أحد من أين أتت أمه، ترعرع أوليفر في إصلاحية لا يعرف أي شيء عن والديه، كبر شاحباً نحيلاً، كان يعامل بمهانة ويضرب مع أقرانه إذا ما اشتكوا من الجوع، أجبروا على العمل مقابل ثلاث وجبات بسيطة بالكاد تبقيهم على قيد الحياة، حساءً خفيفاً يومياً مع بصلة مرتين في الأسبوع ونصف كعكة أيام الآحاد، اختاره رفاقه لطلب المزيد من الطعام، ضرب بقسوة وعومل بعنف ثم سجن، في اليوم التالي علقت لافتة على بوابة الإصلاحية الخارجية تقدم مكافأة قدرها خمسة جنيهات لأي شخص يأخذ أوليفر

المشاغب، وذلك للتخلص منه بطريقة قانونية؛ جاء الحانوتي (سوربري) وطلب أخذ أوليفر ليعمل معه وليحصل على تلك المكافأة، كان الحانوتي طويلاً نحيفاً يرتدي بدلة سوداء قديمة وهو متعهد لدفن موتى الإصلاحية، لأنه حسب حساباته أن أجساد موتى الإصلاحية ضئيلة بسبب الجوع ولا يحتاجون لخشب كثير لعمل توابيت لهم، بات أوليفر ليلته تلك بين التوابيت، لم تك معاملته هنا بأحسن منها في الإصلاحية سواء من قبل الحانوتي وزوجته أم من قبل (نوح كلايبول) وشارلوت اللذان يعملان مساعدين للحانوتي؛ وعلى أثر مشادة بين أوليفر ونوح تعرض أوليفر للضرب بمهانة والسجن؛ فر في اليوم التالي إلى لندن التي تبعد مسافة سبعين ميلاً ليعيش حياة ثانية مليئة بأحداث محزنة؛ تعرف في طريقه إلى لندن على (جاك دوكنز) والذي يعرفه بدوره على اليهودي العجوز النحيل (فاغن) ذو وجه شرير وشعر أحمر كثيف، شيئاً فشيئا اكتشف أوليفر أنه وقع في شراك عصابة تستغل الصغار أمثاله وتسرق المارة وتمارس كل أعمال إجرامية، شاهد تدريباتهم في كيفية سرقة علب تبغ، كتب ومناديل جيب، ودبابيس قمصان، ثم دفعوه إلى محاكاتهم وأوحى إليه فاغن أنه بهذا العمل سيكون عظيم من العظماء؛ تعرف هناك على فتاتين هما (بت) و(نانسي)، الأخيرة كان لها دور كبير في بقية حياته إذ كثيراً ما أشفقت عليه وساعدته وتعرضت بسبب ذلك للعقاب؛ مع أول عملية سرقة شارك فيها أوليفر كمراقب جرح وقبض عليه لقلة خبرته، حكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أشهر ولم ينفذ الحكم بسبب شهادة صاحب المكتبة (براون لو) الذي رأى كل شيء وجاء إلى المحكمة طواعية وشهد ببراءة (أوليفر)؛ أشفق الرجل الطيب السيد لو عليه وأخذه معه لمسكنه للعناية به، بعد ثلاثة أيام من العناية المكثفة أحس أوليفر بسعادة وبأنه فعلاً ينتمي لهذا العالم، بعد أن استمع لو لحكايته أشفق عليه واستبقاه معه، ولكن الحظ الذي ابتسم له لم يدم طويلاً فقد كان أفراد عصابة فاغن له بالمرصاد،

نجحوا في اختطافه حينما كان في مهمة شراء حاجيات للسيد (لو) وسلبوا ما بحوزته من نقود وأشياء؛ سدوا عليه طريق العودة وعاملوه معاملة قاسية ودربوه تدريباً جديدا ثم أجبروه على المشاركة في عملية سطو جديدة على أحد المنازل، تم إدخاله من فجوة لصغر حجمه ليقوم بفتح الباب، فشلت العملية ودفع أوليفر الثمن أيضا، أصيب وأغمي عليه، نقل إلى البيت الذي حاولوا سرقته، بدلاً من أن يوشي به أهل البيت إلى الشرطة عطفوا عليه لما رأوا شدة بؤسه، امتد عطفهم لفترة تزيد عن الثلاثة أشهر أصبح فيها أوليفر محبوباً من الأسرة الصغيرة؛ في هذا البيت عرف أوليفر حقيقة أمه وأن له أخاً من أبيه يدعى (مونكس)، وأن (مونكس) هذا هو ذلك المجرم الذي ينتمي لعصابة فاغن التي وقعت مؤخراً في يد العدالة لتنال جزاءها؛ في نهاية القصة، الأسرة التي رعت أوليفر كانت على صلة مع السيد لو، ساهم السيد (لو) مع آخرين في إماطة اللثام عن حقيقة أوليفر حيث اكتشفوا أن والده كان ميسور الحال، وأنه وقع في غرام أم أوليفر التي توفى عنها والدها آنذاك وكان أوليفر ثمرة ذلك الحب؛ استطاع لو إرجاع بعض الإرث الذي يخص أوليفر مما جعله سعيداً بحياته الجديدة).

بؤس وشقاء المسكين أوليفر ظلل قلبه ووجدانه كأعمق ما يكون، ترسخ بصلابة في داخله، لون له الحياة بلون رمادي قاتم، أصبح بمثابة محفز له ليسلك مسالك شريفة في حياته؛ من ناحية حيوية أصبح صوته غليظاً، امتلك ماكينة حلاقة استخدمها في إزالة وتشذيب شعرات بدأت تنبت في كثير من أجزاء جسمه وبالذات وجهه، أصبحت له مرايا ينظر فيها إلى وجهه إن كان فيه ما ينفر أو يجلب ازدراء الجنس اللطيف، خصوصا الطالبات ذوات الحسن والجمال اللائي يكن لهن أسمى آيات حبٍ ولهٍ وتقدير، ويذكرنه في نفس الوقت بذلك الوجه الذي سكن قلبه، وما غاب عن باله أبداً، وجه سعيدة.

انتقل إلى مرحلة أرفع، الثانوية، مدرسته الجديدة في مدينة أكبر، على بعد لا يتجاوز الستة كيلومترات من طرفها الشرقي، مدرسته مدينة مصغرة، بها أحد عشر مجمعاً لسكن طلابها، في كل مجمع ستة عنابر كبيرة لها صالات واسعة، كل ثلاث منها متقابلات، بينهما عدد من الحمامات، في الوسط حديقة غناء، تسكنها وتغشى أشجارها المزهرة والمثمرة أنواع بديعة الألوان من طيور مغردة، بداخلها مساكن لناظرها وأساتذتها، بخارجها مساكن عمالها وأسرهم، بها ميادين عديدة لأنشطة رياضة، بها قاعة عظيمة سفرة لتناول الطعام، بها مسجد كبير، بها فصول، ومكاتب، ومعامل، ومكتبة، بها مراسم لفنون جميلة، مسرح، ووحدة علاجية.

عندما لامست قدماه ترابها، حلت حقيبة جلدية محل شنطة الحديد الصغيرة، حملت في جوفها كل مطلوبات وردت في خطاب استباقي أرسلته إدارة المدرسة لأبيه، بشكير، قميصان نصف كم أبيضان، رداءان من الكاكي، ثلاث فانيلات قطنية ومثلها من ملابس داخلية، شبشب صندل، خمسة وعشرون قرشاً للشارة المدرسية؛ أرشدوه إلى مجمعه السكني، الذي كان مواجهاً لسفرة الطعام.

إنه فعلاً عالم سحري، زملاؤه من الطلاب الذين يشاركونه المسكن وفصل الدرس تخطوا مرحلة الطفولة، إنهم ناضجون راشدون، أساتذته أكفاء مقتدرون، العمال يتفانون في خدمة الطلاب بدرجة محيرة، إلا خصمه الدائم، الناظر، لم يزل يحسب له ألف حساب، كلما ارتقى في السلم التعليمي تبدو له شخصية الناظر أكثر صرامةً وتسلطًاً وجبروتا؛ إذا ما وقف سيئ حظ من الطلاب أمامه لأي سبب من الأسباب، الويل له، نظرات صارمة قاسية حازمة تخترق عينين مسالمتين خائفتين، النتيجة إما طرد (فَيَر)، أو إبعاد من الدراسة لفترة محددة (سَسْبنشُون)، أو عقاب جسدي مبرح

(بنِشْمنْت)؛ حياته سارت سيراً دقيقاً منتظماً كعقرب ساعة، الداخلية أقرب إلى ثكنة عسكرية منها إلى سكن طلاب، الأتقياء المواظبون على الصلاة يصلون الفجر حاضراً في المسجد، والباقون ينفضون نعاساً من عيونهم وهم يتزاحمون على أبواب مراحيض وحمامات؛ الساعة السابعة صباحاً بالضبط يرى ذلك الشخص المميز، الذي لا شبيه له، كلامه بميزان، حركته بميزان، سمته متفرد، قصير لحد ما، ممتلئ الجسم لحد ما، تعابير وجهه جافة، إنه (الدليل) القمر الذي ينير دجى المكان ويعلم من فيه الحسبان، ساعته ضابطة للزمان، المايسترو الذي يضبط إيقاعات حركة المكان، يقرع الناقوس فتخرج أصوات مميزة تقول لمدرسين ودارسين: (كَلَنغْ...كلنغْ.. كَلَنغ.. كلنغ.. هيا إلى الفصول.. كلنغْ.. كلنغ.. كلنغْ.. إلى الفصول.. هيا.. هيا)؛ بعد انتهاء حصتين أوليتين يذهب الطلاب لتناول طعام الإفطار، ثم يعودون لفصولهم لأداء ثلاث حصص أخرى، الساعة الثالثة بعد الظهر يتناولون طعام غدائهم، الساعة الرابعة عصراً راحة إجبارية، الساعة الخامسة عصراً كل واحد منهم يكون حسب اختياره في واحد من أربعة أمكنة، إما ميدان نشاط رياضي، أو قاعة موسيقى، أو ميدان تدريب عسكري (كاديت)، أو طريح سرير مستشفى، اختار الخيار الأول لأنه الأسهل، ولأنه بطبعه غير ميّال للخيارين الآخرين، الساعة السابعة مساء مذاكرة إجبارية، الساعة التاسعة مساء خلود لنوم. إنه عضو نشط في جمعية الرواية والقصة القصيرة، والشعر، ممثل مسرحي بارع، لاعب كرة ممتاز له معجبون؛ الكتب المدرسية ليست هي كل همه الشاغل، إذا بدأ قراءة كتاب لا يهدأ له بال إلا بعد أن يأت على آخر صفحاته، تستهويه بالعربية كتب سيد قطب، طه حسين،

عائشة بنت الشاطئ، سهيل إدريس، ومنشورات كيم إيل سونق، ومذكرات الجنرال دياب؛ وبالإنجليزية روايات لورنا دوون، أبك يا وطني الحبيب، مزرعة الحيوانات، وبلد العميان التي ترسخت داخله مثلما فعلت رواية أوليفر تويست، لأنها تذكره بجده آدم، الذي قضى آخر أيام حياته في ظلام دامس دائم، ولأنه يرى ضعف الأنسان يتجسد حقيقة في العميان، بالذات الشحاذون الذين يتحسسون طريقهم بعصيهم بصعوبة أو يقودهم أولاد حلال، والعميان الكتاكيت الصغار الذين لا حظ لهم في دخول المدارس، مرت أحداث القصة بلطف أمام عينيه كما مرت قصة أوليفر: (مجموعة من المهاجرين من بيرو فروا من طغيان المستعمرين الإسبان، حدثت انهيارات صخرية في جبال (الأنديز)، عزلتهم في واد معزول عن باقي العالم، انتشر بينهم نوع غامض من أمراض العيون أصابهم كلهم بالعمى، اعتبروه سخطاً إلهياً نتيجة لانتشار الخطيئة بينهم، لم يدخل واديهم ولم يخرج منه أحد لآماد طويلة، ورَثُوا أبناءهم العمى جيلاً بعد جيل؛ ظهر بطل القصة (نيونز)، متسلق جبال، تسلق مع مجموعة من صحبه هذه الجبال، زلت قدمه في الليل وسقط من أعلى، سقط لمسافة شاسعة كانت كفيلة بأن تجعله في عداد المفقودين، نجا من الموت بأعجوبة بسقوطه فوق وسادة ثلجية، عندما بدأ المشي بصعوبة رأى البيوت تملأ الوادي، لاحظ أن ألوانها غريبة فاقعة متعددة وليس بها نوافذ، خطر له أن من بنى هذه البيوت أعمى خفاش؛ صرخ ونادى على الناس، لم ينظروا نحوه، تأكد أنه في بلد عميان، شرح لهم من أين جاء، جاء من (بوقاتا) حيث الناس مبصرون، لم يفهموا معنى مبصر، تعثر أثناء المشي، راحوا

يتحسسون وجهه ويلمسون عينيه، بدت لهم عيناه عضواً غريباً، قدروا أنه غير طبيعي، حواسه ضعيفة وينطق بأشياء غريبة؛ أخذوه إلى زعيمهم، أدرك نيونز هنا أنهم يعيشون في ظلام دامس وهو أضعفهم لأنه ليس مثلهم، مر عليهم وهم في هذا الحال خمسة عشر جيلاً، وبالتالي أي عالم غير عالمهم الذي يألفونه عالم أساطير، معادلهم الحسي لليل والنهار الدافئ والبارد، فلسفتهم عجيبة الزمن يتكون من جزئين بارد ودافئ، ينام المرء في الدافئ ويعمل في البارد؛ ظن نيونز أنه سيكون ملكاً عليهم بلا منازع لأن الأعور في بلد العميان ملكاً كما الأعرج في حارة المكسحين ملكاً، لكنه اكتشف أن هذا الأمر بعيد المنال، إنهم يعرفون كل شيء بآذانهم، يعرفون حتى المشي فوق العشب والصخور، يستعملون أنوفهم ببراعة تامة؛ حكى لهم عن جمال الجبال وغروب الشمس، صغوا له وهم يبتسمون ولا يصدقون حديثه، رأى أن يريهم أهمية البصر، رأى شخصاً يدعى بيرو قادماً من بعيد، قال لهم: سيكون بيرو هنا حالاً، أنتم لا تسمعونه ولا تشمون رائحته ولكني أراه، بدا عليهم الشك وظلوا ينتظرون، لسبب ما غير بيرو مساره وابتعد، راح يحكي لهم عن ما يحدث أمام المنازل، طلبوا منه أن يحكي لهم عن ما يحدث بداخلها إذا كان البصر مهم؛ حاول الهرب لكنهم لحقوا به بأساليبهم المخيفة، إذا ما حاول ضربهم سيخضعون لقوته ولكنهم سينتقمون منه وهو نائم؛ بعد أن فر ليوم كامل في البرد والجوع عاد مكرهاً ليعتذر لهم بقوله: (اعترف بأني غير ناضج لا يوجد شيء اسمه البصر)؛ لأنهم طيبون صفحوا عنه ولكنهم جلدوه وكلفوه ببعض الأعمال؛ بدأ في هذا الوقت يميل لفتاة، ما كانت هذه الفتاة محبوبةً من العميان لأن وجهها حاد ليس به منحنيات

ناعمة وصوتها عال وأهدابها طويلة، وذلك يخالف فكرتهم عن الجمال؛ عندما طلب يدها لم يقبل أبوها لأنهم يعتبرونه أقل من مستوى البشر، يعتبرونه واحداً من المجاذيب، ولكن الفتاة كانت تميل إليه، وجد أبوها نفسه في مشكلة لذا طلب رأي الحكماء، كان رأيهم قاطعاً: (لهذا الفتى شيآن غريبان منتفخان وجفناه يتحركان عليهما يسميهما العينين، وهذا العضو المريض هو سبب تلف عقله ولا بد من إزالته ليسترد عقله، ومن ثم يتزوج الفتاة)؛ ملأ الفتى الدنيا صراخاً: (لن أضحي ببصري مهما كان الثمن)؛ بكت الفتاة وهمست: (ليتك تقبل يا حبيبي، ليتك تقبل)، هكذا صار العمى شرطاً لكي يرتفع المرء من مرتبة الانحطاط ويصير مواطناً كاملاً؛ قبل الفتى أخيراً بأن تكون أيامه القادمة هي الأخيرة مع حاسة البصر، خرج ليرى العالم للمرة الأخيرة، رأى الفجر يغمر الوادي بلونه الساحر، رأى الأنهار والغابات، رأى زرقة السماء والنجوم، أيفقد كل هذا النعيم من أجل فتاة؟ حياته هنا لطخة آثمة، كيف ولماذا أقنعوه أن البصر-شيء لا قيمة له؟ اتجه إلى حاجز الجبال حيث توجد مدخنة حجرية تتجه لأعلى، تسلقها، عندما غربت الشمس كان بعيداً جداً عن بلد العميان، نزفت كفاه وتمزقت ثيابه ولكنه كان يبتسم ويرفع عينيه يرمق بهما النجوم) بدلت الرواية نظرته للعمى والعميان، لم يعد العمى له نقيصة في الإنسان، ولم يعد العميان مجرد شحاذين، لم يعودوا مجرد بؤساء يستدرون العطف، وإنما هم إخوة له يعزهم، ويحترمهم، ويحبهم حبا لا يقل عن حبه لجده رحمة الله عليه الذي فقد بصره في آخر أيام عمره في بداية سنته الدراسية الرابعة، وهو على أعتاب الجلوس لامتحان الشهادة الذي يؤهله لدخول الجامعة حدث ما

قلب حياته رأساً على عقب، ما غير مسارها في مقبل الأيام؛ وهو يمني نفسه بمضاعفة الجهد، يمني عينيه بسهر متواصل، يمني عقله بألا تفوته شاردة ولا واردة من دروس، ليحوز في نهاية المطاف على نتيجة باهرة تؤهله لدخول الجامعة، جاءه نبأ عظيم بأن والده فجأةً فارق الحياة، لم يستطع الناظر، ولا الأساتذة، ولا زملاؤه إخراجه من دوامة الحزن التي دخل فيها، قالوا له أن هذا هو حال الدنيا كل شيء فيها إلى زوال ولا يبقى إلا وجه الرب ذو الجلال والإكرام، معدن الرجل الأصيل يظهر عند الشدائد، الميت ينفعه من بين ما ينفعه بعد موته ابن صالح يدعو له؛ ودعوه وهو يتهيأ للذهاب للبلد، التفت نحو مباني المدرسة، نظر إليها بنظرات لا تخلو من حزن دفين، وهو لا يدري أن تلكم هي التفاتاته ونظراته الأخيرة، ودعهم بعيون دامعة، بقلب محطم، بجناح مكسور. طوال رحلته الحزينة لم تفارقه صورة أبيه، صور كثيرة لأبيه مطبوعة في ذاكرته، ولكن صورة واحدة ظلت تتحرك بقوة أمام ناظريه كلما واجه موقفاً مصيرياً، صورته وهو واقف كالصنم أمام أبيه تحت النخلة وصوته الأبوي الحنون يخاطبه في نبرة حانية قائلاً: (يا ولدي عمرك الآن بلغ سبع سنوات، الحمد لله دخلت الخلوة وحفظت من القرآن الكثير، لمنفعتك أحسن تذهب لأهلك في (ود البولاد) تتعلم في مدرستهم الأولية، المدينة مزعجة وتحصيل العلم محتاج لجو صافي، يا ولدي التعليم ضرورة، تعلم وما شرط تتوظف في الحكومة، إذا عملت في تجارة البصل حقتنا دي تكون بصّالي شاطر)؛ انهمرت دموع عينيه وهو يحتضن أمه وأختيه الواحدة تلو الأخرى، ذهب أبوه إلى غير رجعة، معشي الضيفان، من يبيت سهران لأجل أهله وجيرانه، ذهب قمر البيت مخلفاً عتمة،

بؤس، حزن، وهموم؛ انقضت أيام عزاء ثلاثة، انفض جمع أحباب وأقارب وجيران وبقي أربعة مكلومون ينظرون في أعين بعضهم بعضا، وأعينهم تخفي كثير وتبدي قليل ذهب أبوه إلى غير رجعة تاركاً له أربعة خيارات أحلاهم مر، إما مواصلة الدراسة، أو ترك المدرسة وإدارة محل أبيه، أو ترك المدرسة وتصفية المحل والعمل في وظيفة براتب شهري، أو تصفية المحل وولوج باب التجارة الواسع؛ مضت عدة أيام وليال لم يغادر فيها البيت، نهاراً يجتر في صمت ذكريات لا تورثه إلا كآبة وزهد في الحياة، وليلاً يسهره ويسهده تفكير عميق في أم وأخوات، وفي إرث ورثه عن أبيه، أي سبيل يسلك، وماذا يخفي له المستقبل، سعادة أم شقاء؟ ستر أم بهدلة؟ نجاح أم فشل؟ يطلع الأمل من شديد الألم، والأمل يحتاج للعمل، لذلك زين له قدره المكتوب أن يختار آخر الخيارات، خيار السوق، سوق الله أكبر قدح النبي، إنه خياره الأمثل، ما كان وقتها التجار كثيرون، ولا المحال مفتوحة في كل شارع وكل منعطف؛ دخل السوق الكبير، جذبته تجارة الفاكهة، منظرها جميل، رائحتها زكية، وزنها خفيف يمكن تحريكها ونقلها بسهولة ويسر. من مكان لآخر، لا تحتاج إلى رأس مال ابتدائي كبير، ولا لمحل ثابت، ما عليه إلا أن يحمل فاكهته في كيس أو كرتون كبير، ويفرشها في أي مكان من أرض السوق، و له أقارب ومعارف كثر يعملون في هذا المجال منذ زمن بعيد، والحكمة التي أخذها من فم أبيه: (ألا يبدأ من الصفر وإنما من حيث انتهى الآخرون)، وهم لن يبخلوا عليه بنصح وإرشاد، وكما يسندون ظهره الآن وعوده طري، يسند ظهورهم فيما بعد وعوده قد اشتد.

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة خمسة عشر- فولط، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتيه وكوشيه تقاتل راجلة وبأيديها حراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادقها، مدافعها، وقنابلها، جيوش مهدية بسيوفها، وحرابها، وعصيها، وحجارتها.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها؛ تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(٣)
حيـــاة مدرسية

يرى نفسه، قبل واحد وأربعين سنة واقف في سرة السوق الكبير مرتديا عراقياً قصيرا وسروالاً طويلاً، على رأسه طاقية حمراء، منتعلاً مركوباً أحمرا، لباس الشغل، وذلك بعد أن ودع ارتداء رداءه الكاكي وقميصه الأبيض نصف الكم إلى الأبد، افترش الأرض بشوال خيش مبتل بماء عليه أكوام فاكهة، برتقال، قريب فروت، مانجو، نادى بنداءات بائع مبتدئ:

(البضاعة جابوها بالطيارة وباعوها بالخسارة).

وعندما يشيح أحد المارة بوجهه عنه ينادي في حسرة:

(تمشي البيت وبعدين تقول يا ليت).

(شيل واحدة والثانية بي بلاش).

(شيل نصه والباقي بي بلاش).

انكب على فاكهته، كأم رؤوم تحن على وليدها، مسح برقة على خدودها بخرقة مبتلة، أزال عنها تراب، غبار، وأوساخ علقت بها، أعاد لها نضارها، أما هو فمن يعيد له نضاره، أتي إلى السوق في الصباح الباكر بعد أن نزل من على ظهر حافلة (سفنجة)، مقاعدها نصف فارغة لأن الركاب قليلون، نزل من عليها معززا مكرما، ملابسه نظيفة، هيئته عال العال، عندما حانت ساعة الإفطار كان كل شيء فيه قد تغير، تراب، غبار، شمس حارقة، وزحمة خلق في عز الظهيرة، جعلته يتصبب عرقاً، ويتبهدل منظرا.

ساحات وباحات السوق كلها مملكته الخاصة، تحت تصرفه، كل أسبوع يختار على هواه ما يحلو له منها، يستكشف موقعاً، يقدر إمكانات التقاط وجذب وإغراء زبائن، حصل سوء تفاهم بينه وبين

منافس من كهول السوق حول أحد تلك المواقع، اتهمه بخطف زبونته، قامت بينهما معركة حامية وطيس، تطايرت شتائم في الهواء:
(حاجة السرة دي زبونتي لاطشها مالك؟)
(ما لطشتها جات براها).
(جاتك براها يعني جاها عمى طفاش، عمى يعميك، إنت طفشتها، خليتها تعمل طناش).
(يا زول، إنت راجل كبير، خاف الله، كلامك ده ما كلام).
(وكمان كذاب؟)
(أنا ما كذاب).
(كذاب وحرامي زبائن كمان يا ود....)
(الله يسامحك).

تجمع من حولهما عاطلون، مجاذيب، (بحاته) ينكتون الأرض بحثاً عن نقود مطمورة في التراب؛ فض المعركة شرطي ودود، تغاضى عن جرهم إلى القسم، جنبهما سؤال منكر ونكير وكتابة إقرارات، اكتفى بزجرهما وتنبيههما بعدم تكرار مثل هذه أفعال مكدرة لصفو عام، ذهبت السكرة وجاءت الفكرة، اكتشف أن أكثر من نصف بضاعته قد اختفى، السوق مليان حرامية وأولاد حرام، يتحينون مثل هذه الفرص، ليخربوا بيوت الناس؛ انتشر خبره، عم أقاربه ومعارفه الذين يكدون ويكدحون معه في السوق، ضحكوا عليه كما لم يضحكوا من قبل، دخل في حالة نفسية مزعجة، وساوس تقلقه، تهمس له بأن عيون أهل السوق ترمقه بازدراء، ألسنتهم تتدلى شامتةً عليه، نَجَده أقاربه في السوق، نصحوه:

(يا أبو حميد إنت يا دووب في بداية الطريق، لسه ما شفته حاجة، السوق بحره غريق، مدرستكم فيها ناظر ومدرسين، مدرسة السوق حاجة ثانية، فيها غجر، حرامية، عساكر، ومحاكم، هناك نظام، هنا ما في نظام، تماسيح كبيرة تبلع (صير)، سمك صغير، ما عندها قشة مرة، كبر مخك شوية، أفهمها وهي طائرة، هنا لا قلم، لا ورقة، ولا مخمخة، إما جوة وإما برة، إما صابت وإما خابت).

المصائب أحياناً لا تأتيه فرادى، في اليوم التالي وجواله على كتفه وهو يحث الخطى في واحد من أزقة السوق، رأى ثلةً من الناس متجمهرين حول شخصين ينكتان في كوم تراب بوتدي خشب، انضم إلى الجوقة، رأى مبلغا من المال موضوعا طرف الكوم، رأى أحدهما ممسكاً بيده اليسرى بخيط رأسه معقود في شكل حلقة، وبيده اليمنى وتد يدخله في الحلقة ويحركه في الكوم كتمويه ليخفي مكانها، والآخر ماسكاً بوتد آخر، يختار نقطة في الكوم ويغرزه فيها، الماسِك بالخيط يقوم بجره، كرر هذه العملية ثلاث مرات، في المرتين الأولى والثانية كان الوتد داخل الحلقة، تصاعد تصفيق وتهليل، سمع عبارة: (كسبان، أيوه، والله كسبان)، في كل مرة يأخذ الكاسب المبلغ القديم ويضع ماسك الخيط مبلغاً جديدا، في المرة الثالثة كان الوتد خارج الحلقة، تصاعد التصفيق، سمع عبارة: (خسران، أيوه، والله خسران)، انعكست الآية لم يأخذ الخاسر شيئا؛ أجرى عمليات حسابية بسرعة فائقة داخل مخه، كانت نتيجتها أنه بدأ يتردد بين المشاركة وعدم المشاركة في اللعب، داخله يمور بإحساس خفي أن في الأمر ما يثير الريبة، ولما لمس المتفرجون منه ذلك شجعوه بأن المكسب مضمون، في النهاية تغلبت عليه شياطينهم وشيطانه، وضع مبلغاً، وضع ماسك الخيط مبلغاً مساوياً له، أمسك بالوتد، كسب ثلاث مرات، ثم بدأ يخسر ويخسر، وعندما فطن لنفسه، كانت كل القروش (الفكه) التي في جيبه قد ذهبت إلى جيوبهم إلى غير رجعة، جرجر

رجليه في استحياء وشواله أخف حملاً عن ذي قبل، لأن أولاد الحرام خرموه وسرقوا بعضا مما فيه، خسارته خسارتان، فلوسه ضاعت، فواكهه راحت، حكى لمعارفه بالسوق تفاصيل ما حدث، فرفروا من الضحك وفي لهجة لا تخلو من استهجان واستنكار قالوا له:

(ديل ناس (مَليص) يا مغفل، دي مسرجية يصيدون بيها أغبياء بلهاء حمقى مثلك، الماسك الخيط، والماسك الوتد، والفراجة كلهم مجرمين، عصابة، شلة واحدة).

قال في سره:

(لعنة الله على القمار، وعلى مليص، وأهل مليص، إن شفتهم ثاني، هم بي سكة وأنا بي سكة تانية).

عشش غبنٌ داخله لفترة طويلة، ما أضاعته مليص ما زال متقداً في داخله، في إحدى المرات وهو يحمل شواله كالعادة متنقلاً من مكان لآخر، سمع أهل السوق يتصايحون (ياهو.. ياهو..، الحراميييي)، والحرامي جاري، وجاري، والناس من ورائه كلاب صيد محنكة، أمعن نظره في الحرامي الهارب، عرفه على طول، (ده ما صاحبي بتاع (مليص) ماسك الخيط ذات نفسه)، جرى معهم، أمسكوا بالحرامي، كان عليه يوما أسودا وأغبرا، كف من هنا وكف من هناك، شلووت من هنا، وشلووت من هناك، وهو لا يقصِر، عنده ثأر بايت، أخذ حقه وزيادة، الحرامي بين حي وميت جروه على القسم، دخله العسكر جُوَه، سمعوا صوت العلقة: (بُتْ.. بُتْ.. بُتْ.. بُووت...)، سمعوا صوت الجِرْسَة: (تُبْته.. تُبْته.. والله تُبْته.. التُوبة يا حبوبه)، بردت نيرانه بعد أن أخذ بثأره من غريمه مرتين، الأولى على يده والثانية على يد العسكر.

لم ينس أبداً ذلك الحدث، تبعته آثاره لفترة طويلة، راه أحد أصحاب الدكاكين العامرة وهو يفترش البسيطة ببضاعته البسيطة، رق لحاله، لأن الرقة كانت سائدة وسط خلق الله في تلك الأيام، نادى عليه وخاطبه بنبرة حنونة:

(تعال يا ولدي، الرزق بيد الله، بدلاً من أن تقعد طول النهار تحت الشمس، والشمس ما ليها دواء، والسحائي حائم، تعال أفرش داخل برندة دكاني دي لا قرش ولا تعريفة).

رد عليه بنبرة لا تخلو من تقدير واحترام قائلاً:

(أنا يا عمي ما زول ضل، الراحة والفشل متباريات).

بالتجربة، صواب وخطأ، توصل إلى قانونين تجاريين خاصين به، الأول تتصاعد أفضلية موقع فرش الفاكهة كلما كان الموقع أكثر قرباً من زنك لحمة أو خضار، ولذلك حاول بكل ما يستطيع من زحزحة أن يكون دائماً قريباً جداً من هذا الهدف المنشود؛ الثاني تزداد أفضلية المكان كلما ابتعد عن مبنى البريد (البوسطة)، ذلك المبنى المسور من الخارج بكتب، مجلات، أوراق قديمة عتيقة، كتب دينية، كتب مدرسية، كتب صفراء وحمراء، كتب مشروعة وممنوعة، كتب كاملة وكتب ناقصة وممزقة، مصلايات، سبح لالوب، وألواح خشبية لشفع الخلاوي، كلها مفروشة على الأرض؛ غرب المبنى يتراص حلاقون يحلقون للزبائن في الهواء الطلق، زبونهم يمسك بمرآة وهم يطقطقون بمقاصهم؛ شرق المبنى ميدان النافورة، بنافورة عجيبة تضخ الماء لأعلى وتذره في العيون، تسوره من جهتين ترابيز تبيع فاكهة؛ في مثل هذا المكان الهائص لن يستطيع التقاط مشتر واحد، لذلك كان يقول في نفسه: (البوسطة شجرة ناشفة، عمري العامر ما شفت شجرة ناشفة عندها ثمر، حتى لو كانت نخلة، إلا إذا كانت مسكونة، وساكنها شيطان، والشيطان أعور)؛ عندما يعضَه جوع ويُنَقِص عليه حياته يتناول وجبتي الإفطار والغداء في مطعم العمال

الذي يقع في زقاق ضيق شمال البوسطة، أسعاره زهيده، وكميات الطعام التي يقدمها من خبز، وفول، وكسرة، وعصيدة كبيرة، لدرجة أثارت تساؤلات زبائنه الذين لا يقدرون عنه فكاكاً: (هل يحقق هذا المطعم ربحاً ولو ضئيلاً لصاحبه ذو الكرش الكبير، الذي يداوم على الجلوس على كرسي خيزران، وأمامه طبلية خشبية على سطحها ماركات حديدية، وبها درج يحفظ فيه القروش التي يدفعها الزبائن، أم المسألة فيها إنَّ، فيها سر المهنة، والسوق مليان أسرار).

جَمَعَهُ هذا المطعم صدفة مع بائعين جائلين آخرين، (ود جبر)، لونه أسمر، في سمرته زرقة، طوله متوسط، كثير الضحك، معشره حلو، (ود بشارة)، لونه داكن، طوله فارع، أكبرهم سناً، وأوسعهم حنكة وخبرة، (ود الفكي)، لونه فاتح، أقرب للطول منه للقصر، باله ضيق، عكازته وسكينه أنجع السبل عنده لحل مشاكل سوق مخزن شرور وأس مصائب، (النائر)، سريع الضحك وكذلك سريع الغضب، يمشي على عجل، ليس لديه وقت لكلام فاضي بدون ثمرة، (ود فنقوق)، لونه أسود، قصير، جسمه ممتلئ، يغيب كثيراً كهدهد سيدنا سليمان، ومع كل غياب يأتيهم بأخبار ما أنزل الله بها من سلطان، يحكي لهم عن سوق اسمه سوق عربي، سوق حاجة ثانية، محلاته كيف، كيف، ناسه كيف، كيف، ناسه ما بهمهم القرش، تقول السعر وعلى طول تقبض، ما في نقِصْ لي ولا أرْخِي لي، وفي سوق ثاني يديك عجب عجاب، اسمه سوق إفرنجي، ما في سوق مثله، محلات، تجار، وزبائن يدوا العجب، سوق خواجات، ناسه يخموا القرش خم؛ استهوتهم صور علقت على حيطان مطعمهم المفضل، صور مطربين: حسن عطية، عبد العزيز داود، إبراهيم عوض، ولاعبي كرة قدم: صديق منزول، جكسا، ماجد، وأبطال أفلام كاوبوي: جون واين، برت لانكستر، جاك بالانص، وأبطال أفلام هندية: ديليب كومار، دارا سنج، وحيدة رحمان، وملاكمان محمد علي كلاي ولستون؛ شلتهم

متينة متماسكة متعاونة، يجمعهم صباح ولا يفرق بينهم إلا ليل، بعد يوم شاق، مليء بعك، وجري، ومدافعة ومدافرة يخزنون بضاعتهم أمانات مقابل أجر زهيد في محل عمهم (حاج الزين)، رجل طيب يرضى بقليل ولا يطلب كثير، يحفظها لهم حتى الصباح، يدخلون عصراً (دار الرياضة) بيت مال الخليفة، ومساءً سينما (الوطنية)، ومن السينما يتسابقون على محلات جورج مشرقي ليظفروا بباسطة حلوة، بسمن بلدي وسكر، مع حليب بارد. نمت مع الأيام علاقة قوية خاصة بينه وبين عمه الزين، له علاقات متينة واسعة في السوق، يعطف عليه أكثر مما يعطف على الآخرين، يكلفه أحيانا أداء بعض أعماله الخاصة، يفضي إليه من دونهم ببعض أسراره، ومن أقواله التي أسر له بها وعلقت بذهنه:

(الراكوبة، كان شعابها قوية مدفونة جوه الأرض، الهواء ما برميها، القروش تمشي. عليك مشي. أبو القدح، وتجري منك جري الغزال، يا ولدي إنت الظاهر عليك ود ناس ما شبه البهدلة، أسعى بيديك وكرعيك عشان تعمل ليك محل ثابت، محل مِلِكْ، حكاية الباعة الجائلين دي مسخرة ولعب عيال، يوم في الشرق، ويوم في الغرب، يوم في فتاشه ويوم في أمْ طرقاً عُراض، خلي حكاية اللف والدوران في الفاضي، اشتغل على المليان).

ذكره هذا الكلام المرحوم أبيه وقصته مع الدكاكين! قضى عمره كله في دكان إيجار، كانت الإيجارات وقتها قليلة، زياداتها السنوية تافهة، لذلك لم يسع أبداً لامتلاك دكان، وبعد أن تغيرت الدنيا، وزادت الإيجارات، جرى جري الوحوش، وغير رزقه ما يحوش، لم يفتح عليه الله أبداً لأن يمتلك دكاناً، عاش مستأجراً ومات مستأجرا، ما ترك لورثته شيئاً سوى بصلاً، وبيتاً بنخلة، إرث ورثه من أبيه آدم.

مرت أيامه رتيبة، إيقاعها بطيء، ما فيها جديد، تصبح شمس السوق فاترة، وفي عينيها بقية من نعاس، أشعتها تخبو قليلاً وهي تتسلل بين ذرات غبار متطاير أمام بوابات دكاكين بفعل تنظيف باعة لمحلاتهم وبضاعتهم وهم يهيئون محالهم لتبدو في منظر باهي، منظر جاذب للمشترين، المشترون ذواقون، أنوفهم شمامة وعيونهم لماحة؛ وسط هذا الكون الماتع يأخذ بضاعته من محل عمه حاج الزين، يختار مكان قريب من زنك لحمة وخضار، يفترش الأرض بشوال خيش مبتل، يلمع بخرقة مبلولة حبات فاكهته، يقوم برصها في أكوام فوق الشوال، يتفنن في النداء عليها، كل مرة يأتي بنداء جديد: (البرتقال أبو ريحة يا هو ده والموز أبو نقطة يا هو داك).

ولما الزبون يعمل طناش ويتخطاه ينادي عليه:

(أوعه تروح عليك، وين ثاني تلقاها، فاتت عليك).

الجو حار، وقفته طويلة ومتواصلة، زهق، ملل، وفتر، مرات ينادي، ومرات يغني، ومرات يغفو وينوم ويصحو وهو واقف، نوم الديك في الحبل؛ لم ينس أبداً كلام تلك المصرية العجوز، الممتلئة لحماً وشحماً كشجرة تبلدي، درجت على عرض بضاعتها من حلي واكسسوارات على طبلية خشبية صغيرة بالقرب منه:

(ما تِفَتِحْ شوية يا عم، عليك الحسرة يا نور عيني يا تاج رأسي، اليوم كله أنت تعيط (وين تلقاها.. وين تلقاها)، هو أنتم حاجاتكم كلها ضائعة ولا إيه، الجماعة الفكهنجية بتوع بلدنا ينادوا يقولون:

يا أحمر يا تفـــــاح يا جِفْنُه عَلَم الغزل

يا خدُه علم الخجل يا سفاح يا تفـــاح).

كل شيء في السوق ثابت لا يتغير، التجار هم التجار، الزبائن هم الزبائن، الدكاكين هي الدكاكين، بصمات الليل والنهار ظاهرة، مظاهر بِلى وقِدَم بادية في كل شيء، لا تخطئها عين أبداً، حتى قواعد لعب السوق ثابتة لا تتغير، لا تحتاج إلى شطارة، تجارة تجزئة الفاكهة

والخضر- لها قواعد ذهبية، لا تغيب حتى على الشُفَع اليُفَع الذين يعملون مع آبائهم آخر النهار بعد فراغهم من المدرسة، من الصباح لحدي الظهر البيع بالمَرْبَح، ومن الظهر لحدي العصر- البيع برأس المال، ومن العصر ولي قدام البيع بالخسارة.

لفت انتباهه من دون خلق الله الذين يحومون في السوق مخلوق واحد، راه لأكثر من مرة، يمشي- يخطر على مهل بوجه ضاحِك وبلسان متدل، لا يدخل كل الدكاكين، يدخل دكاكيناً بعينها، وديع كحمامة آمنة تطير في أجواء السوق تلقط الحب من على الأرض، يتبادل عبارات مقتضبة مع أصحاب الدكاكين، تتخللها ضحكات غامضة مبهمة، سأل عنه، قالوا: إنه (صلاح البركة)، ما دخل محلاً إلا ودخلت معه البركة، كل التجار يتمنون أن يجود عليهم بنظرة، خصوصاً أولئك التجار الذين يؤمنون بجلابات الرزق، من كتابة، وأحجبة، وعروق، قالوا:

(إذا دخل صلاح البركة محلك عن طيب خاطر في أول النهار، نهارك أسعد من سعيد، تخفق فوق محلك أجنحة السعادة، ينْزِل عليك مطر الحياة، يتَفَتح لك نوار الرزق).

صباحات السوق كلها عنده باكرة، في واحد من هذه الصباحات وهدوء وسكون يخيمان على المكان، وأشباح وظلال لقلة من أصحاب الدكاكين تتحرك في بطء هنا وهناك، هديل حمام وهو يلقط الحب يسكب في القلوب طمأنينة ويعلمها أن الرازق والمنعم هو الله؛ في ذلك اليوم أسر له حاج الزين بأن أحد أصدقائه الحاج اللمين ود العطا صاحب طبلية حذاء الجزارة يريد تركها في يد أمينة لحين عودته من البلد، قال إن غيابه قد يطول وقد يقصر.وقد لا يعود مرةً أخرى، المقادير بيد الله؛ امتلأت نفسه غبطةً وسرورا، قفز في الهواء، حرك ذراعيه كجناحي عصفور عثر على ماء بعد تعب وعناء، وبحركة لا إرادية أمسك بيد حاج الزين، أمسك بها مثلما كان يمسك بكف

شيخه، شيخ الخلوة، شيخ الخضر، قبلها بكل تجلة، تقدير، واحترام، ولسانه يلهج بأجمل عبارات شكر وثناء؛ من فرط فرحه في ذلك اليوم ما مر شحاذ إلا وأعطاه مقسومة، ما اشترى مشتر إلا وأعطاه أكثر من حقه، ما تلقى تحية إلا ورد عليها بأحسن منها؛ في نفس اليوم جلس ثلاثتهم أمام دكان حاج الزين، وفي زمن وجيز تم الاتفاق على كل شيء، الطرف الأول (حاج اللمين)، الطرف الثاني (هو)، على الطرف الثاني دفع رسوم الطبلية الشهرية للبلدية خلال فترة غياب الطرف الأول، على الطرف الثاني دفع خلو رجل للطرف الأول في حالة تعذر عودته، يستلم الطرف الثاني من الطرف الأول الطبلية في نفس اليوم، الشاهد الأول على الاتفاق حاج الزين، الشاهد الثاني النائر، والله فوق كل شهيد.

لم ينم ليلته تلك، كيف يأتيه نوم وحلم حياته في سبيله لأن يتحقق، مشواره بدأ بأول خطوة، وستتلوها خطوات بإذن الله إن كان في عمره بقية، إيجار طبلية، ثم امتلاكها، ثم إيجار دكان، ثم امتلاكه وذاك يوم المُنا والهَنا، عندما يجيء ذلك اليوم، يا سوق زغرد، يا بلد زغردي، أحمد راجل، راجل عنده دكان، دكان مِلِك، تردد في داخله نغم حنون:

(يا سلام، يا سلام يا ناس، يا سلام عليك يا أبو حميد، حاجتين في الدنيا دي ربنا لو يحققهم ليك، سعدية بنت ود البولاد الساكنة جوة قلبك من زمان، والدكان الملك، كفاية عليك إنه أبوك مات وفي قلبه حسرة وندامة على الدكان الملك، يدفع ويدفع في الإيجار لمن وسدوه التراب).

الفرح والغبطة والسرور حين تبلغ في النفس مبلغاً عظيما تغير في الإنسان نسق حياة معتاد، بالفعل في يومه التالي، صحا من نومه مبكراً، صلى فريضة الفجر حاضرا، حي أمه بتحية الصباح، سألها عن حال أختيه، طلب منها دعوات صالحات، نظر نظرةً مفعمة بحب

غامض نحو النخلة وتوكل على الله، اعتلي ظهر الحافلة السفنجة، صبح على وجوه أشخاص متسمرين على المقاعد، ألفهم وألفوه، العُشْرة الطويلة تجلب المحبة والود، (ود الزبير) خضرجي، (ود أبو سكين) صبي جزارة، (علي) جرسون مطعم، (بشرى) مزين حلاق، (رنقو) بائع مسامير خردة؛ دخل السوق، صبح على حاج الزين، راه في هالة نور تتنزل منه بركات، أخرج فاكهته لآخر مرة، طاولته الجديدة بها مخزن، له قفل ومفتاح، مطلية ببهية خضراء، عروس والصلاة على النبي؛ ولأول مرة بدلاً من أن يفترش الأرض رص فاكهته من موز أبو نقطة، برتقال، وجوافة فوق طبليته الجديدة؛ بائعو الخضر والفاكهة من أصحاب الطبليات، ومن الذين يفترشون الأرض من حوله بادلوه التحية بأحسن منها، دعوا له بتوفيق ونجاح؛ مع ارتفاع شمس النهار تبدأ أعداد ناس السوق في التزايد، ثم يبدأ المكان في عزف سيمفونيته الخاصة، نداءات جائلين بائعي ليمون، نعناع، شطة خضراء، وبسلة: (النعناع أوعه تنساه، الليمون أحسن من البرتقال يا ناس يا برتقال، فايت وين مروح وين، تعالي يا حاجة: تعال يا حاج)، نداءات قصابين: (اللحمة الطازه، اللحمة البيضاء، توب الكرب الساده جنني زياده)، نداءات صبية يجولون بأكياس الورق:(كيس، كيس، الورق ده، الورد ده، كيس، كيس..)، مزيج غريب من أصوات، أصوات حركة أناس، تسابق صبية وعياطهم، طقطقة خيول عربات كارو، أبواق سيارات، وأصوات مجهولة المصدر.

بعد أن تناول مع شلته طعام الإفطار في مطعمهم المعهود صحبوه إلى طبليته، مازحوه قائلين:

(يا أبو حميد أشحد لينا الله يدينا زي ما أدّاك).

رد عليهم ضاحكاً وهو يهز وسط وكتفين:

(وين، وين تلقوه زي دّه، أحمد شحد الله والله أدّه).

لأول مرة في يوم صيفي غائظ راه واقفاً أمام طبليته، صلاح البركة، ما شاء الله صلاح ذات نفسه بشحمه ولحمه يقف أمامه، وسوس في نفسه: (البركة الليلة زارتنا، الخير جانا)، ملأ عينيه من النظر فيه، تمعن فيه ملياً، بشرته سمراء فاتحة، يشوبها بياض، كبرتقالة مصرية ملفوفة في ورقة شفافة بيضاء، أنفه قصير أفطس، عيناه ضيقتان ومائلتان لأعلى، أذناه صغيرتان، لسانه حجمه كبير، شفتاه غليظتان، يداه قصيرتان وممتلئتان وأصابعه قصيرة، وجهه مستدير ومسطح، رأسه صغير، شعره ناعم، فمه مفتوح بلسان متدلي يسيل منه لعاب (ريالة)، قامته قصيرة، وزنه زائداً عن المألوف، ظهره منحن قليلاً؛ بعينين جاحظتين نظر في الفاكهة، لم يمد يده نحوها، ولم ينبس ببنت شفة، جرجر رجليه على مهل ومشى. في طريقه بين أكوام خضر. وفاكهة مفروشة على الأرض، وزع ابتسامات حلوة معهودة على كل الناس، وهم بدورهم بادلوه بأحلى منها؛ بحركة غير إرادية حيرته أيما حيرة، ما زال تفسيره لها غامض، جرى نحوه، لحق به، ربت برفق على كتفه، دس له برتقالةً في كفه، أمسك بها المبروك بقوة، مشى- في طريقه بدون أن يلتفت نحوه؛ في يومه ذاك، وقبل أن تزول الشمس عن كبد السماء معروضه من الفاكهة نفد كله، جلب كميات إضافية والإقبال لم يفتر ولم ينقص، تضاعفت أرباحه آخر اليوم، امتلأ درج طرابيزته بأوراق نقدية طيرت عقله من رأسه.

مضت أيامه في السوق بخيرها وشرها، في أغلبها من أحلى ما يكون، عرفته بائعات شاي وقهوة يجلسن أمام مواقدهن في أركان منزوية من السوق، ومن حولهن مقاعد خشبية (بنابر)، بائعات كسرة، بائعات عصيدة بملاح روب تقليه ومرس، بائعات مقاشيش، مفاريك، قفاف، وبروش، وبائعات حمام، ودجاج، وبيض؛ عرفه بائعو قهوة وشاي يلفون بصوانيهم وكفاتيرهم على ناس السوق، عرفه صاغة يبيعون مشغولات فضة وذهب، وأصحاب محلات من (النقادة) الذين

يبيعـون أقمشـة وملابـس، وأصـحاب محـلات تبيـع مستحضرات تجميل؛ وبائعو مراكيب وجزم، عرفه جزارون مشهورون، (أبو كيس)، (الجبار)، (الكلس)، (متوكل الباك)، الطويل (ود أم زمين)، وجـزارو عفشه وطايوق؛ عرفه أهل عمارة أبو مرين، وأهل سوق الدباغة، وأهل سوق العناقريب الذين لا يفترون من ترديد عبارة: (يا حليل العناقريب والناس البكسروا العناقريب)، عرفه حائكون ترزيه؛ وأصحاب محلات مشغولات شعبية من خشب أبنوس، وعاج، وفراء أسد، ونمر، وتمساح، وأصلة، وأهل سوق خرز وعقيق؛ عرفه حلاقون مزينون خبراء ختان ذكور، (عطية)، (الأطرش)، (خالي الذهن)، عرفه بائعو تسالي، ترمس، حمص، قصب سكر، وعونكوليب، عرفه عجلاتيه، فتوات، حرامية نشالين، ونصابين، وبوليس سواري يجوب أرجاء السوق على ظهور خيول بعد أن يجن الليل وتنقطع السابلة ويخلد أولاد الناس للنوم، وتتحرك أشباح أولاد الليل الذين لا يتركون باراً، ولا خمارة، ولا ماخورا، ولا بيوت مومسات، إلا وكان لهم فيها نصيب؛ يعني بالواضح وبصريح العبارة يعرفه كل أهل السوق.

ما غاب عنه حبيبه صلاح المبروك أبداً، كان يأتيه من وقت لآخر، طلعة المبروك كانت له بمثابة فأل حسن، عندما يطل بوجهه يتحسن حال جيبه، وعندما يغيب عنه تسوء حالته، ولذلك كان في شوق دائم لرؤية طلعته البهية؛ صلته بحاج الزين لم تنقطع أبداً، وكيف لها أن تنقطع، وهو يعلم أن نكران الجميل نوع من قلة أصل، وهو والحمد لله أصله طيب، ويعمل بمبدأ وما جزاء الإحسان إلا الإحسان، كان يزوره من وقت لآخر، يسأله عن صحته، وأحواله، وعن أخبار ود اللمين، ويعطيه الإيجار وإيصالات رسوم البلدية.

بعد مرور سنة بتمام وكمال أخبره حاج الزين بأن ود اللمين أصبح عمدة البلد، خَلَفَ عمه العمدة رحمة الله عليه، لذلك طلق السوق طلقةً بائنة ولن يعود إليه مرة أخرى، وما عليه إلا أن يدفع خلو الرجل المتفق عليه، والطبلية وما حملت حلال عليه؛ وهل في تلك اللحظة لكلمة فرح معنى يصف فرحته، فرحته أكبر من فرحة غريق موشك على الهلاك أمسك بلوح خشبي، كل كلمات لغات الدنيا لا تستطيع وصف حالة غامرة من سعادة، حبور، وسرور تملكته في تلك اللحظة؛ الفرح لا يُوَلِد إلا فرحاً، الفرح شعور لا يحب كبتاً في النفوس، يحب انـدياحاً، نصيب أفراد شلته في ذلك اليوم الاستثنائي غداءً معتبرا، ونصيب أمه وأختيه كيساً مملوءً بما لذّ وطاب من فاكهة وباسطة.

نمت الشهور، صارت سنينا، الزمن جرى، العمر في نقص، الحياة زحمة، السوق نار مولعة، كل ذلك لم يمنعه من إرسال رسائل حب وشوق عبر البريد إلى عميه ود البولاد والباهولي، فهما له شمس وقمر، يهتدي بضوء الأول نهاراً وبنور الثاني ليلاً، كل ما اتقنه من فنون إنشاء وتعبير، دبج بهما من وقت لآخر خطابات شكر وثناء وعرفان بجميل نحوهما، يسأل عمه ود البولاد عن نفيسة، وسعيدة، وسعدية، والحسين وإخوانه وباقي الأهل، ويسأل عمه الباهولي عن أولاده وأمهم، حينما يستلم رداً من أحدهما يفض ظرف الرسالة وهو غير مصدق، يقرأ ما فيها في نهم لذيذ. مع الأيام فتح الله عليه أبواب رزق حلال، تدفق الخير، تحسن الحال، القرش يجري في يديه بلا انقطاع، توسعت علاقاته داخل السوق وخارجه.

تتعاقب الفصول، ينكمش سوق الشتاء كما ينكمش الحديد، يندس الباعة والمشترون في ملابس ثقيلة، يستدفئون بأشعة الشمس عندما تخرج من بين الضباب مستندين بظهورهم على حيط، كثير من الناس لا يحبون الحركة ويفضلون النوم، ما ألذّ النوم في ساعات الشتاء، ليله طويل، ما أطوله، ونهاره قصير، ما أقصره، يتبول الناس

كثيراً ويعرقون قليلا، يتغطون ببطائن ويسرحون مع أحلام وردية، مع انكماش حركة الناس يحصل ركود فتنكمش المداخيل؛ ما كان دخله في الشتاء يتأثر كثيراً، حالات رشح، زكام، وأنفلونزا تنتاب الناس، الحمد لله الأطباء والعارفون يقولون لهم عليكم بالفواكه فيها فيتامين سي وبي مركب.

يتمدد سوق الصيف كما يتمدد الحديد، يخفف الباعة والمشترون من ملابسهم، يلبسون ملابساً قطنيةً تلائم حراً حارقة، نهاره طويل وليله قصير، يعرقون كثيراً ويتبولون قليلا، الناس فيه أكثر نشاطاً وحيوية، يأتي أهل الجزيرة في نهاية مارس وبداية أبريل وجيوبهم متخمة بأرباح قطن ذهب أبيض، ينفقون بلا حساب، ومع تزايد حركة الناس يزدهر السوق وتزدهر المداخيل.

يهطل المطر مدراراً في الخريف، تمتلئ شوارع السوق بالمياه حتى تفيض بالجنبات، يدخل الماء الفائض داخل الدكاكين الوطيئة، تكون الخسائر كبيرة إذا ما حدث ذلك ليلاً والناس يغطون في نوم عميق؛ تتفتق عقول الناس عن حلول مدهشة، يضعون حجارة وطوباً معابرا يعبرون فوقها مياةً أسنت بفعل تراكم الأمطار، طين، أوساخ، بعر حمير وخيول، وعينك ما تشوف، وأذنك ما تسمع، إذا ما مرت بالقرب منك سيارة، عربة كارو، أو عجلة، أو شفع طائشين يطرطشون الماء وهم يلعبون، ثيابك وعليها العوض، يتحول لونها إلى لون رمادي مقرف، لو وضعت عليها ما في خمسة أكياس صابون غسيل بودرة (فونا) لن يزيل ما لصق بها من بقع وردية وما علق بها من عطور؛ يصحبه ركود وكساد تجاري، تذهب رؤوس الأموال إلى الزراعة، وكثير من أهل السوق تجذبهم خضرة الحقول، منهم من يستثمر فيها ومنهم من يعمل فيها، تكون حالة السوق وسط، أفضل منها في شتاء، وأسوأ منها في صيف؛ الخريف فصل خير وبركة، تفرح وتنشرح فيه النفوس؛ خلاص والحمد والشكر لله تحسنت أموره،

تغيرت أحواله، ولم يبق له إلا إكمال نصف دينه، وهل يكتمل ذلك بغير ملكة حسنه، وجماله، وأخلاقه، سعيدة، استجمع كل ما فيه من حب دافق لها، وكل ما فيه من تقدير واحترام لأبيها، ولأمها، وكل ما فيه من أخوة وصداقة لإخوتها، توكل على الله وكتب إلى عمه ود البولاد طالباً يد سعيدة زوجا له على سنة الله ورسوله.

السوق عالم كبير، ليس محصوراً في تجار بقدرة قادر يفكون الخط، فيه محامون، موظفون متقاعدون، معلمون وأطباء سابقون، حملة شهادات جامعية وثانوية، فيه ممثلون مسرحيون ومثقفون، فيه مادحو النبي، شعراء، ومطربون؛ كانوا يزينونه، يعطونه نكهةً خاصة قل أن يجدها في باقي الأسواق، فيه جامع كبير، يأتيه كبار العلماء، علي أدهم، الطاهر سليمان، عبد الحميد محمد، محمد حامد، العسيلاتي، يدرسون الناس في حلقات منتظمة الحديث، الفقه، التفسير، السيرة النبوية، وفقه المعاملات، لا هو ولا أي واحد من أفراد شلته كان مهتماً بأمور عامة، يكفيهم ما هم فيه من هم غم ونكد، ولكن أهل السوق لا يتركونهم في حالهم، غصباً عنهم يسمعوا منهم غثاً وثمينا، غصباً عنهم يحشرونهم في ما لا رغبة لهم فيه؛ كورة.. بعد كل مباراة هلال مريخ، دكاكين ترفع رايات حمر، ودكاكين ترفع رايات زرق، مناكفة، مشاغبة، مهاترة في كل زقاق، في كل لفة، وفي كل برندة؛ سياسة.. ابتلاء، حلاقيم كبيرة تهدر كالأباعر: (الجماعة ديل قفلوا بارات، خمارات، وبيوت دعارة)، (الدين الإسلامي يأمر بي كده)، (الممارسات السرية تزيد ودي أكثر خطورة)، (الفلاشا جابوهم)، (الفلاشا رحلوهم)، (محمود محمد طه أعدموه)، (مرتد)، (ما مرتد)، (دفنوا نفايات مشعة وجابوا سرطانات للبلد)، (ما جابوها)، (البترول)، (شركة شيفرون)، (البلد تعوم فوق بحيرة من نفط)، (نفطنا في العالي ونفط الخليج في الواطي)، (سكرت شيفرون الآبار بالإسمنت، وبالضبة والمفتاح، وقالت باي باي أنا مع الذي يدفع

أكثر)، (البلد تعوم فوق بحيرة ماء)، (على المدى الطويل سعر قزازة بيبسي. مملوءة ماء أغلى من سعر برميل مليان نفط)، (جابوا السلام للبلد وقفوا حرب الجنوب)، (ما وقفوها ولعت ثاني أكتر من أول)، (حاربوا عطشاً، بطالة، وطائفية، البلد بقت عندها عزة، كرامة، وسيادة).

ثم قامت مظاهرات، قامت كيف ما في حد عارف، تبهدل السوق، سبعة أيام ما شافوا قرش أحمر، النتيجة مشت حكومة قديمة وجاءت حكومة جديدة، والساقية لسه مدورة؛ الشلة لا يهمها من ذهب ولا من أتي، تهمها سترة، أمن وأمان، ماء، كهرباء، صحة، تعليم، شغل، عدالة اجتماعية والسلام عليكم؛ دارت نقاشات بينهم من وقت لآخر، هاجمه النائر بلهجة حادةً قائلاً:

(يا بتاع لجان تطوير الريف، يا بتاع كتائب مايو، يا بتاع مجالس حكم شعبي، يا بتاع اتحاد اشتراكي، خليك في حالك وخلينا في حالنا).

رد في نبرة لا تخلو من غبطة قائلاً:

(لجان تطوير وكتائب مايو مالها ما فجرت طاقات شبابية، ونظفت البلد وريحت الناس من كوش وعفن، شيدت مدارس، مراكز صحية، وطرق، لا رواتب، لا عربيات، ولا امتيازات، كله بعون ذاتي جماهيري، والمجالس والاتحاد الاشتراكي مالهم؟ ما وحدوا قوى الشعب العاملة، وعمروا البلد، سُلطَات سياسية، سُلطات فاعلة حاكمة، مش سُلطات منظرة ساكت وديكور).

رد بلهجة مستهزئة قائلاً:

(الدنيا ما بدوم زي الزيق في الهدوم).

رد في لهجة لا تخلو من برم قائلاً:

(المشتهي الحنيطير يطير).

مشهدهما وهما يتجادلان أثار ضحك باقي الشلة، ولسان حالهم يقول:

(الباب البجيب الريح سده وأستريح، الرائحات وعرفناهن، الله يكفينا شر الجايات).

الأيام المباركات ربما تكون قليلة، ولكن في إحداها زاره المبروك صلاح بعد غيبة طويلة، وكعادتهما تبادلا نظرات أبلغ من الكلام، أين كنت يا المبروك؟ ماذا غيبك عنّا؟ رد بلجلجة، وتأتأة وفأفأة، قائلا: (مرد، مرد) - يعني مرض- (كل كنت وثاني مرد مرد) - يعني بين كل وقت وآخر ينتابه المرض- أعطاه برتقالة واحدة، أخذها وذهب في حال سبيله؛ مرت أيام قليلة وإذ بالبلدية تدعو لجنة السوق إلى اجتماع، انتشرت إشاعات بأن السوق يحتاج إلى تنظيم، وأنه يعج بباعة جائلين وبطبالي، مما أدى إلى تشويه منظره ونظافته، والحل المطروح تحويل بعض أصحاب الطبالي إلى (الملجة)، سوق الخضر والفاكهة الجديد الذي يبعد عنه بحوالي أربعة كيلومترات، وبذلك يتحقق هدفان، تفريغ السوق الذي أصبح مكتظاً أكثر من اللازم، إعمار السوق المقفر هناك؛ لم تمض سوى أيام معدودة إلا وإعلانات ملصقة على أعمدة كهرباء، حيطان مساجد، وأبواب دكاكين، فحواها:(على أصحاب الطبالي الراغبين في الانتقال إلى (الملجة) أخذ الطلبات المخصصة لذلك من مبنى البلدية، وتعبئتها بالبيانات المطلوبة مع دفع الرسوم)؛ جلس مع أفراد شلته، تشاوروا، فكروا بعمق وروية، منهم من قال:

(سوقنا هنا حي والسوق هناك جديد ميت، أحسن لينا هنا).

(نترك زبائنا هنا وثاني نعمل لينا زبائن من أول وجديد، دي قصة طويلة).

(دي لعبة من ألاعيب ناس البلدية، دايرين يطفشونا من هنا).

بنبرة لا تخلو من صراحة خاطبهم قائلاً:

(بالسنة دي أنا عندي اتناشر سنة، ما عملت الدقعه، ما عملت حاجة غير طبلية، نمشي نشوف حظنا قدام، دي فرصة، يمكن نقدر نسوي لينا دكاكين هناك زي الرجال).

غلب رأيه على آراء الآخرين، كلهم ملؤا طلبات في اليوم التالي، ثم نسوا الأمر برمته، شغلتهم مشاغل الحياة التي تشيب الرؤوس، وليس بفائت عليهم أن الإجراءات الديوانية بطيئة وربما تأخذ شهور.

القلب أحياناً يرى قبل العين، طغى عليه إحساس بهيج بأن أيامه القادمة حبلى بخير وفير، ولكي يهيئ نفسه لاستقبال هذه الأيام ذهب إلى الحلاق (الأطرش) في محله الأنيق المزين بالصور، والذي لا يرتاده إلا وجهاء ومثقفون، وبينما مقص مكنة ومشط تجز من رأسه شعراً غزيراً منفراً، تذكر أيامه الصعبة التي ولت، التي كان يذهب فيها إلى زبونه الحلاق (إدريسو) تحت نيمة قبالة البوسطة، يجلس على كرسي (مُكَرْكِب) ومرآة صغيرة في يده يغير زاويتها بين فينة واخرى ليتابع بدقة ما يجري؛ كلمة (نعيماً) من أحب الكلمات لأفراد شلته، يرددونها مع كل حلاقة جديدة لأي واحد منهم، ويظلون يرددونها كلما جلسوا لتناول وجبة من وجباتهم المهببة، في هذه الأثناء وهم يمطرونه ب نعيماً استلم أعز خطاب في حياته، من طرف عمه ود البولاد، قرأه لأكثر من سبعين مرة، هلل، كبر، ونطط، ومن بعد خاطبهم قائلاً:

(أسمعوا يا شباب هوي، الكلام دخل الحوش، قولوا مبروك، أسمعوا كلام عمي ود البولاد).

ثم بدأ يقرأ بصوت عالي:

(بعد السلام عليكم يا ولد يا عفريت، من زمان أقول الولد ده يلف ويدور في خطاباته الكثيرة دي على شنو، لازم في رأسه في حاجة ما قادر يخش فيها دغري، أتاريك عينك على سعيدة، المهم الأهل قعدوا، وقالوا خير، ولدنا وعارفنه تب، شاورنا صاحبة الشأن، سكتت

والسكوت علامة الرضا، نقول مبروك، ألف مبروك، إنت ولدي وسعيدة بنتي، الله يوفقك، ويوفقنا، ويوفق جميع أمة محمد، يا الله شد حيلك تعال بسراع خلينا نفرح... والسلام على من اتبع الهدى).

هلَلوا، كبَروا، عيطوا في سعادة غامرة:

(مبروك، مبروك يا عريس الهنا، تملاها بالمال، وتملاك بالجنا).

عيط ود فنقوق بنبرة ضاحكة قائلاً:

(الأداك بالكوريك يا أبو حميد يدينا بالملعقة).

رد في نبرة لا تخلو من غبطة وانتشاء قائلاً:

(وين، وين تلقوه زي ده، أحمد شحد الله والله أدّه).

وزع بلحاً وحلوى على ناس السوق، شتت حباً وعيش ذرة لحمام السوق، عمّ خبره دكاكيناً، أكشاكاً، ومظلات، انتشر خبره، وصل إلى أسماع زبائن السوق الذين يترددون عليه كثيراً، تقاطر مهنئون ومهنئات، بكى في داخله، أحب الناس وأحبوه، أحب الناس إليه أباه وجده وجدته غيبهم الموت، لن تكتمل له فرحة أبداً في غيابهما، زف الخبر السعيد إلى أمه وأختيه، انطلقت زغاريد عفوية، تجمع الجيران، تحول البيت إلى عرس قبل الأوان، قدموا حلوى بلح ومشاريب لمن أتى بدافع حب استطلاع من الجيران، صعدت دعوات أمه الصابرة المؤمنة إلى السماء:

(الله يوفقك ويسعدك يا أحمد يا ولدي، عافية منك، ظاهراً وباطناً، ويجعل زواجك ميمون، زواج خير وبركة).

احتفل مع شلته في اليوم التالي بتناول وجبة غداء فاخرة بمطعمهم المفضل، رافقوه آخر النهار إلى المنزل، قدموا هداياهم وأزجوا تهانيهم وتبريكاتهم لأمه وأختيه، بعد وداعهم لزوارهم جلس أربعتهم مبتهجين، قالت أمه في نبرة فرحة:

(أها الحمد لله أمورك مشت على خير، لازم تجهز نفسك، الزواج مش لعب).

قالت نجوى بنبرة حلوة باسمة:
(الـزواج ده يـا أمي معـه سـفر، اعملـوا حسـابكم، لأنـه عروسـتنا في بلد ثانية).
قالت نجاة بنبرة هادئة رزينة:
(نبـدأ واحـدة، واحـدة، أول حاجـة نرسـل هـدايا ومصـاريف للعـروس وأمها وأخواتها، وبعدين نشوف نعمل شنو).

ذهبوا إلى فرشهم ونفوسهم في غاية الانشراح، مضى وقت طويل لم يتذوقوا فيه طعم الفرح، حياتهم شاءوا أم أبوا مضت كما تمضي حياة البشر متقلبةً بين حزن وسرور.

بلغ مسامع أفراد الشلة خبر مرض حاج الزين، يرقد طريح سرير المستشفى، ذهبوا إليه هناك، كفروا له مرضه، تمنوا له شفاءً عاجلاً، دوام صحة وعافية، وعودة حميدة إلى السوق، لأن السوق بدونه ظلام، بصوت ضعيف خافت همس له قائلا:
(شوف يا أحمد وصيتي ليك أبقى عليها عشرة).
بادله همسا بهمس قائلاً:
(يا عمي وصيتك دي أنا قائم بيها، وقاعد بيها، ونائم بيها كمان).

بعد ثلاثة أيام نعى الناعي حبيبهم وولي نعمتهم بعد الله حاج الزين، انطفأت شمعة كانت تنير لهم الطريق كلما أطبقت عليهم ظلمات الحياة، ذهبوا إلى بيته في طرف البلد، ستروا جنازته، ترحموا عليه، قالوا فيما بينهم:
(هذا هو حال الدنيا أولها تعب ورهق، وآخرها كوم تراب، والعاقل من يتعظ بغيره).

انطوت صفحة من حياتهم كتبها حاج الزين بحنان أبوي، وبخوفه عليهم من أن تجرفهم تيارات الحياة، وتدخلهم في متاهات لا أول لها ولا آخر.

أطلق عليه أفراد الشلة لقبا جديدا (عريسنا)، حافظ هذا اللقب على جدته، وبريقه، ولم يختف مع الوقت كما اختفت (نعيماً)، وهم في فرحهم سادرون، وإذ بسلطات البلدية تعلق أسماء مستحقي طبالي الملجة، واحد وخمسين اسماً، وكان اسمه وأسماء كل أفراد شلته ضمن المستحقين، لم يسعهم السوق من فرط الفرح، لم تسعهم الدنيا كلها، التحول كان فوق تصورهم وفوق خيالهم، من بائعين جائلين على باب الله، إلى أصحاب طبالي يشار إليهم بالبنان، قفزة عدوها من رابع المستحيلات.

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى (ثاني رجعت لسريحانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة عشرون فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(٤)

ســــوق جديـــــــــد

يرى، العام ألف وتسعمائة خمسة وثمانين ميلادي كان عاماً مميزاً، جلس كملك متوج فوق عرش محله التجاري رقم ستة بالجهة الشرقية للملجّة، الملجّة التي يُجْلَب إليها خضار الريفين الشمالي والجنوبي، وموز كسلا، والدمازين، وسنجة، وبرتقال الشمالية، وجبل مرة، ومنقه وجوافة أبو جبيهة، أطل من مكانه على شارع ترابي تبدو من جهته المقابلة حوانيت بهارات، بقوليات، تمور، ومطاعم شعبية تبيع فولاً، طعمية، بيض، وسمك؛ محله الجديد عبارة عن دَرَجْ من ألواح خشبية مرصوص عليه فاكهة مختلفة الأصناف، بذات النمط امتدت على يمينه حتى الركن الشرقي الجنوبي خمس طبالي، وامتدت على يساره خمس وأربعون طبلية حتى الركن الشرقي الشمالي، كل الطبالي متلاصقة مع بعضها البعض تحت ظل سقف زنك واحد يمتد بطول مائة ثلاثة وخمسون مترا، الالتصاق فيما بينها شبيه بالالتصاق ما بين أصحابها، إخاء، حب، ود، وتآلف؛ أصحابها يجلسون كملوك فوق كراسي عروشهم، عرش ود الفكي يحمل الرقم أربعة، عرش ود فنقوق يحمل الرقم اثني عشر، عرش ود جبر يحمل الرقم خمسة عشر، عرش ود بشارة يحمل الرقم ثمانية عشر، عرش النائر يحمل الرقم عشرين؛ شرد مع خواطره التي دائماً ما كانت تقلقه وتكدر عليه صفو حياته، إن كان الوقت نهاراً تجعله ليلاً، وإن ليلاً تجعله نهاراً، نفسه تواقة، طموحة، لا تحدها حدود، مصادمة، لا تهاب مخاطراً، إن وضع هدفاً نصب عينيه لا يعوقه عائق في سبيل تحقيقه، نعم! الطبلية، عرش ملكه، مسجلة باسمه لدى السلطات، ولكن هذه ليست نهاية المطاف، وإنما خطوة في سبيل تحقيق هدف

حياته الأبعد، امتلاك دكان كما يمتلك الآخرون دكاكينا، لا يزيدون عليه رجالة، ولا فهم، وجوههم ليست أكبر من وجهه، كلها شبر لا أكثر ولا أقل، إنهم مثله يأكلون الطعام ويتغوطون، ما ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب، وما كل العظماء ولدوا عظماء، ثم استدرك في سره:

(وراء كل عظيم امرأة، آه يا سعيدتي، السعادة سوف تطرق بابي يوم أن تكوني معي، صباحي يشرق بنورك، حجارة بيتي تبسم لابتسامك).

العلاقة الرابطة بين أفراد شلة السوق القديم تماتنت أكثر من ذي قبل في سوقهم الجديد، بعد أن كانوا يتناولون وجباتهم في مطعم العمال بالسوق القديم يتناولونها حاليا داخل المحل رقم ستة (محل حاج أحمد)، مع تقدم العمر وتحسن الحال تحول اسمه بقدرة قادر إلى حاج أحمد، عندما يسمع أحدا يناديه (يا حاج) يتذكر واحدة من حكم جده آدم:(يا ولدي أحمد الدنيا هي التي تسمينا، وليس آباؤنا أو أمهاتنا، أُناس يولدون وهم مبصرون، ولسبب ما تذهب أبصارهم، بدلاً من أحمد، أو علي، أو أي اسم آخر، يسميهم الناس اسماً جديداً (الأعمى)، جاء الأعمى، ذهب الأعمى)؛ أفراد الشلة مردوا على افتراش أرض محله، يتجمعون حول آنية الإفطار، يدعون وينادون بكرم فياض على زبائن ومارة؛ في واحدة من تلكم الوجبات، بعد أن فرغوا من تناول فطورهم الجماعي المكون من فول مصري مصلح بسلطة، جبن، زيت سمسم نقي، وشمار زكي الرائحة، قعدوا يتحادثون وفي أيديهم أكواب شاي أحمر مضبوط سكر ونعناع؛ وكالعادة لعلع صوت ود فنقوق بعد أن يتجشأ كما بقرة شبعانة قائلاً:

(سوقكم الجديد ده ميت، شبعان موت، ميتة جدي أبو سنده، بدل ما تودونا السوق العربي أو الإفرنجي محل الخم واللم، تجيبونا سوق، والعياذ بالله، قرشه يطلع من جيب الزبون بطلوع الروح).

شفط ود الفكي شفطه طويلة من كوبه ورد في نبرة رزينة هادئة قائلاً:
(يا أخي شيل الصبر معاك، الأمور بالهداوة، سوقنا ده ماشي لي عمار).
رد ود فنقوق بلهجة ساخرة متسائلا:
(بعد كم سنة؟)
ابتسامة خفيفة ظللت وجه ود جبر الذي رد قائلاً:
(يا أبو مخ زفر، بيت حقك من قش، أفضل من بيت إيجار ولو من طابقين).
رد في لهجة أكثر سخرية:
(طيب يا أبو مخ كبير، اللمة البيوت مع الدكاكين شنو؟).
رد في نبرة ضاحكة قائلاً:
(يا أبو مخ تعبان العبرة ما في بيت ودكان، العبرة في ملك وإيجار).

ضحكوا حتى بدت أسنانهم، بيضاء وصفراء، ما فيها مكسور أو متروم، أو ساقط، كانوا إما شباباً أو فوق الشباب بقليل.

رد النائر في نبرة لا تخلو من يأس قائلاً:
(حلم الجوعان عيش).
تنحنح ورد في لهجة حاسمة قائلاً:

(اسمعوا يا جماعة الخير، كلامكم كله سمح، لكِنّي داير أرد على ود فنقوق أبو لسانا طويل ده، شوف السوق ده لا شبه سوق قديم، ولا عربي، ولا إفرنجي، إنت لا بتاع جرائد ولا رادي، يعني ما مثقف، سِمِعْتَ بحاجة اسمها أمريكا اللاتينية، هناك الناس فقراء مثلنا، وأكثر مننا، حالهم بالبلاء، لكنهم مأكلين، وشاربين، ومهيصين، آخر كورة، وآخر سامبا، ما يهمهم بكرة، ولا بعد بكرة، خلاص يا أخوانا من اليوم نسمي سوقنا ده سوق لاتيني، ونشوف موجته ماشه على وين).

هب النائر واقفاً، وبلهجة متجهمة صارمة خاطبهم وهو يخطو خطواته الأولى مبتعدا عنهم قائلا:

(يا أخوانا كفاية لَتْ وعَجْن، قوموا شوفوا أكل عيشكم، خلاص الكلام كِمِل، سوق لاتيني ما لاتيني ما فارقه معانا، التبلبل يعوم).

لحق به ود بشارة وكلماته تخرج في نبرة عجولة قائلاً:

(الكلام الكثير ما منه فائدة، نمشي نلقط لينا حتة قرشين ثلاثة).

غاب عن حياته حبيبه المبروك صلاح، تركه في السوق القديم، ولكن عوضه الله بحبيبين جديدين، صابر وصبري، أخوان غير توأمين، معممان يرتديان دائماً جبباً متشابهة في نوع ولون، يحمل كل منهما عصا طويلة يستعين بها في مشيه في الطريق، إنهما كفيفان، أصيبا في صغرهما (بغلوكوما) مياه زرقاء، ظلا حبيسا ظلامها إلى اليوم، كل واحد منهما يقود الآخر، أعمى يقود أعمى، يسكنان في زريبة الحطب التي تتوسط السوق، يأتيان إلى معارفهما بالملجة يسألان عن أحوال أهلهما بالبلد، كلما يراهما يتذكر وادي العميان، ويتذكر كيف كان موظفو الدولة يقودون العميان أيام الخلافة الصالحة، ويندب حاله مع جُباة المحلية إذا ما فقد بصره لأي سبب من الأسباب، تقرب منهما بشتى السبل، وبعد أن تعرف عليهما دعاهما إلى محله، لما يأتيانه، يهش ويبش لهما، يفسح ويبسط لهما المجلس، يطيب خاطرهما، يبث ثقة وأملاً في نفسيهما، يدخل الفرح في قلبيهما، يرسم البهجة في وجهيهما، ينصت بإمعان إلى طُرفهما وقصصهما، يضحك لضحكهما؛ كانا فاقدان للبصر.ولكنهما لم يكونا أبداً فاقدان للبصيرة، عوضهما الله بذاكرتين قويتين، وبحاستي سمع تتميزان بدقة عالية في التعرف على الأصوات، تضاهيان حواس سمع أهل بوقاتا، أَلِفَهُما وأَلِفاه، كلما يجيئان إلى الملجة يجيئان إلى محله، يجلسان معه، يؤنسانه بأحاديث حلوة ظريفة، يكرمهما بشربات، شاي، وفاكهة، يودعهما في نبرة رقيقة ودودة:

(لا تطيلا غيابكم عنا يا أهل البركات، يا أحباب الله، دعتكم الله).

مرت أيامه في سوقه الجديد حبلى بكل ما هو خير وبركة، نِعَمُ الله تنزلت عليه غيثا زرعا وثمرا، وكانت المفاجأة المدوية، عرسه في قرية ود البولاد مع ظهور هلال الشهر الجديد، القرية التي لم يتشرف بزيارتها منذ أن فارق مدرستها الأولية، عشرون سنة انقضت، ولم ير مهوى فؤاده بعينيه، ولكنها كانت متحوصلة داخل قلبه، لم ينس عمه الباهولي، أرسل إليه رقعة الدعوة مع أنه يعلم أنه أصبح كهلاً لا قدرة له على سفر؛ في الموعد المضروب تحركت حافلة (نيسان) صباحاً وعلى متنها العريس، أمه، أختاه، أقرباؤه، جيرانه، وأفراد شلته، وأصدقاؤه؛ اختلفت رحلته هذي عن رحلات مكوكية سابقة كان يقوم بها عندما كان تلميذاً بمدرستها الأولية، رحلاته تلك كانت مليئة برهق نصب وتعب، أما هذه فإنها نسيج وحدها، مترعة ببهجة وسرور، تتخللها زغاريد، دقات دلوكة، وغناء عذارى، كل ذلك وأكثر يتصاعد إلى عنان سحاب وغمام، عندما يقفون في قهوة من قهاوي الطريق لأخذ قسطاً من الراحة يحولونها إلى صالة عرس؛ بدت لهم القرية من بعيد، عروس تتغطى بثوب (قرمصيص) منمق بأوراق وأزهار أشجار سيال، كتر، ولعوت، سماؤها زرقاء صافية، هواؤها منعش؛ دخلوها دخول فاتحين، السائق يزمر ببوق حافلته: (تِيت.. تِييت.. تُوت.. تُووُت.. تُوُوُوت)، دلاليك تدق: (دَقْ.. دَقْ.. تَدَقْ.. تَدَنْدَق.. تتنْدنق)، وحناجر تعيط: (أرَرُورك.. أرَرَرُوروووك.. رُوُوك)، لم يشغله كل الذي كان يدور من حوله عن إمعان النظر في محاسن ديار محبوبته التي شهدت بواكير صباه، ملامحها لم تتغير، بيوتها نفس البيوت، شوارعها نفس الشوارع، كأنه لم يغب عنها إلا يوماً أو بعض يوم، قابلتهم جوقة العروس (السيرة) على مبعدة من البيت الذي يعرفه معرفةً تامة، التقت الجوقتان (السيرتان)، تواجهتا، التحمتا، ذابتا في بعضهما البعض، توحد شدو غناء وصخب، أطرب كل مخلوقات الله الحية في القرية، عمت أفراح وليالي ملاح القرية من

أدناها إلى اقصاها، إنسها، جنها، دوابها، وطيورها؛ عانق في حرارة عمه ود البولاد، عناق ابن لأبيه، عناق صديق لصديقه، عانق الحسين، الحسن، الخير، والفاتح، عانقهم طويلاً، شوقهم لبعضهم بعضاً لا يدانيه شوق، ما تختزنه الأيام بينهم عميق وجميل، عانق باقي أهله في محبة، عانق كل الناس الذين عرفهم من قبل والذين لم يعرفهم؛ قابل خالته نفيسة، سبحان الله، ما زالت محتفظة بجمالها، الأيام لم تنل منها كما نالت من القرية، قابل سعدية، ما شاء الله، وهل يُولَد الجمال إلا من رَحِم جمال، عروس في انتظار عريسها، وقابل...، التي إن نطق باسمها اصطكت أسنانه، وتلجلج لسانه، طار عقله، نظر كل منهما في عيني الآخر، حملت النظرات بعضاً من ماضي، بعضاً من حاضر، وكل المستقبل الذي ينتظرهما في رحم الغيب؛ تمت في نفس اليوم مراسيم عقد زواجه، استلم وثيقته، قبلها ثم دسها في جيبه، قضوا ثلاثة أيام بلياليها في فرح، سرور، حبور، غناء، وطرب متصل؛ ثالثها كان يوم خميس، ذهب إلى السوق وكفاه وقدماه مخضبتان بحناء، سوق ود البولاد، بعبق يميزه عن كل الأسواق، لم يتغير فيه شيء جدير يذكر، الدكاكين ذات الدكاكين، لم تزد إلا بضعة أكشاك، يد الزمن ضربت بقوة على كل شيء، منظره كئيب، محلاته ليست ذاخرة ببضاعة كعهدها السابق، كساد ضرب بقوة على المحلات وعلى وجوه الناس، تغير الناس، نعم، الوجوه أغلبها جديد، الوجوه القديمة إما شبعت موت، أو شاخت، أو تغيرت ملامحها لدرجة أنه لم يستطع تمييزها ومعرفتها، الزمن خربش بعبثية على كل شيء، الناس يتحركون في خمول وكسل، بدون همة، هناك سبب، هناك سر، في النهاية علل نفسه بأن الكساد لم يضرب هنا فقط وإنما ضرب الدنيا كلها؛ للمرة الثانية قابل زميل دراسته، تلميذ سابقاً، أستاذ حالياً، (بلولة)، قابله في المرة الأولى إبان مراسم عقد زواجه، سمع منه كلمات طيبات وأمنيات بزواج سعيد، قدم له الدعوة لزيارة المدرسة،

قبلها على الفور بدون تردد، لم يكن بإمكانهما في لقائهما السابق إعادة شريط ذكريات حلوة، إنه في أشد الشوق لرؤية تراب ذلك الفردوس المفقود الذي مشى عليه وهو تلميذ صغير لا حول له ولا قوة؛ ترافقا إليها، البوابة هي ذات البوابة، نفس قوائم أعواد الشجر، وعمود العارضة كأنما هو نفس العمود الذي حركه عمه ود البولاد في ذلك اليوم الجميل الذي طواه الزمن، الفصول ذات الفصول، العنابر ذات العنابر، جلسا على كرسيين تحت ظل شجرة نيم ضخمة تركها شتلةً صغيرة.

سأله في نبرة مترعة بحب دفين قائلاً:

(كيف حال عمنا جامع؟)

رد بنبرة رقيقة هادئة قائلاً:

(بخير وعافية، أولاده كبروا، أحواله تغيرت لأفضل، ما زال يسقي المدرسة، طبعا بهمة ونشاط أقل، الزمن دَوّار).

(كيف حال خالتنا سعادة؟)

(توفيت، عليها رحمة الله).

تمتما بقراءة سورة الفاتحة على روحها.

(وأخبار ناظرنا المحترم آدم، وأساتذتنا، الفاضل، وأبو جديري، ومساعد، وبقية عقدهم الفريد، ربنا يطراهم بالخير؟)

(الناظر رحمة الله عليه، وباقي الأساتذة تركوا الخدمة، نزلوا المعاش، ولزموا بيوتهم).

- (وكيف حال مدرستنا الحبيبة؟)

(أمورها ماشه بعافية، أحيانا المدرسون يقضون ثلاثة أشهر بدون مرتبات، يستدينون من التجار، والتجار جزاهم الله ألف خير يصبرون عليهم، إذا كان هذا هو حال مدرسيها فكيف يكون حالها؟)

تأوه، خاطبه في نبرة لا تخلو من حزن ومرارة قائلاً:

(سبحان الله يا أستاذ بلولة، بلاد الدنيا كلها تمشي إلى الأمام، تهب فيها رياح التغيير، تمضي. فيها عجلة التطور، التغيير فيها محسوس وملموس، ونحن سنوات طويلة تِعَدِي، عشرون سنة بالتمام والكمال، والحال هو الحال، بل أسوأ مما كان).

تأوه ورد في نبرة لا تخلو من يأس قائلاً:

(لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، العزاء الوحيد أن نفوسنا عامرة بصبر وإيمان، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا).

تبادلا عبارات ثناء ووداع، افترقا على أمل لقاء آخر قريب يجمع بينهما، وفي داخله تغرد طيور الجنة بلحن على نسق نشيد خالد (في ود بولادٍ التقيت ب بلولة أنْعِم به من فاضل صديقي).

انقلب بيت العرس إلى مناحة، ساعة الوداع كانت قاسية، لا زغاريد، لا غناء، ولا دلوكة، صمت جنائزي؛ اعتلوا متن حافلتهم ومعهم عروسهم وأختها، دموع الفراق بللت خديها، ودموع أغزر انحدرت من عيني أمها، لأول مرة تفترقان، لم تفترقا منذ أن كانت سعيدة رغبة، نطفة، علقة، فمضغة مخلقة، إلى أن صارت طفلاً، وشبت عن الطوق وأصبحت قمراً منيرا، تبارك الله أحسن الخالقين، بكاء الأم وجريان دموعها، حتى ولو أغرقت بيوت القرية كلها، لن تطفئ نذراً يسيراً من نيران حرقة ألمها، أما ود البولاد، جمل الشيل، راجل وزيادة، والرجال يكتمون الألم في دواخلهم ولا يبوحون به إلا لزوجاتهم في أمسيات مقمرة؛ ودع الحسين نجوى وداعاً خاصاً، يبدو أن هناك شيء ما بدأ يربط بينهما في الخفاء، وبدأ نفس الشيء يربط بين النائر ونجاة، أما سعدية فإنها مخطوبة منذ أمد بعيد لابن عمها.

قضى. شهراً بحاله لم يغادر فيه بيتهم إلا ما ندر، يتردد بين ظل غرفته وظل النخلة، ترك المحل تحت إدارة صبي يقوم مقامه تحت إشراف ورعاية أفراد شلته، وفد إليه المهنئون من سوقه القديم، ومن سوقه الجديد، ومن السوق المركزي، جاءه الكفيفان، تمنى أن لو كان

البركة صلاح برفقتهما؛ سعيدة وسعدية ملأتا البيت سعادة، هناءً، وسرورا، غرفته الخاصة، جونة عطار، قنديل من قناديل طيور الجنة، لم ير أمه وأختيه أبدا على هذي حال من بهجة وحبور منذ أن رحل أبوه عن الدنيا، وصدى كلماته ترن في أذنيه:
(تزوجوا فَقَارى يغنيكم الله من فضله، الغِنَى غِنى النفس لا غنى المال).

وسوس في نفسه:(الحلو ما بأكمل)، عاد إلى سوقه، عاد وآمال وأحلام عراض تناوشه بين فينة وأخرى، تحسنت أحواله قليلاً، ولكن ليس بالشكل الذي يرضيه، لأنه في نفس الوقت تزايدت نفقاته، لا بد من أن يزيد دخله بالقدر الذي يجعله قادراً على توفير حياة كريمة لكل الذين يحبهم ويحبوه، لجأ إلى علاقاته مع بعض أصدقائه في سوقه القديم، دلوه على كنز، قالوا له جرب حظك في جنوب الوادي، هاجر جنوباً ولا تهاجر شمالاً، التجارة عندهم مزدهرة، باب الرزق مفتوح، أرض الله واسعة، رغماً عن اشتعال أوار الحرب دروب التجارة هناك سالكة، صحيح زادت المخاطر، ولكن بالمقابل زادت الأرباح، اللواري التي تحمل البضائع من شمال إلى جنوب لم تزل تقطع فيافي، وديان، خيران، وغابات، غير عابئة ببنادق ومدافع، وسوس في نفسه كما كان يوسوس دائما عند الملمات:

(في بدء، وفي منتهى، الأعمار بيد الله)؛ فتح غطاء سره لأمه، وزوجه، وأختيه، ويا ليته لم يفعل، تحول البيت إلى سرادق عزاء:

قالت أمه في نبرة مفعمة بإيمان عميق:

(نحن راضين بي قسمة رب العالمين).
قالت نجوى في نبرة حانية:
(تعبان ومغلب حالك في كم؟)
قالت نجاة في نبرة لا تخلو من استنكار:
(في زول منّا اشتكى ليك).
قالت سعيدة في نبرة حاسمة:
(في زول قال ليك قَصَرْت، خُت الرحمن في قلبك، ولا تنس أن زيارة الحسين لينا قربت، وسعدية لازم ترجع لأمها التي تعبت في غيابها تعب شديد).
ضرب بيده على رأسه وقال:
(أفو، ما نسيت زيارة الحسين، ذكرتيني يا المبروكة).
لمعت في ذهنه فكرة ألمعية، لن يحله من ورطة رحلة الجنوب إلا الحسين، لأنه من الذين ذهبوا إلى هناك أكثر من مرة.
طرق سمعه صوت أمه تتحدث للمرة الثانيةً:
(في زول قال ليك أنا جوعان، ولا عريان، ولا عدمان؟).
شعر بأن الموقف يزداد تأزماً، وإن إقناعهم بدون استخدام أساليب ذكية من المُحَال، خاطبهم بنبرة هادئة ودودة راضية قائلاً:
(خلاص الجائية من الله كلها سمحة، كلامكم كله على عيني ورأسي).
بعد مرور أيام شعرت سعيدة بأعراض مرضية طفيفة، آلام في حلمات الثدي مع تورم، وانتفاخ، وشعور دائم بتعب وإرهاق، سكتت في بادئ الأمر ولم تفاتحه بها، بعد فترة بدأت تشعر بآلام شديدة ومتكررة، وتقلصات أسفل البطن، ثم تطورت الحالة إلى غثيان وقي في الصباح، لاحظ ذلك عليها، أخبرته بكل التفاصيل، سأل أمه، نصحته بأخذها إلى الطبيب لأن أعراضها تبشر بخير؛ أخذها في مساء ذلك اليوم إلى أقرب عيادة أمراض نساء وولادة، وقف أمام المنظم المسؤول، دفع الرسوم المقررة، حجزه رقم ثلاثة، حل دوره، دخل

معها، غرفة الطبيب غاصة بأجهزة، كتب، وصناديق أدوية، و يا لها من مفاجأة لا تخطر على بال، الطبيب الذي يجلس خلف طاولة، وسماعة تتدلى من رقبته، وجهه ليس بغريب عليه، نظر كل منهما في وجه الآخر، هتف الطبيب بلهفة قائلاً:

(أحمد أبو حميد).

هتف بلهفة أكثر قائلاً:

(أبو ريدة).

نسيا المسكينة سعيدة.

خاطبه في نبرة أخوية عميقة قائلاً:

(كم سنة يا دكتور، سنوات طويلة انقطعت فيها الأخبار بيننا، لم نلتق فيها أبدا، إنت بي سكة، وأنا بي سكة ثانية، يا دكتور يا حليل أيام الفتوة والشباب، أيام مدرستنا الثانوية).

رد في نبرة لا تخلو من ألفة قديمة لطيفة قائلاً:

(وين يا راجل، أين أنت خلال هذه الفترة الطويلة، كل الزملاء الذين قابلتهم يسألون عن أخبارك، لم ينسوك أبدا، لم ينسوا الظروف الصعبة التي مررت بها، وكانت سببا في قطعك لمشوار تعليمك).

(الحمد لله، ما زلت حيا أرزق، مدفون في سوق الله أكبر).

(والله دنيا، ناس في سوق، ناس في مستشفى، ناس وين، وناس وين، دنيا عجيبة، فراقة حبايب).

(يا دكتور الوقت للعمل، والعيانين حالهم يغني عن سؤالهم، خليك في شغلك أنا خلاص عرفت عيادتك، وإن شاء الله نتواصل، أنا محلي رقم ستة في الملجة).

تمددت سعيدة على طاولة الكشف، كتب لها مجموعة من تحاليل، خرجا وعادا بعد ساعة بنتائج الفحص المعملي، نظر فيها، وبوجه باسم وبنبرة فرحة مستبشرة خاطبهما قائلاً:

(مبروك ألف مبروك، المدام حامل في شهرها الثالث، لازم تعمل حسابها خصوصاً إنه دي الولادة الأولى، في شوية مقويات وفيتامينات لازم تأخذهم، وفي قائمة ببعض التوجيهات الهامة عليها الالتزام بها، وعليها أن تداوم على مراجعة أقرب جهة طبية لمكان سكنها، على الأقل مرة في الشهر).

ودعه بلسان يلهج بشكر وثناء، في لحظة خروجه من الباب ناداه المنظم، أرجع إليه الرسوم التي دفعها، قائلا:

(هذه تعليمات المستر).

لم يتردد في أخذها، ما بينهما أكبر من كل هذا بكثير، شكره وطلب منه إيصال شكره له.

فرحته عظيمة، الدنيا كلها لا تسعها، كل هذه الأحداث السعيدة تزامنت في وقت واحد، قال في سره:

(يا ما أنت كريم يا رب، سعيدة ما بها مرض، حامل، ومن يزف لي الخبر دكتور أبو ريدة زميل دراستي، فرقت بيننا سنون وجمعت بيننا صدفة).

ما أن دخلا البيت ونظرت أمه في وجهيهما، بحركة لا إرادية صدرت عنها زغرودة خافتة، غطت وجهها بسمة لطيفة، وفي نبرة فرحة باسمة خاطبتهما قائلة:

(كلامي ما كلام بشِيلُه هواء، سعيدة حامل، أنا عارفاها حامل، معذورين، لسه بدري عليكم، مبروك لكِ يا بنيتي، ومبروك لكَ يا وليدي).

رد بنبرة رقيقة باسمة قائلاً:

(إن شاء الله تحضري جديدهم يا حاجة).

نجوى ونجاة تمتمتا في نبرة باسمة مغردة:

(آمين، آمين يا رب العالمين).

مضت ثلاثة أشهر وزيادة، في ذلك اليوم عاد آخر النهار إلى بيته، وجد صهره وصديقه الوفي الحسين وقد حلّ ضيفاً عندهم، عزيزا مكرما، تصافحا وتعانقا في حرارة.

سأله بنيرة ذاخرة بحب وشوق:

(كيف تركت القرية وقمرها عمنا ود البولاد؟).

رد بنبرة ودودة:

(الحمد لله، ما عنده عوجه، يمشي سوقه ويعقب على بهائمه، ما عنده هم أبدا، سادي دي بطينة ودي بعجينة، ما شغال بي زول).

(وكيف أحوال الخالة نفيسة؟)

(في أمان الله، إل بالحيل غياب سعدية مسخ عليها الدنيا، فارقها النوم، اسمها على لسانها طول اليوم).

(وكيف أحوال البلد؟)

(زيْنَة، إل ناقصاها حاجات كثيرة).

(وكيف حال أهلها؟)

(ما جائبين للدنيا خبر، همهم كُله متين يجي يوم الخميس، البائع يبيع، والمشتري يشتري، والمتفرج يتفرج).

خرجا في الصباح الباكر، ذهبا إلى محله، لم يصدق أفراد الشلة أن الحسين بشحمه ولحمه بينهم، رحبا به أيما ترحيب، استرجعا ذكريات حلوة مضت، تناولا في صحبتهما إفطاراً دسماً، ذهبا إلى موقف لواري القرية، قابلا مسافرين إليها وعائدين منها، تتبعا الأخبار، وبعد أن اطمأن الحسين على أهل بيتهم، عادا مرةً أخرى للمحل، ومن ثم قفلا عائدين إلى البيت، اجتمع شمل الأسرة، تناولوا غداءهم، وهم يرشفون الشاي الأحمر تحدثوا في كل شيء، البلد، السوق، الحي (الحتة)؛ جرا أرجلهما نحو الديوان، ظلا يتسامران، يسترجعان ذكريات ماضي بهيج، تبادلا آراءً حول المستقبل، هموم، أماني، ومخاوف، وبعد أن غلبهما سلطان النوم راحا في سبات عميق؛ سر في

إحدى الليالي لصديقه بسره الدفين، نيته الذهاب في رحلة تجارية إلى الجنوب، وباعتراض كل الأسرة على الفكرة، خصوصاً أمه وسعيدة، وهو لا يريد الذهاب بدون رضاهم، ويريده التأثير عليهم بحكم معرفته بالجنوب وذهابه إلي هناك أكثر من مرة؛ وعده خيراً، طمأنه بأن الأمر أسهل من السهل ولكنه يحتاج إلى شوية (تكتكه)؛ واحدة بواحدة، في المقابل سر له الحسين بسره الدفين، رغبته في الزواج من نجوى، على الفور وبدون تردد أعطاه موافقته، وطلب منه التريث لحين مشاورة صاحبة الشأن، وأهل الحل والعقد في الأسرة.

وضع خطةً محكمة وبدأ في تنفيذها على الفور، أخذ في استدراج ذكي بتهيئة الأجواء بقص حكايات تجار جلابة ذهبوا إلى الجنوب وعادوا سالمين غانمين في أمن وأمان، أوعز إلى أفراد شلته عندما يأتون إليهم في زياراتهم بأن يتحدثوا عن مآثر ومحاسن الجنوب في حضرتهم، وأن الجنوب والشمال مهما حصل روحان حللا بدنا، وبأنهم هم كذلك عازمون على الذهاب إلى هناك، وأن المسألة كلها رأس مال وترتيبات؛ الحسين لم يُقَصِر، بأسلوبه الهادئ الرزين حكى لهم عن جمال غابات الجنوب، وعن طيبة ومرح وبساطة أهله، وعن فوائد تجارية جمة هناك، مما جعلهم كلهم في شوق عارم لرؤية هذا الجنوب الساحر؛ بعد جهد جهيد تمكن من الحصول على الموافقة، والمباركة الجماعية، ولكن بشرط أن يعود بأسرع ما يكون، مهما كانت إغراءات البقاء، لأن كثيراً من الذين ذهبوا إلى هناك، استهواهم الحال، بقوا هناك ولم يعودوا أبداً.

غمرت السعادة بيتهم بوجود الحسين طوال مدة ثلاثة أسابيع لم يحسوا ببهجتها إلا بعد أن صرح بأوان عودته إلى قرية لا قدرة له على صبر على فراقها؛ منذ ذلك اليوم وحتى حلول أوان الفراق وسعيدة طار قلبها حزناً من صدرها، فارقتها بسمة ضاحكة، انحدرت دموع من عينيها وهي تودع أخوها وأختها طرف موقف لواري القرية، همس حاج أحمد لصديقه وهو يودعه:

(مبروك يا خوي، صاحبة الشأن والأهل قالوا على بركة الله، الله يتم على خير).

تبعتهما نظرات كئيبة وهما يخطران نحو الشاحنة نيسان، سعيدة، أمه، وأختاه غير مصدقات لما يجري من حولهن، لسان حالهن يقول:

(لا يحس الإنسان بمدى سعادة وحلاوة الأيام إلا بعد انقضائها).

جلس الحسين وأخته على المقعدين الأماميين، جرجر المودعون أذيال خيبة وألم والشاحنة في بدايات انطلاقها بالأحبة نحو ديارهم.

عمليته التجارية إلى الجنوب أقطابها ثلاثة شركاء، هو، والنائر، وود مصطفى تاجر بسوقه القديم، لكل منهم حصة متساوية في رأس المال؛ حملوا لوري (زد واي) حمولة ثلاثين طناً، مكتوب على صندوقه من الخلف (نمشي على كف القدر وما ندري بالمكتوب) حملوه ببضاعة رائجة هناك، سكر، دقيق، بصل، ومواد تموينية، من عند مخازن إستاد الهلال، ملأوا صندوق الزوادة بمعلبات، حلاوة طحنيه، مربى، سردين، تونة، فواكه، رغيف، ولحوم؛ (كالو)، مساعد حلة، مساعد الصغير، وافر النشاط، لا تفارق (السفّة) شفته السفلى، (خير الله)، مساعد كبير، قوي، مفتول عضلات، لا يفارق السيجار شفتيه، (كانجس)، سائق، حسن الهندام، هيئته تعطي شعوراً بالأمان؛ ركبا هو والنائر في الكابينة بجانبه، تخلف ود المصطفي ليقوم بأعمال تنسيق ومتابعة، الرحلة من السوق القديم إلى مدينة ربك كانت سهلة ميسرة، قصص وحكايات كانجس لا تنتهي أبداً، في كل بلد، في كل قرية، في كل منعطف، له ذكريات؛ الطريق من (ربك) إلى (الرنك) ثم إلى (القيقر) ممهد نوعاً ما، ومن هناك بدأت رحلتهم الحقيقية، تحركوا مع مجموعة لواري أخرى في (كنفوي)، هم وحظهم، إذا هاجمهم متمردون عليهم وعلى لواريهم وعلى بضاعتهم العوض، وتعيس الحظ يلقى عظمة في الفشفاش؛ مروا بشتيت من

قطاطي نوير محروقة ومهجورة بفعل الحرب الدائرة، ثم ببلاد الشلك من (أبانيم) إلى (ملكال)، قطعوا بصعوبة وببطء ثلاثة خيران عظام، خور (كرو)، خور (آدار)، وخور (لوك)، في الصيف رمال هشة كثيفة لهذه الخيران مشكلة عويصة لإطارات اللواري، بشحنها الثقيلة من الصعب عليها تجاوزها بسهولة، في الخريف مياهٌ متدفقة أم المشاكل لأن الحرب دمرت الجسور؛ منظر الأطفال وهم في سن المدرسة، يقفون على قارعة الطريق ينادون على ما جمعوه من ثمر الشجر (شيل لالوب نبق ياه، شيل لالوب نبق ياه...) أجبرهم على الشراء منهم ليس رغبةً فيما عندهم وإنما رأفةً بهم؛ طوال الرحلة لم يتوقف مسجل السيارة عن الغناء، تسلية كانجس الوحيدة، منبهه الذي يجعله دوماً في حالة انتباه، صندوقه الخشبي الذي يحتفظ فيه بأشرطة المسجل به أكثر من خمسين شريطاً، سمع كل واحد منها أكثر من خمسين مرة، أغنية واحدة أجبرتهم على أن يربطوا بين ما كانوا يسمعون وما كانوا يرون، كلماتها تقول:

سوري لي إنت.. يا خي كفارة لي أنا
جيت أسأل عليكم.. بس مشتاقة ليكم
ماما وبابا قالوا ما ممكن أجيكم

* * * * *

شوفو حلاوة بسمتُه.. مالكم مالو إنتو
شكل منقه ذاتُو..
في سوق باريا شفتُو.

قال في سره:

(هذه الأغنية تغنى بها جنوبيون وشماليون على السواء، طربوا لها، انفعلوا بها، حب، غرام، ووله، جمع بين مشاعر قلوب، طائر الشوق جاب كل الآفاق، خفق بجناحيه لكل الناس، بغض النظر عن أديانهم، وألوانهم، وأجناسهم).

يا الله، كلمات أغنية ذهبية نفضت عن نفسها غبار النسيان، انطلقت من تجاويف عظام جمجمته، عطرت روحه ووجدانه:

أنت سوداني وسوداني أنـــــا
ضمنا الوادي فمن يفصلُنـــا
نحن روحان حللنا بدنـــــــا
منْقُو قل لا عاش من يفصلنا
قل معي لا عاش من يفصلنـا
ها هو النيل الذى أرضعنـــا
وسقى الوادي بكاسات المُنـا
فسعدنا ونعمنا ههُنـــــــــا
وجعلنا الحب عهدا بيننـــا

سبحان الله، تزاحمت في رأسه صور أرشيفية قديمة، مفتش إنجليزي يأمر جنوبياً رآه مرتدياً جلابية شمالية بإحضار علبة كبريت من أقرب مكان وأجبره على حرقها أمامه، الإنجليز أعدموا خياطاً شمالياً لأنه خاط جلابية لأحد الجنوبيين، زعيم قبيلة (التاباثا) حاكى المفتش الإنجليزي ولبس الشورت، ذهب إليه منفوخاً مزهواً، غضب المفتش ولكنه كتم غضبه في داخله، دعا المفتش نفس الزعيم ورجالات قبيلته لزيارته، استقبلهم وجلس معهم عرياناً كما ولدته أمه وهو يكلمهم عن فوائد ومزايا التعري.

قضيا شهراً بحاله في (ملكال)، استمتعا بصيد وأكل مشوي ومقلي سمك، وهما جالسان تحت ظلال أشجار الدليب قرب شاطئ النهر، استمتعا برؤية الناس في سوق (باريا) وهم يمشون منتشين غاية انتشاء، انشراح، وانبساط؛ لأنهم يحبون احتساء مريسة، بقنية، وكجو مورو؛ عمليتهما التجارية بكل مقاييس مالية مجزية رابحة، غطت على كل ما تكبداه من مخاطر ومتاعب، ولكن في قرارة نفسيهما وصلا إلى قناعة راسخة أن مال الجنوب سخن جدا، وليس في كل مرة تسلم الجرة.

رحلة العودة كانت سهلة، عادا جواً بالطائرة، ركبا طائرة (فوكرز) قديمة، حمولتها لا تزيد عن أربعين راكباً، جلسا على مقعدين متجاورين مزهوان بنشوة انتصار، خاطب صديقه بنبرة مزهوة فرحة قائلاً:

(يا خوي الحكاية ضربت).

رد عليه في نبرة لا تخلو من مخاوف قائلاً:

(ضربت ألف في المية، بس أوعك تقول نكررها ثاني، دي وربنا ستر، ما كل بَرْكَة تجيب ولد).

(الرحلة كم ساعة؟).

(سمعت أحد الركاب يقول ساعتين).

(الله يكفينا شرها، الطيارات دي منها خوف).

(شوف الطيارة تخاف منها لمن تقوم ولمن تنزل قبال ما تلمس عجلاتها الأرض، إن مَرَقْتَه من ديل ثاني ما تخاف أبداً).

بعد مرور خمس دقائق على بدء تحرك الطائرة، هتف قائلا:

(أها يا خوي مرقنا من الأولى، الله يمرقنا من الثانية).

شعر النائر بان الفرصة مواتية، من الأفضل له أن يستغلها ولا يتركها تضيع عليه، خاطبه في نبرة خجولة قائلاً:

(شوف يا خوي في كلام أنا ماسْكُه من زمان، الحين جاء وقْتُه، أنا طالب يد أختك نجاة على سنة الله ورسوله).

فكر قليلا ثم رد بنبرة باسمة قائلاً:

(يا خوي أحسن منك وين، كل بنت تتمناك، أنا ما عندي مانع أبداً، الله يوصلنا بالسلامة، ونشوف بيت الشورة).

مرت ساعتان وهما فوق سحاب وغمام، مرت مرور الكرام، بين أكل، شرب، وأنس جميل.

سمعا صوتاً نسائيا رناناً يقول في نبرة رقيقة:

(أعزاءنا المسافرين استعداداً للهبوط المرجو العودة إلى مقاعدكم، ربط الأحزمة، إعادة ظهور وملحقات المقاعد إلى أوضاعها الطبيعية، إبقاء ستائر النوافذ مفتوحة، وشكراً).

وبعد فترة وجيزة سمعا نفس الصوت بنفس نبرته الحلوة:

(أعزاءنا المسافرين مرحباً بكم في مطار الخرطوم، حيث التوقيت المحلي هو الساعة الخامسة والدقيقة عشرين، درجة الحرارة الخارجية أربعين درجة مئوية).

وبعد فترة وجيزة ثانية جاءهما بنبرة أحلى:

(أعزاءنا المسافرين المرجو إبقاء أحزمة مقاعدكم مربوطة حتى تطفأ إشارة ربط أحزمة المقاعد).

ثم عاد نفس الصوت هذه المرة بنبرة ودائعية:

(أعزاءنا المغادرين في هذه المحطة، نرجو التأكد من اصطحاب جميع أمتعتكم الشخصية معكم قبيل مغادرة الطائرة، نتمنى لكم طيب الإقامة، ويسعدنا أن نراكم قريبا على إحدى رحلاتنا، شكراً لكم، والسلام عليكم).

عاد إلى بيته، يحدوه طائر الشوق، الشوق إلى أمه الحبيبة، إلى زوجه التي لا هناءة لحياته بدونها، وإلى ما تركه ينبض بالحياة في رحمها، ثمرة الحب الذي ربط بينهما برباط مقدس، إلى أختيه اللتين

قاسمتاه حلو ومر الأيام، وإلى نخلة البيت الكريمة؛ عودته كانت مفاجئة، لم يصدقوا عودته بهذه السرعة سالماً معافى، احتضنوه احتضنهم في لهفة وشوق، سألوه عن رحلته، عن ناس هناك، عن حرب ومتمردين، رد عليهم، حكى لهم عن كل شيء، عن اللوري وماكينته، السائق ومساعديه، الطريق ووديانه، وغاباته، وأن الناس هناك يحبون الحياة، يربون الأبقار، يزرعون الذرة والبَفْرَة، يشربون المريسة، يأكلون السمك، يستمتعون، ويهيصون، ويغنون، ويرقصون على دقات الطبول؛ أما الحرب حكى لهم عن آثارها، وكيف نجوا من ويلاتها؛ سألهم بدوره عن أحوال الأهل والجيران، ردوا عليه بأنهم في أمن وأمان، كان جو الأسرة العام في تلك اللحظات مملوءٌ مشاعر سعادة وحبور، وجد فرصته سانحة، اغتنمها بدون تردد، زف لهم خبر خطبة النائر، خاطبهم بنبرة مفعمة بفرح غامر قائلاً:

(أها يا أهل الخير أنا عندي ليكم خبر سعيد سعادة ما بعدها سعادة، صاحبي النائر، كلكم عارفنه ما غريب عليكم، طلب يد أختي نجاة، وأنا وافقت على طول، والشورة شورتكم، ويا أمي أخذوا راحتكم وأدوني النتيجة النهائية، والراجل جاهز للعرس).

اختلس نظرةً ماكرةً إلى وجهها، رأى ابتسامةً خجولة ترف عليه، اطمأن إلى أن الأمور تسير وفق هواه.

انسحب هو وزوجه نحو عشهم الهادئ، وضع رأسه على حجرها وهمس لها قائلاً:

(داير أسمع يا سعيدة البابو).

(البابو نائم خليه في حاله).

(والله في واحدين عذبوا أماتهم، ما عندهم غير رفيس وشلاليت).

(أظنك واحداً منهم).

(الحاجة قدامك أسأليها).

(أسألها إنت، ما في سبب واحد يخليني أدخل بين بيضة وقشرتها).

انتظرت مداعباته، لم تسمع له صوتاً، من شدة تعبه ورهقه راح في سبات عميق، وضعت رأسه على الوسادة، انسلت بهدوء حتى لا تزعج نومته الطفولية وانضمت مرةً أخرى لباقي الأسرة.

صبِح على أمه بتحية الصباح، مصمص كوباً من شاي حليب، قبل أن يودع سعيدة وإذ بها تفاجئه في نبرة مشرقة باسمة قائلةً:

(مبروك، نجاة وافقت على طول، قالت: ما دام جاي من ناحيتك ما عندها مانع، وأمك والباقين كلهم قالوا: يا عديلة يا بيضاء).

ابتسم ابتسامة عريضة ورد في نبرة مجنحة قائلا:

(بشرتني بشارة وزنها دهب، الله يبشرك بالخير، نزلتي من ضهري شيل ثقيل، نزلتي مني هم كبير، كان نجاة لجلجت أودي وشي من النائر وين، لكنها طلعت فعلا بنت أمها وأبوها).

صافح أفراد شلته، صافح جيرانه في السوق واحدا تلو الآخر، جلس بالقرب من صبيه الذي قام على أكمل وجه - بشهادة أفراد الشلة - بتصريف شئون المحل في غيابه؛ حكى له الصبي عن كل ما حدث في تلك الفترة، عن كساد وضعف سوق بشكل عام، عن وقوف أفراد الشلة بجانبه، عن حضور الكفيفين أكثر من مرة للمحل وسؤالهما الدائم عنه؛ أحيانا الأمور تتلازم بشكل غريب، تعطي الإحساس بأن الأمر ليس محضا من صدفة، قبل أن يكملا حديثهما وإذ بعصاتي الكفيفين تنقران على مدخل المحل، خرج صوتاهما بتلك النبرة المميزة التي تبعث الأمل والدفء في النفوس وهما يلقيان بالتحية:

(السلام عليكم ورحمة الله).

وقف، احتضن الأول بقوة، ثم احتضن الثاني، نزلت دمعتان من عينيه، ثم رد عليهما بنبرة لا تخلو من حب وشوق:

(وعليكم السلام، أحباب النبي، مرحباً، مرحبا، خطوة عزيزة، شرفتم المحل، تفضلوا، أدخلوا، اعملوا حسابكم، المحل ضيق).

خرج صوت صابر في نبرة مطمئنة عجيبة:

(والله إن ما نخاف الكذب ده صوت حاج أحمد، والله دي ريحة حاج أحمد، يا زول وصلت متين؟ حمداً لله على سلامتك، إن شاء الله طيب، وعيالك طيبين؟)

تبعه صوت صبري في طمأنينة أعجب:

(ياهو صوت حاج أحمد، يا زول حكايتك شنو؟).

(أنا طيب وكلهم طيبين وكيف أحوالكم يا أحباب الرسول).

(الحمد والشكر لله).

(وأخبار أهلكم؟)

(طيبين).

نادى على الصبي:

(جيب البارد والشاي لأعمامك أحباب الرسول الطيبين).

(بارد وحار مرة واحدة، كفاية واحدة فيهم يا حاج أحمد).

(لا، كله لازم يجي، اشربوا ما تشربوه، والباقي خلوه).

(الله يبارك فيك يا حاج أحمد).

(ويبارك فيكم يا أحباب النبي).

جاءت نحنحة النائر التي تسبقه دائماً لتنبه السامعين أنه قد وصل، ألقى عليهم بالتحية، ثم جلس بالقرب من حاج أحمد، الذي مال عليه برأسه وسر له بحديث، أشرق وجهه بابتسامة عريضة، وقف، كأنما قوة هائلة اقتلعته من مكانه، وقف هو كذلك، تعانقا، خاطبه قائلاً:

(خلاص أنا جاهز مويه ونور، حددوا المواعيد، توكلنا على الله، السلام عليكم).

غادر بابتسامته التي تمددت أكثر وأكثر حتى عمت كل السوق، لا يضيع وقته هدراً، للوقت عنده قيمة عالية، قبل أن يذهب الكفيفان

في حال سبيلهما عبأ لهما كيسين، أولهما فاكهةً وثانيهما خبزاً، ثم ودع الصبي وقصد محطة الحافلات، بعد نصف ساعة كان في داخل بيته.

بعد تناوله لطعام الغداء مع زوجه، أمه، وأختيه، جلسوا يشربون الشاي، تحدثوا في ومواعيد زواج الحسين من نجوى، والنائر من نجاة؛ هنا، انطلقت في فضاءات البيت، في رشاقة وخفة بالونات فرح غير مرئية، خاطبهم بنبرة مملوءة بهجة ومسرة قائلاً:

(عندي ليكم رأي يمكن يعجبكم، النائر قال جاهز مويه ونور، خلاص، خلوا الفرحتين يكونا في وقت واحد، عشان نتفادى غلاء، وشح سلع، والحمد لله على أية حال، حالتنا المادية مش بطالة).

ردت أمه بنبرة حاسمة قائلةً:

(أنا خائفة من العين، عين الحسود بالعود، عيون الناس لا ترحم، خلوا بيناتهم شهر).

ردت نجوى بنبرة خجولة قائلةً:

(يا أمي ده ثاني زمن عين، في زول فاضي لي زول).

ردت بلهجة قوية:

(العين هي العين، موجودة من ربنا خلق الدنيا، وستظل موجودة لمن يطويها).

ردت نجاة بنبرة لا تخلو من مجاملة قائلةً:

(يا أمي خلاص هاتي (بَخْرَات) من شيوخك الكثيرين، وبي كِدَه يكون ال علينا سويناه، والله يكفينا شر الحسد والعين).

ردت بلهجة قاسية لا تخلو من حذر:

(أسمعوا يا عيالي هوي، أوعه بعدين ما تقولوا: يا ليت لو سمعنا نصيحة أمنا).

رد بنبرته الهادئة قائلاً:

(يا أمنا، يا ست الحبائب، العين هي العين، إذا وقعت، لا تفرق بين العرسين، إذا عملناهم مع بعض، ولا بيناتهم يوم واحد أو شهر).

ردت بعد أن أخذت نفساً عميقاً بنبرة حزينة قائلةً:

(يا حليلك يا أبو عيالي، الله يبرد نومتك في تربتك، الليلة عاد ما يوم شورتك).

هنا، خافوا أن تنجر أمهم وراء ماضيها أكثر وأكثر فتتحول حالتهم من فرح إلى ترح، ومن صفاء إلى كدر، ولكن الله لطف، استطردت قائلة:

(خلاص، سَوُوهم في يوم واحد، لكني كان رضيتم، أم أبيتم ماشه لشيوخي، ما عندي غيركم، الثلاثة الله يحفظكم ويحفظ ذريتكم، خلاص يا ولدي كلم العريسين، قول ليهم بمشيئة الله بعد شهرين نحن في انتظارهم).

رد بنبرة لا تخلو من ارتياح قائلاً:

(خلاص اتفقنا، ويا والدة ربنا يسترها مع غلاء، تموين، صف رغيف، وعربيات تَبِيت في الطلمبات عشان جالون بنزين).

مع إنه ولد سوق، غاص في بحاره منذ زمن طويل، إلا أن حال سوقه الجديد في هذه الأيام حيره، حاول فهمه وفك طلاسمه، ولكنه فشل فشلا ذريعا، لأنه لم تعد له سنن ولا قوانين، المشترون يرفعون أكفهم يدعون على التجار بسبب الغلاء، التجار يرفعون أكفهم يدعون على الظالم، والظالم شبح هلامي غير معروف؛ بدأ في جمع ما يصادفه من سلع لأجل يوم الزينة العظيم، راسل الحسين، تحدث مع الناير، شؤون ذلك اليوم أصبحت شغله الشاغل، قبل الموعد المضروب وزع رقاع الدعوة على جيرانه، أصدقائه، وأقاربه.

التقت عائلات ثلاث في يوم مشهود، عائلته وأحبابها، عائلة ود البولاد والحسين وأحبابها، عائلة المكي وابنه النائر وأحبابها، كان عرساً متفرداً لم يشهد له الحي مثيلاً من قبل، عمت الأفراح كل النفوس، تمتموا فرحاً وغبطة في سرهم.

الحاجة البتولة: (الحمد والشكر لك يا رب العالمين أبقيتني بكامل صحتي وعافيتي لأشهد هذا اليوم السعيد).

الحاجة نفيسة: (الحمد لله على رؤيتي لأنوار السعادة تشع من وجوه أولادي).

ود البولاد، الذي كلما نظر في وجه حاج أحمد، رأى ذلك التلميذ الصغير الذي جمعته به المقادير، وربطت بينهما برباط وثيق: (الحمد لله القادر المقتدر على كل شيء، أمره كن فيكون، كنا وين وهسي- نحن وين).

حاج أحمد: (الحمد والشكر والثناء لك يا رب، على كمال فرحتنا، وتسهيل أمورنا، في بيوتنا وسوقنا).

الحسين: (الحمد والشكر لك يا رب العالمين، على تحقيق مرادنا، وبلوغ مقصدنا).

النائر: (الحمد والشكر لك يا رب العالمين على، تحقيق آمالنا، وجمع شملنا).

أخذ كل عريس عروسه وذهبوا في شهر عسل لذيذ، عاد ود البولاد وأهله إلى قريتهم، خلفوا من ورائهم نفيسة لتقعد مع بنتها التي شارفت على الولادة، عاد المكي وأهله إلى ديارهم، رويدا رويدا عادت السكينة والهدوء للبيت، عطور وأريج فرح وحبور ما زالت تعبقه، ضحكات، أنغام، ألحان، وحفيف جريد نخلة، ما زالت تدندن في عرصاته، مودة، محبة وصفاء ما زالت ترفرف في صباحاته، مساءاته، وعشياته.

ومن ثم، مرت الأيام، رتيبة مملة، ما فيها جديد يذكر، يأتي إلى دكانه صباحاً، يقابل نفس وجوه مألوفة، يتحدثون في ذات مواضيع، يأكلون ذات طعام، يشربون نذات شاي أحمر، زبائنهم يتناقصون، فواكههم تتأرجح بين ندرة ووفرة، حرامية ونشالون للناس بالمرصاد، يحركون مياه سوق راكدة، عيونهم أصبحت قوية، يقلعون نهاراً جهارا

والمارة والتجار يتفرجون، والعسكر غائبون، انقرضت وتلاشت (ياهو.. ياهو)، النشال عينه قوية، القلوب ماتت، كل واحد يقول وأنا مالي ومال جرجرة، يا الله السلامة، الحكاية بقت حكاية، عصابات منظمة تنتقم ممن يتصدى لها، لا يأبهون بقاض ولا محكمة، أحيانا الناس تقبض عليهم، تسلمهم السلطات، ساعة واحدة ويعودون للسوق وهم يتبخترون، يحدرون للناس بعيون تقول: (أفهموا يا بجم يا غجر، السوق سوقنا، الحتة حتتنا، غنوا لينا يجو عائدين.. إن شاء الله عائدين يا الله)، ناس تقول: (السجون مليانة لي حلقها، ما فيها ليهم محل فاضي)، آخرون يقولون: (السجون غلبها تأكلهم وتشربهم من كثرة عددهم)، وآخرون يقولون: (الحكاية وما فيها أبو القاسم، أكل عيش، كلهم، حرامية وعسكر، متفقين علينا)؛ عاد في آخر النهار إلى بيته، وزع ابتسامات وكلاماً طيباً على أمه، ونفيسة، اللتان كانتا جالستين تتناولان طعام الغداء وعلى ألسنتهن نجوى ونجاة، والحسين والنائر، راقب زوجه عن قرب وهما يتناولان غداءهما، طبعاً عرفياً لا يجوز له تناول الطعام مع حماته في مائدة واحدة، قاس بنظره حجم بطن ظل يكبر يوماً بعد يوم، أحس بتعبها، رهقها، عنتها، ومشقتها، تساءل في داخله متى يخرج هذا القادم الجديد لتفرح الدنيا بقدومه، ويريح أمه من عذابها؟ تمناه ولداً يشيل معه الشيلة.

جلسوا كعادتهم في محلهم المعهود يتجاذبون أطراف الحديث بعد تناولهم لوجبة الإفطار، وإذ بود فنقوق يرمي عليهم بقنبلة مدوية:

(يا جماعة والله حصل معاي أمس شيء عجيب في السوق العربي، حاصروني وتحرشوا بي جماعة جنوبيين جوه السوق، قدام الناس، على عينك يا تاجر، إلا كرعيني مرقني منهم).

رد ود الفكي في لهجة شرسة قائلاً:

(ما كان معاك زول يا غشيم).

رد قائلاً:

(ويعني كان معاي ماشي يسوي شنو؟ ما الشارع مليان، في واحد رفع عينو عليهم؟ حليل ناس كرري، وناس أربعجي بلك، وناس هجانة، كان أنانيا أدونا عجاجة).

رد ود جبر بلهجة ساخطة قائلاً:

(اليومين دي الجماعة ديل سمهم فائر، رامين قدام، ما فضلت ليهم إلا جوبا ويقولوا باي باي (مندكورو)، وتبدأ جرجرة معهم، خواجات من هنا، يهود من هناك، وخلاص عائرة وأدوها سوط).

رد النائر بمرارة قائلاً:

(نلقاها من منو؟ منهم ولا من سوقنا الميت، ولا من حكومتنا الميتة، جيوبنا خلاص بَنَتْ فيها أم شبتو؟).

اختلط كلامهم وتداخلت أصواتهم:

(حياتنا مُرة، رغيف بالصف، تموين بالصف، بنزين بالصف، حتى دفن الجنازة بِقَى بالصف).

(البلد فرملت عديل، وِقفت تب، ناس الموبه، ناس الكهرباء، ناس البلدية كلهم أضربوا عن العمل، ما فضلنا إلا نحن ناس السوق).

(البلد يا جماعة هامله، ما عندها سيد، السدنة نائمين في العسل، والحرامية شغالين).

(والمساكين، واحدين ماتوا، واحدين هجّوا، واحدين يشحدوا، واحدين عندهم نفسيات، وواحدين جنّوا جن كلَكيّ).

خاطبهم قائلاً:

(الدنيا ماشه لي وين والله ما عارفين).

رد النائر في لهجة لا تخلو من قوة وتحدي قائلاً:

(تتذكر يا حاج أحمد قبل أربعة سنوات كنا قاعدين قعدة ونسه في سوقنا القديم، تتذكر قلنا شنو؟ ما قلنا جماعة الحكومة الجديدة

لما جونا قالوا في الجماعة القديمين كلام وسخ كثير، مشينا وجينا وحلّونا في نفس الطين، والمرة دي الوحلة مِطَينة للآخر).

رد في نبرة متفائلة قائلاً:

(سنة الله في الكون ماضية، لا تتغير، بعد آلام المخاض ماذا يأتي؟ تأتي الولادة، أنا شائف في مولود جديد قادم، رياح التغيير بدأت تهب).

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة خمسة وعشرون فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(٥)

رياح تغيير

يرى، أتى أفراد شلته في ذلك اليوم إلى محالهم مبكرين، فتح جهاز راديو صغير مرمي بالمحل، التفوا من حوله يتسمعون الأخبار، علق قائلاً:

(أخبار عجيبة).

رد ود فنقوق بلهجة مستنكرة قائلا:

(لا عجيبة ولا حاجة).

رد ود جبر متسائلا:

(أنا شاعر في شيء مش طبيعي، ورونا الحاصل شنو في البلد؟)

رد النائر بنبرة شامتة:

(في جماعة جُداد كرت ظهروا على الخط، قالوا الاقتصاد رقد برش، ما في تنمية في البلد، الأسعار طارت السماء، الدولار والريال نافخين فوق، والناس منكمشين تحت، الصحة والتعليم راحوا مع أمات طه، كل شيء واقع، إنتاج ما في، بدلا من أن نكون سلة غذاء العالم بقينا شيوخ وعمد متسولي العالم، الكُبَار شغالين لَقِف، كان دار أبوك خِرْبَت شيل ليك منها شيلة).

رد في نبرة مقتضبة قائلاً:

(والله حكايتنا حكاية، كل جماعة جديدة تركب فوق رسينا تطلع ألعن من سابقتها؟).

طرقه طارق، تركهم في لغطهم يخوضون، ودعهم وعاد أدراجه إلى بيته؛ حل مساء ذلك اليوم، مساء مشهود، لا يشبه ما فات من أمسيات حياته، أخبرته حماته نفيسة بأن بنتها حالتها لا تسر، إنها تشعر بآلام متواصلة، تقلصات وانقباضات قوية، تشعر أن بطنها من أسفل أصبحت ثقيلة عليها، تتنفس بصعوبة، وأن كل هذه الأعراض تعني قرب الولادة، وقد آن أوان أخذها لأقرب مستشفى؛ أخذوا أغراضهم على عجل، أغلقوا نوافذ وأبواب بيتهم، أخذوا سيارة أجرة وسابقوا الريح نحو المستشفى، دخلوا على الطبيب الذي أنبأهم بأنهم جاءوا في وقت مناسب، أدخلوها العنبر، دخلت أمها معها، خرجت أمها بعد ربع ساعة، أخبرتهم بأنها بصحة جيدة وولادتها متوقعة في أية لحظة، بعد مضي ساعة خرجت ممرضة بوجه باسم طلق بشرتهم بمولود ذكر صحيح معافى، طار من الفرح، الدنيا لا تسع فرحه، وزع حلوى وابتسامات على أهل وزوار المستشفى، أخذوها ومولودها إلى عنبر آخر، حالتها من تعب، إرهاق، وإنهاك لا يعلم مداها إلا الله، مولودها بأطراف زرقاء اللون لا يسكت عن البكاء، تحتضنه في صدرها وتحاول إرضاعه، ترشدها أمها بما عليها فعله، يحيط بها أفراد عائلة كانت صغيرة تحولت إلى عائلة ممتدة، يهونون عليها ما هي فيه من ألم، كرب، ومعاناة، يباركون لها مولودها؛ عادوا إلى دارهم بعد ثلاثة أيام قضوها في المستشفى، تتابعت أفراحهم، أرسل رسالة البشرى بالخبر السعيد إلى القرية، إلى ود البولاد؛ جاء الحسين ومعه زوجه نجوى من البلد، جاء أهل، جيران، وأصدقاء، جاءوا يحملون تهاني، دعوات صالحات، وهدايا، ثم جاء يوم الفرح الأكبر، يوم العقيقة، دعوا خلقاً كثيراً، ضاقت بهم عرصات الدار، ذبح شاتين مليحتين، سماه محمدا؛ تيمنا باسم حبيبه محمد (صلعم)، بمجيئه تغيرت نظم وطبائع البيت، كل شيء يُسَخر لأجله، ما من أحد منهم إلا ويسأل باستمرار، محمد نام؟ محمد رضع؟ محمد بال؟ محمد بكى؟

ينصحون أمه لتهتم بنفسها لكي تستطيع الاهتمام به؛ أما هو فلم يعد السوق له غاية ولا نادي، البيت هو غايته، وناديه، هو كل شيء في حياته، ما يتركه إلا ليعود إليه سريعاً، لا يتحمل تباريح البعد لحظة عن سعيدة ومحمد، ولا يشبع من إطالة النظر فيهما أبدا؛ قضى الحسين ونجوى في معيتهم أياماً جميلة، ثم عادوا إلى ود البولاد وبرفقتهم نفيسة التي كانت مترددة، أتبقى مع سعيدة ومحمد نبع حياتها الجديد، أم تعود إلى الديار حيث الحبيب ود البولاد في انتظارها؟

مرت خمس سنوات، داوم فيها على الذهاب يومياً إلى السوق، إلا في حالات الضرورة، محمد عمره الآن خمس سنوات، له أختان حلوتان، ميادة وآلاء، ود البولاد، بتولة، ونفيسة بدت عليهم علائم الشيخوخة، وهذه سنة الحياة، سعيدة في عينيه لم تزل سعيدة، لم تبدلها ولم تغيرها الأيام، نجوى، ونجاة، وسعدية كلهن أمهات لبنين وبنات.

حرب الجنوب ازداد لهيبها، في هذه الأثناء الدنيا مولعة نار حمراء، سرادقات العزاء منصوبة في كل مكان، كل شيء في البلد موجه للمجهود الحربي، المسألة مسألة وجود إما بقاء أو فناء، السوق لم يعد كعهده السابق، تدحرج من سيء إلى أسوأ، السلع الضرورية دخلت التموين، السوق الأسود كل يوم أكثر سواداً، المسواك، ليفة الحمام، انعدمت، باقات بلاستيك ماء الشرب اختفت من السوق، لأن الصبيان الذين يلفون بها على الدكاكين هربوا، بما أنهم قادرون على حمل السلاح الدفار لهم بالمرصاد، يخطفهم، يبلعهم، ثم يرمون بهم في مواقع التهلكة، تحولت حياتهم إلى رعب وخوف دائمين، من يضطر منهم للخروج يتسلل كحرامي، لا منجاة، ولا مفر من قدر الله، الكشة في كل مكان، من يمسكون به يذهبون به لمعسكرات تدريب، ومن هناك إلى خطوط أمامية، حيث حديد، نار، ومحرقة.

اقلقته روح وثابة، هيجت عليه مواجع، صدى كلمات قدسية رن في أذنيه، (من لم يغز، أو يجهز غازي، أو يخلف غازي في أهله بخير، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة)، (من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق)، فارقته الراحة في صحو ومنام، إنه في حوار دائم مع نفسه، هل الجهاد واجب؟ أليست البلد في حالة استنفار؟ ألم تداهم قوات عدو غازي البلد وحدقت به من كل اتجاه؟ أمكانه الصحيح خطوط أمامية حيث الرجال أم ملجة خضار وفاكهة، مع ستات الشاي والعصيدة؟ إذا سقطت البلد قطعا لن تكون هناك ملجة ولا يحزنون، قال في نفسه: (وللأوطان في يد كل حر يد سلفت ودين مستحق).

بدا له أن اتخاذه لأي قرار في هذا الشأن سابق لأوانه، عليه أولاً أن يصدق النية بتأهيل نفسه للقتال، وذلك لن يتأتى إلا بانخراط في معسكر تدريب مفتوح؛ قضى خمسة وأربعين يوماً فيه، تعلم مشي الطابور، صفا انتباه، معتدل مارش، فك سلاح، تركيب سلاح، ورماية، علمه مدربوه بأن غاية التدريب العسكري كسب المعركة بأقل خسارة في أرواح وعتاد، وقع في حيرة بين قولين، (قطرة عرق أثناء التدريب توفر نهراً من الدم أثناء المعركة) و (تعلم من الميدان ليكتب لك البقاء)، القول الثاني اتفق تماما مع ما تلقاه فعلاً من تدريب شاق.

أمسياته أحياناً تكون في غاية اللطافة، تهب فيها نسمات باردة، تتدنى درجة الحرارة، مما يغري الناس بالجلوس في ساحات بيوتهم أمام أجهزة التلفاز لدردشة وأنس، ضمتهم إحدى تلكم الأمسيات في جلسة عائلية حميمة هو، أمه، زوجه، وأخته نجاة التي كانت كثيراً ما تأتي لزيارتهم، أطفالهم في براءة يلعبون من حولهم؛ من حسن الطالع بثت الشاشة حلقة من برنامج (في ساحات الفداء)، ترحموا على أرواح الشهداء، انبهروا بكراماتهم، كبروا لتضحياتهم، هللوا لانتصاراتهم؛

جاءه إحساس بأن الفرصة مواتيه لتمرير فكرته التي كانت تدور في خلده، خاطبهم في لهجة لا تخلو من شعور زائف مصطنع بضيق وبرم قائلاً:

(الدنيا مقلوبة فوق تحت، الرجال شيوخا وشبابا في ميادين القتال يذودون عن حياض الدين، والعرض، والوطن، والتماسيح، والحرامية، والنصابين يعيثون في الأرض فساداً، والمتخاذلون يروجون الإشاعات).

ردت أمه بنيرة بريئة قائلةً:

(الله ينصرهم وينصر الدين، وينصر الوطن).

قالت نجاة بنبرة لا تخلو من حرقة:

(الثمن غال، ثلاثة من أولاد جيرانا في الحي، جاء لأهلهم خبر استشهادهم).

كانت سعيدة في حالة وجوم وصمت تام، حدسها يوشي لها بأن زوجها ما فتح هذا الموضوع اعتباطاً وإنما لحاجة في نفس يعقوب، تشاغلت بإصلاح رقاد الأطفال الذين غلبهم النوم، صبت حليباً في أكواب للذين لا زالوا منهم صاحين.

رمى بقنبلته متسائلا:

(أها أكان المنادي نادى نتفرج ولا نرمي قدام مع الرجال؟).

كانت سعيدة منتظرة هذه اللحظة، غلبها السكوت، انفجرت في لهجة قاسية حانقة قائلةً:

(أنا عارفه قصدك منذ البداية، كوم اللحم ده ماشي تخليه لي منو؟ ولا هانت عليك العشرة؟).

هتفت أمه في لهجة مريرة قائلةً:

(وأنا كمان تخليني لي منو؟).

هتفت نجاة في لهجة حزينة قائلةً:

(مخلينا كلنا لي منو؟).

استطردت سعيدة بلهجة لا تخلو من عتاب:

(ولا حملنا بقي عليك قاسي وثقيل؟)

رد في نبرة هادئة عسى ولعل أن يمتص هواجسهم ومخاوفهم قائلاً:

(يا أحباب الله روقوا المنقه شوية، عقلكم ما يمشي لبعيد، كل شيء بأمره، قدره ماض، يا والدة، ويا سعيدة، ويا نجاة كلامكم فوق الرأس والعين، الأمر بسيط ما تزودوها حبتين).

رفعت سعيدة حاجبيها وردت بلهجة غاضبة قائلةً:

(كان ترضا وكان تابا أنا ما موافقة).

ردت أمه بلهجة مستنكرة قائلةً:

(يا سعيدة إن أنت وافقت أنا ما موافقة).

رد بلهجة لا تخلو من عدم ارتياح قائلاً:

(إذا كان كل أم، وكل زوجة، وكل أخت تقول: (لأ، لأ، رجالنا وأولادنا الله بينهم وبين الحرب)، خلاص البلد تضيع، وما بعدها إلا خزي، عار، مهانة، ومذلة، التاريخ لا يرحم، أولادنا حياتهم تكون كيف؟ رؤوسهم تكون منكسة للأرض، العياذ بالله).

ردت أمه بعد أن أخذت نفساً عميقا في نبرة لا تخلو من أسى، وضيق، وبرم قائلةً:

(الليل راح، قوموا ارتاحوا، والصباح رباح).

انتهت قعدتهم نهاية غير متوقعة، ذهبوا إلى أسرتهم، سعيدة أعلنت موقفها بدون مواربة، لا يحادثها، ولا يدنو منها أبداً، إلا إذا غير كلامه، ظل يتقلب على جنبيه في فراشه ودرجة حرارة رأسه تكاد تصل نقطة الغليان، تعقدت الأمور وأصبحت في غاية الصعوبة، قال في نفسه وأبالسة النوم تعربد في عينيه: (ربنا يستر ويجيب العواقب سليمة).

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة ثلاثين فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(٦)

ساحـــات فـــــداء

يـرى، انـدفعت بهـم سـيارة (دفـار) في صـباح شـتوي بـاكر بسرعة مذهلـة في إسـفلت شـوارع المدينـة، نفحـات هـواء بـاردة، مشـبعة برطوبة مياه النيل، وذرات دخان ثاني أكسيد كربون منبعثة من عوادم سـيارات تـداعب بقايـا سـتائر ممزقـة علقـت بغـير نظـام فـوق رؤوس الركاب، خليط من بشر، رجال، نساء، وصبيان، لفهم صمت كئيب كلهـم بـلا اسـتثناء، حـدقت عيناه فـيهم واحـداً تلـو الآخـر، هـذا شـيخ عجـوز، بدنه هزيل تستره جبة فضفاضة بيضاء بالية، يمسك بعصاً قصيرة ينقـر بهـا نقـرات رتيبـة عـلي حديـد أرضـية الـدفار، وذاك صـبي صـغير في عمـر العـاشرة، بصـدر متسـخ تسـتره فانلـة قطنيـة قديمـة ممزقـة، يضـع في حجـره صـندوق صـغير مـن كرتـون، مغلـف بكـيس بلاسـتيك، تبـدو مـن فتحـة صـغيرة فيـه أدوات مسـح أحذيـة، يلتصـق ببدن راجف في غير مبالاة بمن هو يجلس بجانبه لعله يجد بعضاً من دفـء، ثلة من الركاب أفندية ببنطلونات وقمصان نظيفة، وأفنديات بثياب ملفوفة بيضاء مميزة، وثلة أخرى من عامة الناس، مكتظون وسـط دفـار كسـالمون علبـة سـاردين لا يكاد يبـين مـنهم غـير سـواعد ممتدة كأغصان أشجار يابسة، هتف في داخله في مرارة قائلاً:

(مشوار الناس في بلدنا بين وجود وعدم، رحلة عذاب مستمر).

تسـلل في خفـة، ورشـاقة، وسـط الركاب صـبي ذو أربعـة عشـر ـ ربيعاً بلباس رث، فيه من الغرابة الكثير وهو يردد في لهجة خشنة:

(يا الله يا أخوانا مشونا، خلاص الإكسبريس وصل).

قال في نفسه ونعاس ثقيل بدأ يدب في جفنيه:

(في بلاد متحضرة متمدنة الناس حالهم غير حالنا، يقذفون بنقودهم في صندوق أنيق عند باب الحافلة، يجلسون في أدب واحترام على مقاعد وثيرة، وعيونهم مسرورة بمناظر حلوة تمر مر السحاب عبر نوافذ زجاجية عريضة).

قطع عليه حبل ما هو فيه من أحلام ورديه فحيح أصوات غاضبة متحفزة خرجت من بين الزحام:

(أدينا باقي القروش يا فردة، نسيت ولا عامل مُطَنِش؟).

(ما عندي باقي).

(يا تدفع يا تنزل).

(ما بدفع وما بنزل).

(تدفع).

(ما بدفع).

(تنزل).

(ما بنزل).

قطع الراكب بجانبه شخيره وهمس له بنبرة ساخرة قائلاً:

(عارف ولا ما عارف، تمساح دفار، وتمساح مكتب في بلدنا دي، حاجة واحدة).

رد بنبرة ضاحكة قائلاً:

(نسيت يا حاج تماسيح البحر وتماسيح السوق؟)

رد بلهجة واثقة قائلاً:

(تماسيحي وتماسيحك كلها حاجة واحدة، التماسيح مخلوقات برمائية، تخمش في البر وتخمش في المويه، الله يكفينا شرها، وشركم كمان).

بدون أخذ احتياطات حيطة وحذر، مسح في لمحة خاطفة مكنونات تعابير وجوه كل الركاب، لم يطمئن إلى بعضها، وجوههم تشبه وجوه مجرمين مندسين، غير مجرى الحديث مع محدثه:

(يا حاج فرق كبير بين كمساري دفار وكمساري طيارة، مع أنهم كلهم من فصيلة واحدة، فصيلة مضِيفين).

رد في لهجة حانقة وظلال تكشيرة عريضة تمددت على صفحة وجهه قائلاً:

(طبعاً في فرق، فرق بين سماء وأرض، كمساري طيارة، سماء، فوق، ذوق، لطافة، وأدب، كمساري دفار، أرض، تحت، عياذ بالله، دفار، وأبوه دفار، وأمه دفاره كمان).

رد قائلاً:

(إن الطيور على أشكالها تقع، كمساري طيارة لناس طراوة، كمساري دفار لناس يأكلوا ساندوتش محشي لحم فأر).

نهض غريب الأطوار واقفاً، نفض يديه في حركة هستيرية، عيط في وجهه بلهجة متحفزة قائلاً:

(خلاص، إنت مالك، نحن كده، حالنا كده، بلدنا كده، نأكل لحم فأر نأكل حديد دفار، كويس كده، نحن عائزين كده، إنت مالك، داير تقعد فيها، أقعد، داير تغور منها، غور، في ستين ألف داهية تأخذك، داير تغير الدنيا يعني؟ خليك في حالك، خلينا في حالنا، ولا لازم تقفلها معانا من أصبح الصبح، ولا السجن ولا السجان باق).

تمتم في سره:

(سبحان الله، المجانين في نعيم، على الدنيا، وعلى البلد، وعلى الناس السلام).

جاءه من بعيد صوت مميز حنون:

(يا أخوانا أنا تعبان، أنا عيان، أنا جوعان، أنا عطشان، قولوا للريس عائزين تفاح، عائزين برتقان، عائزين كلوروووووكوين).

نبهه ذلك الصوت إلى أن الدفار قد وصل إلى محطته النهائية، ميدان الأمم المتحدة؛ ممسكاً بيده بحقيبة جلدية صغيرة مشى ببطء طرف الشارع الترابي، متحاشياً الاصطدام بقدر الإمكان بمرضى،

مجذومين، ومتسولين يعج بهم المكان، وصل موقف حافلات السوق المركزي للخضر والفاكهة، جلس على أول مقعد صادفه بجانب رجل عجوز، حياه، تجاهل تحيته وشاح بوجهه في نفور، وسوس في سره:

(ربما سمعه ضعيف).

طوال الرحلة لم يسمعه ينطق ببنت شفة، نقد الكمساري نقوده وهو صامت، وصلت الحافلة إلى منتهاها، سمعه يهمهم:

(قال سلام عليكم، هو في سلام، هو في طين، سيبونا في حالنا، يا عالم يا غجر يا بجم سيبونا، لازم تجننونا، جن يركبكم قبل ما تجننونا).

هز رأسه أسفا وردد في داخله:

(بلد عجيبة، مجانينها أكثر من عقالها).

وصل إلى ثلاجة خضر-وفاكهة، عانق حاج عبد اللطيف الذي جمعته به عشرة عمر فهو الذي يمده بالفاكهة منذ أن كان في سوقه القديم، جلس على كرسي خيزران عتيق تفصل بينهما طاولة حديدية، جاءته ست شاي معششة كطائر سمبر بالقرب من المحل بكوب شاي أحمر، رشف رشفة أولى تناول بعدها قرص بندول، ابتدر حاج عبده الحديث ونظرة غريبة تتألق في عينيه قائلاً:

(الحياة يا حاج أحمد بقت صعبة، غير موزونة، عملت معها المستحيل بدون فائدة، أين العيب؟ فينا؟ في ظروفنا؟ ولا في أعمالنا التي لا ترضي الله، أنا بقيت لوح لا يفهم، بالله فهمني الحاصل بالضبط شنو؟)

اصطرعت في داخله أحاسيس شتى ثم رد بمرارة قائلاً:

(مشاكلنا موروثة، مدفونة في داخلنا، لا توجه حضاري ولا غير حضاري، ماشي يجيب معانا نتيجة).

هز رأسه في أسف ورد بعد أن أخذ نفساً عميقاً قائلاً:

(نحن نعيش زمن هامش، زمن عبط، زمن لا معقول، صدق أو لا تصدق المرأة التي أحضرت لك الشاي ابنها ترك المدرسة، وعمل كمساري في دفار، لأنه أبوه هرب، المسكينة تلقط عشان يبقى ليها زول ينفعها لما تكبر، وهو ماسك سكة ثانية، سلس يون، هلوسة، ما جائب ليها خبر).

رد بنبرة لا مبالية قائلاً:

(يا صديقي العزيز أترك الكلام، الزمن ده الكلام لا يقدم ولا يؤخر، وخلينا في حالنا).

رد بنبرة مستنكرة قائلاً:

(وإلى متى كالنعام ندفن رؤوسنا في الرمال؟ أين موقعنا من الإعراب؟ متفرجين؟ منافقين؟ نفعيين؟ ولا رمم نتفرج على شباب مجاهدين ومناضلين يموتون لأجلنا؟).

بعد تفكير عميق رد بنبرة يكتنفها بعض الغموض قائلاً:

(لا أخفي عليك سرا يا صديقي أني قد وجدت الحل، التحولات العظيمة لا بد من أن تسبقها قرارات خطيرة، أحسن نخلي الكلام الكبير ده لي وقته، قول لي الحساب كم، نسدد قديم ونقيد جديد).

نهض حاج عبده واقفاً في إعياء ظاهر، غمغم بكلمات مبهمة، أخذ ملفاً قديماً محشواً بأوراق كثيرة، وضعه أمامه، فتحه، قلب فيه ثم رد قائلاً:

(الحساب يا عزيزي الفاضل خمسة آلاف دينار).

فتح حقيبة جلدية صغيرة، نقده المال، مد له ورقةً مكتوب عليها طلباته الجديدة، ثم خاطبه بنبرة حزينة قائلاً:

(يا صديقي رغبتنا في الحياة ماتت، بقينا ناس ضل حيطة، رسل طلباتي الجديدة للمحل، وبالمرة ضيف أجرة النقلية على الحساب).

رد وهو يودعه أمام الباب قائلاً:

(وبعدين معاك يا حاج أحمد، تفاءل يا أخي شوية، لسه العمر فيه بقية، يا أخي أديها ضحكة، تضحك الدنيا معك، تديها بكية، تبكي لوحدك).

عرج على محله قبل العودة إلى بيته، قابل النائر، كاشفه بسره، أوكل إليه تصريف شئون أهله ومحله في غيابه، وأن يخبرهم بأخباره على مهل تجنباً لأيتها صدمات، خصوصاً أمه التي لا تقوى على سماع منقصات أو مكدرات.

آب إلى بيته، جال بنظرات ودودة في أمه النخلة الكريمة، من جذورها الناتئة إلى أعلى قمتها، اعوجت قليلا، احدودب ظهرها، عمرها فاق المائة سنة، سعفها الأعلى لونه أخضر فاقع، لم ير مثل نضارة لونه من قبل، لا في شجرة، ولا عشبة، ولا حتى في شاشة سينما، سعفها الأدنى يتدلى لأسفل، بلون ذهبي، شعر بأنها تمد إليه سعفها أذرعاً تعانقه، تناجيه بهفيف يهمس في أذنيه:

(شد حيلك يا أحمد، الدنيا تعب ورهق، كدح وكد، أجدادك مشوا خلوها جباههم عالية، أنا شاهدة على ذلك، أمشي خليها جبهتك عالية زي ما خلوها).

استعاذ بالله ردد في داخله:

(اللهم أجعله بشير خير وبركة).

أضاف تحسينات لبيت العائلة، يشبه عموم بيوت أي حارة شعبية، ينقسم إلى خليتين، خلية داخلية خاصة بالنساء وأخرى خارجية خاصة بالرجال، خلية النساء عبارة عن قسمين غير متداخلين، قسم خاص به، وقسم خاص بأمه وأختيه، لكل خلية فضاء واسع فيه أسرة وعناقريب مبعثرة يأوون إليها في ليالي صيف حارة.

في تلك الليلة وضع سريره على طرف قصي منعزل من الفضاء الخاص به، استلقى مبكراً خلافاً لعادته، طفق يتأمل في نجوم ليل زاهرة، متلألئة، متناثرة في نسق معجز يفيض سحراً وجمالاً على صفحة السماء، ناجى نفسه في همس:

(ما أجمل سماك يا بلد، ما أحلاك يا بلد، سبحان من سواك يا بلد، بكل ما فيك من منقصات، وبكل ما فيك من متاعب، آه، آه، من هواك يا بلد).

شعر بخدر لذيذ خفيف يسري برفق في شقه الأيمن، استدار وانقلب على شقه الأيسر، كرر الاستدارة والانقلاب لأكثر من مرة، حاول أن ينام ولكنه لم يستطع، أغمض عينيه وتناوم ولكن بدون طائل، هناك شيء خفي يعتمل في داخله، شيء كبركان ثائر يتسبب في رفع درجة حرارة كيانه كله، ملأ حناياه بشحنات قوية من توتر وقلق.

جاءته سعيدة في الصباح الباكر بكوب حليب، وضعته في هدوء أمامه على منضدة صغيرة، نظر في وجهها ملياً، قرأ على صفحته أحلى لحظات عمره، عشر سنوات انقضت على زواج مبرور ميمون عصارته أربعة أطفال وأحلى ذكريات، خاطبته بنبرة لا تخلو من دلال قائلةً:

(أحوالك هذه الأيام لا تسر لا لاعبت أولادك ولا ضاحكتهم، هموم الدنيا كلها شائلها فوق رأسك، أنس الهموم، ودع الغموم، الدنيا حلوة، زي أحلى غنوة).

رد عليها وتعابير مبهمة تكسو وجهه قائلاً:

(أريد يا سعدية شوية راحة من مشاغل الدنيا الكثيرة، نجري جري الوحوش وغير رزقنا ما نحوش، لكل أجل كتاب).

ردت قائلةً ومسحة من كآبة تكسو وجهها:

(الدنيا يا حاج هي الدنيا، قدر مكتوب علينا، ما منه فُكاك).

رد في نبرة لا تخلو من حسرة قائلاً:

(يا سعيدة عارفة قدرك، ومعَزتِك، وغلاتِك عندي، لا أريد في يوم من الأيام أن أراك أو أرى واحداً من أولادك غير سعيدين، الحياة صعبة، الناس تلطم في خدودها وتشق في جيوبها، الناس ملت هات وجيب، ملت حاجة اسمها كهرباء، مويه، عوائد، ونفايات).

ردت قائلةً:

(أفضل تمرق من البيت تتمشى، يمكن بالك يرتاح شوية).

أخذ حقيبته الجلدية الصغيرة وخرج من بيته، زاحم في الدفار مع حشود مزاحمين، بـنَفَس لاهث وجد نفسه يجوب شوارع سوق المدينة، دخل عدة محال واحداً تلو الآخر، دخل أول محل يبيع أحذية، جال بنظره في المعروضات، قارن بينها وبين حذائه الذي يستر قدميه الخشنتين، قال في نفسه:

(إذا أخذت هذه الأحذية كلها معي لن تدوم طويلاً، إنها نِعَال مدينة، ليست نعال أحراش، طلبي حذاءً قوياً لَسْتِك مجروس).

أتاه صوت أجش منفر قائلا:

(يا الأخُ هوي سارح وين، جِزَمنا دي كلها ما ملت عينك؟)

رد بهدوء:

(آسف يا خوي طلبي غير موجود عندكم).

رد في لهجة جافة قائلاً:

(وريني داير تمشي بيه في القمر، ولا في البيت الأبيض، ولا ياهو في ترابنا الوسخان ده؟).

رد وهو يتمتم في سره: (إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما):

(داير أمشي بيه في الغابة، عندك جزمة غابات).

تعب من لف ودوران، قفل راجعاً خائباً إلى محطة الحافلات، جرجر رجليه في تثاقل، بغتةً لفت نظره كشك صغير يعج بصنوف من الأحذية، دخله على طول، طفح وجهه ببشر وسرور وهو غير مصدق لما رأى، حذاءً ولا كل الأحذية، شبه بووت إنجليزي، فيه سحنة حذاء إيطالي، فيه متانة حذاء (تموت تخلي)، إنه هو، بغيته التي قضى ساعات طوال يبحث عنها، إنه (الدُخري)، المُدَخر لليوم الأسود، نقد صاحب المحل الثمن بدون مفاصلة، ويا له من ثمن بخس لأن كل المشترين كانوا فيه زاهدين، حدق فيه ملياً وهو غير مصدق، ضمه بقوة إلى صدره، قبله قبلةً حرى، وضعه برفق داخل كيس بلاستيك، ظل يلمسه بين الفينة والأخرى ليطمئن إلى أنه يرقد بسلام داخل مخدعه، ومن بعد حمد الله على وصولهما بيته سالمين غانمين.

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة خمسة وثلاثين فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(٧)
تعبئة عامة

يرى، هزته هزاً عنيفا نداءات تعبئة عامة... (يا شباب الوطن.. يا شرفاء الوطن.. العدو يدوس على حرمات التراب.. يلتهمه من الأطراف.. قواتكم الباسلة تسد عليهم كل المنافذ والمعابر)، خَلَفَ هذا النداء ظلالاً قاتمة في داخله، أخذت تلك الظلال في التمدد في ذرات كيانه مع مرور الأيام، ثم أخذت دواماتها تكْبُر وتكبُر، احتوت النخلة، التراب الذي تنمو فيه، موقعة كرري، جده آدم، العائلة، الأولاد، الأحفاد، غطت على كل شيء؛ شرارة العزة والكرامة الكامنة في نفوس الناس سرت سريان النار في الهشيم، تحول سكونهم الهامد إلي عنفوان مزمجر، مارت وفارت شوارع المدن بحركة دائبة متلاطمة، انطلقت كتائب مقاتلين ومجاهدين كأعاصير في كل الدروب؛ أظلم نور عينيه وهو يرى بيوت المدينة خراباً بعد رحيل عُمارِها من مخلصين مجاهدين، كهولاً وشبابا، وبقاء معذرين أصحاب أعذار مصطنعة، لا يعجبهم عجب ولا صيام في رجب، وحثالة مهووسة بكيف ومخدرات، ومجرمون مهنتهم القفز ليلاً فوق حيطان البيوت، كلهم جرذان خائفة تتمترس داخل جحور؛ هنا توقف عنده دوران عجلة الزمن، تقلص المكان في عينيه إلى نقطة لا تكاد تُرى بعين مجردة، توحدت كل خياراته في خيار واحد، تمددت وانداحت كلمة مقدسة في داخله إلى ما لا نهاية بعد أن كانت هامدة، الجهاد، ولا بديل عن الجهاد إلا الجهاد.

نظر في ذلك المساء نظرات تأملية خالصة في سائر أنحاء زوايا بيته، فككك بنظرة ثاقبة مكونات كل الأشياء التي تبدو له في صورة مغايرة عن ذي قبل، طفق يتفرس في وجوه أهله، الوجوه ليست هي التي عرفها وألفها، إنها تتراقص في بلور إشراق وجمال، تتأرجح في هالة من نور، أمسك بولده الصغير (محمد)، ضمه إليه في حنان دافق، نظر في عينيه نظرةً فاحصة، غاص فيهما وحدث نفسه قائلاً:

(على قدر تضحيات الآباء يتشكل مستقبل الأبناء).

تمتم الطفل في براءة:

(يابا داير بندقية ألعب بيها الأولاد كلهم شائلين بنادق).

غمره رضا طفح أمناً وسلاماً، ناجاه قائلاً:

(بندقية واحدة، طلب رخيص، مهر عازه يا ولدي غال شديد، ثلاثين مليون بندقية بإذن الله).

قطبت سعيدة حاجبيها إشارةً إلى عدم رضا، خاطبته قائلةً:

(الولد، أتْرُكْه في حاله، وشوف ليك شغلة ثانية أقضيها).

غاص في أعماق عينيها، جمع كل محار ولؤلؤ راقد فيهما، قال بنبرة مفعمة بحب وحنان:

(أبقي عشرة على العُقُب يا سعيدة، أنا ماشي في سفرية طويلة).

سألته قائلةً:

(مسافر لي وين؟)

أجاب بنبرة لا تخلو من مداراه:

(أعمال تجارية أقضيها وأعود إن شاء الله).

ردت بوجه عابس:

(لا تقطع عنا الأخبار).

انشغلت في تصريف شئون بيتها وتمدد هو فوق سريره، التصق به محمد، رفرفت فوقهما أجنحة ملائكية، أسدل عليهما نوم العافية أستاراً مخملية.

لأول مرة انتقى بنفسه في الصباح الباكر لوازم سفره التي كانت عبارة عن جبة، بنطلون، قميص، سروالين وفانله، انتعل حذاءه الجديد (الدخري)، تبختر فيه بخيلاء، تَدلَتْ بسير جلدي من كتفه الأيسر-حقيبة جلدية (سفاري) صغيرة، تضخمت غصة حرى في حلقه وهو يودع أحبابه، أمه، زوجه، وأولاده، التفت التفاتةً أخيرة نحو داره، قبل أن يدلف إلى منحنى مؤدي إلى محطة الحافلات، ودع النخلة بنظرات حانية؛ زاحم الدُخري منافسيه من أحذية زفرة نتنة، لعبة كراسي دموية، كانت له الغلبة في أول معركة خاضها؛ جلس فوق وسط مقعد خشبي طويل، وركاب الدفار جالسون من حوله تنابلة سلطان، مدد ساقيه بين غابة سيقان خشبية رفيعة، مقدمتا الدُخري بارزتان منتفختان مزهوتان بالانتصار، قطع صمتهم الجنائزي صوت صبي يفرقع بأصابعه، ويلعلع بلسانه:

(أدونا حقنا خلونا نشوف شغلنا).

صك أذنيه صوت مألوف لديه:

(يا أخوانا أنا تعبان، أنا عيان، أنا جوعان، أنا عطشان، قولوا للريس عائزين تفاح، عائزين برتقان، عائزين كلوروووكوييين).

نبهه الصوت إلى أنه قد حان لأذنيه أن تستريحا قليلاً من وخز شخير الدفار، حمل حقيبته و الدُخري يطقطق طقطقة حوافر أحصنة فوق إسفلت؛ اندفع الدم بقوة في أوردته وشرايينه، طفح من على مسام سطوح جلده جبروت حياة وقوة كامنين فيه، احتوته حماسة منبعثة من مكبرات صوت، إنها تنفث رعباً، خوفاً، ورهبةً، في نفوس طابور خامس، وتدخل أمناً وسلاماً في نفوس مجاهدين، رأى جموعاً هادرة تتدافع بمناكب إلي مقدمة صفوف متراصة، انضم إليهم، نظر في وجوههم نظرةً مفعمةً بحب، إخاء، وتجرد، قفزت إلى ذهنه كل صور ملاحم تضحية وفداء اختزنها تاريخ البشرية منذ الأزل،

تفرس في ملامح المجاهد الواقف أمامه كعمود نور لا يتزحزح أبداً، في العقد الخامس من عمره، بنيته قوية، ملامحه صارمة سأله قائلاً:
(يبدو أنني وصلت متأخراً قليلا يا أخي؟).
التفت نحوه وأجاب قائلاً:
(غادر الفوج الأول للتو للمعسكر رقم واحد).
ثم استطرد قائلاً بعد أن أمعن النظر في وجهه:
(وجهك مألوف لدي، يبدو أننا التقينا من قبل، اسمي (عبد الله) الوحش هل تذكرتني؟)
رد بعد جهد جهيد:
(ذاكرتي ضعيفة).
هرش فروة رأسه، تزاحمت صور قديمة في ذهنه، سرح منقباً في خفايا ذاكرته، استقامت معتدلةً صورة باهتة طواها الزمن:
(نعم تذكرتك، معسكر التدريب المفتوح، (الوحش) بطل الرماية الماهر الذي لا يشق له غبار).
تعانقا طويلاً، تبادلا ضحكات ونكات، استعادا شريطاً من ذكريات لا تنسى، سأله:
(ما الذي دفعك للمجيء إلى هذا المكان الخطر يا عجوز؟)
أجابه بحماس شديد:
(دفعني الذي دفعك، ودفع كل هذه الأسود المتوثبة، مهر عازه غالي).
قبل أن يستكملا بقية حديثهما وهما يخطوان في الصف ببطء وجدا نفسيهما يقفان أمام أكوام مهمات عسكرية، أخذ كل منهما نصيبه، سترة وبنطلون مبرقعين، غطاء رأس (بوريه)، فانلة، مشمع، بطانية، باقة بلاستيك صغيرة، كوب بلاستيك، جوارب وبووت، خلعا ملابسهما وأحذيتهما المدنية، خلع الدُخري وخاطبه قائلا: (ليك يوم

يا دخرينا)، غيباها في حقيبتيهما، ارتديا زياً عسكريً، نظر كل منهما مبهوراً في الآخر، قهقه بصوت عال وهو يخاطبه بازدهاء:
(شتان ما بين وحش ملكي ووحش عسكري).
رد بنبرة لا تخلو من خيلاء:
(أصبر شوية، لمن نمسك كلاشا، أنانيا قيامتهم قامت).
سمعا صفارات، نداءات، جلبة، صخب، وصوتا بلهجة آمرة يقول: (أمر ميداني الفوج الثاني، إلى الشاحنات، كل القوة، التحرك بعد ربع ساعة).
قذف بحقيبته من فوق صندوق الشاحنة، تسلق في خفة ورشاقة نسناس، ازدحم الصندوق في وقت وجيز بمئات المجاهدين، صدحت حناجرهم:
(نحن جند الله، جند الوطن إن دعا داعي الفداء لن نخن نتحدى الموت عند المحن...)
انطلقت الشاحنات في شوارع المدينة، خرج الناس، بالألوف، رجال، نساء، كهول، شباب، صبيان، صبايا، وأطفال، تعانقت قلوبهم، تشابكت أيديهم، بللت دموع الفرح وجوههم، رقص كل الكون مع زغاريدهم، أناشيدهم، وأهازيج حماستهم، انفكت أرواحهم من محابسها وحلقت في فضاءات رحبة، تدحرجت دموع عينيه، ارتجف من رأسه إلى أخمص قدميه، انفجرت حنجرته مجلجلةً في قوة جبارة:
(نحن جند الله، جند الوطن إن دعا داعي الفداء لن نخن نتحدى الموت عند المحن...)
نزل من على صندوق الشاحنة وحقيبته تتدلى من كتفه، لاحظ أن ظلاماً دامساً وسكوناً محيراً يخيمان على المعسكر رقم واحد، خرج نداؤه ضعيفاً من حنجرة ملوثة مسدودة بغبار: (أين أنت يا أيها الوحش؟)، ضاع صوته وسط الزحام، وضاع منه الوحش، أرسل

نظراته إلى أرض تحته وسماء فوقه، بينت له أضواء خافتة أن المكان سفح جبلي أجرد، تتخلله عنابر مشيدة من حجر مسقوفة بألواح زنك، خيام، وعشش حصير.

دوت صافرات ثم زمجر صوت قوي كالرعد:

(كل القوة الجمع وسط الميدان).

تحرك مع المتحركين، وقف مع الواقفين، سمع نداءً يقول:

(صفاااااا.. انتباااااه.. استرح).

قسم أمراء الحشود إلى ثلاث مجموعات كبيرة، كتائب، كتيبته، الكتيبة الثالثة، قسموا كل كتيبة إلى ثلاث فصائل، فصيلته، الفصيلة الثانية.

دوى صوت النداء مرةً أخرى:

(أمر ميداني.. الكتيبة الأولى إلى مستودع السلاح رقم واحد.. الكتيبة الثانية إلى مستودع السلاح رقم اثنين.. الكتيبة الثالثة إلى المستودع رقم ثلاثة.. على اليمين معتدل مارش).

تحركت صفوف وهي تشدو: (نحن جند الله، جند الوطن، إن دعا داعي الفداء لن نخن، نتحدى الموت عند المحن...)، تحول المكان بين عشية وضحاها إلى مجمع ضخم لإنتاج قاذفات رعب، خوف، وهلع، أمسك بحبيبته (كلاشا)، لونها أسمر، شعرها أسود، عيناها ساحرتان فوهتاها مفتوحتان، وشاحها موشى مطرز عليه بخيوط ذهب نمرة (٢٣٦٣٥)، قال في نفسه:

(عازه يا عزيزة لن تضامي أبدا، ما دام في عروقنا دم يجري، وفي صدورنا نفس يطلع وينزل).

دوى صوت النداء مرةً أخرى:

(كل الكتائب إلى العنابر للراحة.. الجمع الساعة الخامسة والنصف صباحاً).

دخل في واحدة من عشش حصير، افترش مشمعه، رقد عليه بعد أن تحسس كلاشا، وبعد أن اطمأن إلى أنها في حفظ وصون استسلم بدنه المنهوك إلى سلطان النوم؛ أيقظه ملمس يد خشنة تربت على كتفه، التقطت في نفس الوقت أذناه صوت الآذان، ممزوجاً بجلبة حركة أقدام ثقيلة، وضجيج ماكينات شاحنات؛ جلس القرفصاء، فرك عينيه، تَمطَى، نهض كالعفريت، خرج في الهواء الطلق، صلى الفجر في جماعة ثم عاد إلى عشته؛ وجد صحبه الجدد متحلقين حول كيس تمر وخبز جاف، جلس وتقاسم معهم وليمتهم أكبرهم سناً (حامد)، يبدو في أواخر العقد الرابع، أسمر كلون تراب الأرض، ممتلئ الجسم، قصير القامة وبخيل الكلام، (سالم) أكثرهم شباباً وفتوة، في منتصف العقد الثالث من العمر، طوله فارع، جسمه رياضي، في ملامحه صرامة، أصغرهم سناً (خالد)، ثرثار، كثير الكلام، جم الحركة، (جيمس) طويل كشجرة باباي استوائية، كثير الضحك، يتحدث بلكنة عربي جوبا؛ نهض حامد واقفاً، خرجت كلمات سريعة المقاطع من فمه المملوء بفتات خبز:

(لا تبتعدوا من بعضكم البعض، كونوا دائماً سوى، جماعة واحدة، يد واحدة).

رد خالد قائلاً:

(ثلاث سنوات قضيناها سوى، لابسين كاكي أزرق، حافظين الأمن في أطراف المدينة، محل العشوائيات، والجريمة، والكلام الفاضي، وجوهكم المُبَوِزة دي يعني ورانا، ورانا).

قال في نفسه:

(الحمد والشكر لله، هدية من السماء، رفاق سلاح، مقاتلين أشاوس، ومقاتل مبتدئ في بداية الطريق).

ابتسم جيمس وهتف بلهجة حازمة:
(يا وليد هوي، إنت ماشي لي مِهِل دوكمان، أهسن ليك فيهو وجوهنا المبوزة دي).
قطع حبل حديثهم صوت صافرة: (تووووووت.. تتو.. تتو.. تووت)؛ هرولت كل القوة إلى وسط الميدان، تراصت الصفوف:
(طابور.. صفاااااا. انتباااااه.. عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، بدأ العد، واحد اثنين ثلاثة، حكمدارية سرايا - طَقْ.. طق... - حكمدار كتيبة - طق.. طق... - تمام؟ تمام، القائد: صفا.. انتباه.. معتدال مارش.. يمين دور.. قف، شمال دور.. قف، عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، انصراف لتناول وجبة الإفطار).
توالى قدوم الأفواج، الفوج الأول، الفوج الثاني، الفوج الثالث، الفوج الرابع ثم الفوج الخامس، ومن ثم ضاق المكان بساكنين جدد.
حانت ساعة الصفر، عند الساعة السابعة مساء تماما صوتت الصافرة: (تووووووت.. تتو.. تتو.. تووت)، هرولت كل القوة إلى وسط الميدان، تراصت ومعها مهمات وحقائب.
(طابور.. صفاااااا. انتباااااه.. عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، بدأ العد، واحد اثنين ثلاثة، حكمدارية سرايا... - طق.. طق...-، حكمدار كتيبة... - طق.. طق... - تمام؟ تمام، القائد: صفا.. انتباه. استرح، كل الكتائب على الشاحنات).
أسرع في خفة ورشاقة نحو الشاحنة وكلاشا تتدلى من كتفه الأيسر. وحقيبته تتدلى من كتفه الأيمن؛ تحركت الشاحنات في جنح الليل البهيم والحناجر تصدح بالنشيد:
(نحن جند الله، جند الوطن إن دعا داعي الفداء لن نخن نتحدى الموت عند المحن...)

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى، بعد أن غيرت جبنته الفارغة بواحدة ملأى، (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة أربعين فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(٨)

خطـــوط أماميـــــة

يـرى، عـبروا مـدناً وقـرى، قطعـوا سـهولا وفيـافي، الليـل طويـل، زمهريره بارد يلفح الوجوه، طريق الإسفلت مسطح ومستوي، صوت أزيز الشاحنة ذو وتيرة واحدة مملة، توقفت الشاحنات، تعالى صياح وضجيج، رفـع رأسـه مـذعوراً مـن عـلى حقيبتـه الـتي اتخـذها وسـادة ناعمـة، نهـض في كسـل وتـراخ، وقـف مسـتنداً عـلى حديـد صـندوق الشاحنة، شبك يديه خلف ظهره المخدر بوخز إبر مؤلم، تطلع فيما حوله، رأى مكاناً غارقاً في ظلام دامس مخيف، أشجار ضخمة كثيفة تزيد عتمته عتمة، رياح تنوح في الأرجاء، مجاهدون يحملون أمتعتهم ويتراكضون نحو عنابر زنك كبيرة.

جذب نفساً عميقا وقال في نفسه:

(يبدو أننا في المعسكر رقم اثنين).

حمل كلاشا وحقيبته، البرد يعتصره عصراً، جوفه فارغ إلا من دعاء الـذاكرين، دخـل عنـبراً مـن تلـك العنـابر، تمـدد عـلى ثـرى بـارد وسـط أجساد متعبة منهكة راقدة، راح مثلهم في سبات عميق.

ساعته الحيوية تداوم على إيقاظه مع آذان الفجر منذ زمن بعيد، جاءه النداء، ندياً رخيماً ساحرا، تغلغل في وجدانه، ملأ نفسه الحائرة أمناً طمأنينةً وسلاما (الله أكبر الله أكبر... الصلاة خير من النوم...).

مع صوت الصافرة (تـوووووت.. تتو.. تتو.. تووت) هرولت كل القوة إلى وسط الميدان، تراصت صفوف:

(طابور.. صفاااااا. انتباااااه.. عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، بدأ العد، واحد اثنين ثلاثة... حكمدارية سرايا... - طق.. طق... طرق - ، حكمدار كتيبة...- طق.. طق...طرق - تمام؟ تمام، القائد: صفا..

انتباه.. معتدل مارش.. يمين دور.. قف.. شمال دور.. قف.. عمداً سلاح.. جنباً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، انصراف لتناول وجبة الإفطار).

صوتت الصفارة مرةً أخرى.. (تووووووت.. تتو.. تتو.. تووت)، هرولت كل القوة إلى وسط الميدان، تراصت الصفوف:

(طابور.. صفاااااا. انتباااااه.. عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، ويبدأ العد، واحد اثنين ثلاثة.. حكمدارية سرايا.. - طق.. طق...طرق - حكمدار كتيبة.. - طق.. طق...طرق - تمام؟ تمام، القائد: صفا.. انتباه.. استرح، خمسة أفراد من كل فصيلة التحرك نحو مخزن الذخيرة).

تطلعت عيون المقاتلين في لهفة وشوق إلى صناديق خشبية مفتحة أمامهم، جاءهم النداء:

(الصفوف الأمامية على اليمين معتدل مارش.. قف).

وقف في الصف الأمامي على يمين حامد، ابتسم كل منهما ابتسامة عريضة في وجه الآخر، خاطبه حامد قائلاً:

(تأكد يا مستجد النعمة أن البندقية دائماً مؤمنة، عبئ خزنك الأربعة بالذخيرة، ثبت واحدة في البندقية والباقي في الحامل، خذ قدر ما تستطيع من ذخيرة).

رد قائلاً:

(ثلاث خزن كفاية يا أخي).

رد بلهجة واثقة قائلاً:

(يا خوي أحسبها صاح، (الدوشمان) (الكومانج) في الأول والآخر ذخيرة).

أطرق ملياً ثم رد بنبرة شاكرة:

(نصيحتك غالية، أغلى من الدهب يا أخي).

قعقع السلاح في أرجاء المكان، هذا يفك كلاشا، ذاك يحشو خزائنه بذخيرة، أولئك يتبخترون مزهوين مدججين بسلاح.

نهض واقفاً، كلاشا على كتفه الأيسر، مشمعه على كتفه الأيمن، حامل ذخيرته مثبت أسفل صدره تحت متناول يده، باقة مائه وكيس تمره مربوطان في وسطه.

خاطبه حامد مبتسماً:

(أنانيا لو شافوك يولون الدبر).

جاءهما صوت خالد من خلفهما:

(هنا أم درمان، هنا خالد، البلقى الهواء يِظَرِط، من الذي سيولي الدبر هم أم أنتم؟)

صوتت الصافرة مرةً أخرى: (تووووووت.. تتو.. تتو.. تووت)، هرولت كل القوة إلى وسط الميدان، تراصت الصفوف:

(طابور.. صفاااااا. انتباااااه.، عمداً سلاح. أرضاً سلاح.، استرح، ويبدأ العد، واحد اثنين ثلاثة.. حكمدارية سرايا... - طق.. طق...طرق - حكمدار كتيبة.. - طق.. طق...طرق- تمام؟ تمام، القائد: صفا.. انتباه.. استرح، وجبة الغداء.. راحة، التحرك إلى المواقع الأمامية..).

تحركت جماعته نحو مكان تناول الغداء، هناك خاطبهم خالد بلهجته الساخرة قائلاً:

(سامعكم تتفاخرون بأنكم فرقة انتحارية، جوستاف، أنا خائف تطلعوا مرقة دجاج).

رد سالم بلهجة جادة قائلاً:

(لا تعرف في الدنيا شيئا سوى الهزل، أمورك كلها هزل في هزل، كن جاداً يا أخي لمرة واحدة في حياتك).

رد عليهم قائلاً:

(أتركوه يا أخوانا يسلينا شوية، الشجاعة في أن يواجه الإنسان الموت وعلى وجهه ابتسامة رضا).

صاح جيمس بنبرة متوجعة قائلاً:

(بطن بتاعي بِكُورِك، أكل معسكر ده لازم ما عمل معه حاجة كويس).

تحلقوا حول إناء كبير، لا فرق بينه وبين طست غسيل، ملأوا بطوناً خاوية، ثم تمددوا فوق التراب.

صوتت الصافرة مرةً أخرى: (تووووووت.. تتو.. تتو.. تووت)، هرولت كل القوة إلى وسط الميدان، تراصت الصفوف:

(طابور.. صفاااااا.. انتباااااه.. عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، وبدأ العد، واحد اثنين ثلاثة.. حكمدارية سرايا.. - طق.. طق...طرق - حكمدار كتيبة.. - طق.. طق... طرق - تمام؟ تمام، القائد: صفا.. انتباه.. استرح.. التحرك نحو الشاحنات).

خطا نحو الشاحنة في خطوات، لا يعرف كنهها أثابتة أم مرتعشة، ولكنه يعرف أن داخله يموج بهواجس، وساوس، مشاعر، وأحاسيس شتى (حرب، جوع، عطش، سهر، دموع، طعان، رصاص، قنابل، ألغام، دانات محشوة حديد مسامير وأمواس، قذائف صاروخية، صراع بين حق وباطل، بقاء للأقوى، طوفان، جحيم دار عذاب أبدي، جنة دار نعيم سرمدي)، اعتبرها هواجس عارضة ستزول مع الوقت، حاول أن يطردها أو يتناساها ولكنها ظلت عالقةً بقوة في داخله؛ قذف بحقيبته من فوق صندوق الشاحنة، ناول كلاشا لحامد وتسلق، أمسك بسلاحه وبسلاح حامد الذي تسلق من بعده، مد حامد يده ليأخذ سلاحه، نظر فيه ملياً ثم خاطبه قائلاً:

(أحوالك يا أحمد لا تعجبني أبدا).

رد بنبرة مطمئنة قائلاً:

(حالة شعورية عارضة يا أخي، نحن في لحظة حرجة، تفصل بين دارين، دار سلام، ودار حرب).

اكتظ صندوق الشاحنة بالمجاهدين وصدحت حناجرهم بالنشيد:

(نحن جند الله، جند الوطن

إن دعا داعي الفداء لن نخن

نتحدى الموت عند المحن...)

تحركت الشاحنات الواحدة خلف الأخرى، عددها يفوق العشرة، منها شاحنات مدنية صغيرة، كلها تحمل مقاتلين، زادهم، مهماتهم، وذخائرهم، في معيتها ثلاث شاحنات عسكرية تقطر ثلاثة مدافع كبيرة، انضمت إليهم في الطريق ثلاث دبابات، ثلاث راجمات، وثلاث سيارات سريعة عليها رشاشات، جال بعينيه في كل الاتجاهات، النهر الكبير يبدو من بعيد أزرق اللون مثقل بطين وطمي، تنمو على ضفاف شاطئه القريب أعشاب كثيفة مفتحة أزهار بنفسج، وتلوح في الأفق البعيد مرتفعات جبلية داكنة لون، غاب النهر عن الأنظار، بدت غصون ملتفة لأشجار غابات طلح، كتر، وسدر؛ وعندما دخلوا أول غابة من تلك الغابات، سمعوا صفير رياحها، حفيف أجنحة طيورها، فجأةً نزلت مقدمة شاحنتهم في بطن جرف أرضي، تمطى خشبها وحديدها، أصدرا صريراً وأنيناً، تمتم حامد بنبرة مشحونة بإيمان عميق قائلاً:

(يا لطيف، يا لطيف، ألطف، لطفك يا رب، سترك يا رب،عفوك يا رب).

تمايلت الشاحنة يمنةً ويسرى ثم استوت بقدرة قادر على إطاراتها، تنفسوا الصعداء، لم تدم سكينتهم طويلاً، سمعوا دوياً مخيفا، التفتوا

ناحية الصوت، رأوا سحابةً من غبار كثيف فوق الجرف الذي خلفوه وراءهم، وقفت بهم الشاحنة، قفزوا من فوقها، ركضوا نحو الوادي، رأوا ويا هول ما رأوا! رأوا واحدةً من الشاحنات التي تحمل مجاهدين، زاداً، وحقائب ترقد منبطحةً كسلحفاة ميتة وسط الوادي، إطاراتها ما زالت تدور، وصندوقها منكفئ لأسفل، حمل مع حامد واحداً من الجرحى، مدداه وسط جرحى آخرين تحت ظل شجرة ظليلة، ارتوت الأرض من دمائهم، بلغ عددهم ثمانية، تحت شجرة أخرى ممدد جسد بلا روح، رفع الغطاء من على وجهه البارد، تمعن فيه ملياً، انحدرت دموع غزيرة من عينيه، خاطب حامد بنبرة حزينة قائلاً:

(إنه هو، نعم هو، الفتى الذي لم يتجاوز عمره الخمسة عشر ربيعاً، كنت أراه في كل لحظة جمع، يطير كنحلة، يقف كنخلة، يمشي- مشيته العسكرية على هواه، يجري وينط هنا وهناك بطريقة أثارت فضولي وفضول كثير من المجاهدين).

رد حامد قائلاً:

(إنه بطل، بطل الأبطال، لصغر سنه حرموه من الانضمام للفوج، ولكنه تحايل عليهم بشتى السبل، وكان له ما أراد).

أغمض عينيه، سبح في ملكوت سماوي، كله نور في نور، ثم طرقت أذنيه أصوات المجاهدين الذين تجمعوا في المكان:

(سائق هذه الشاحنة المدنية كان متردداً، ما عنده رغبة، مجبور).

(ربنا لطف، لو لم تتوقف بقدرة قادر الشاحنة التي كانت تنطلق من خلفهم بسرعة بطيئة لكانت الخسائر أكبر).

(الأعمار بيد الله، كنت معهم في نفس هذه الشاحنة المنحوسة، وفجأة وبدون سبب تحولت عنها).

(الحمد لله لا تحمل ذخيرة وإلا كانت الخسائر أفدح).

(هذا الوادي مسكون بجن وعفاريت).

(هذه البداية كيف تكون النهاية؟ ربنا يستر).

(نحسبه من الشهداء).

خشعت أصواتهم بالدعاء:

(اللهم أدخله وأدخلنا معه في زمرة الشهداء).

تحركت سيارتان خفيفتان، عادتا بالجرحى والشهيد إلى المعسكر رقم اثنين، تابعت باقي القوة طريقها نحو المواقع الأمامية، خاطب حامد والشاحنة تتأرجح بعنف قائلاً:

(يا حامد القلب أحياناً يرى قبل العين).

(قلب المؤمن دليله).

(هذا الفتى بالذات كانت صورته عالقةً بذهني من دون سائر الفتيان، وهذه الشاحنة بالذات لفتت انتباهي من دون سائر الشاحنات، وسائقها لفت انتباهي من دون سائر السائقين).

(يا صديقي ما زلت أكرر، نحن ننتقل من دار سلام إلى دار حرب، ما علينا إلا أن نعطل عواطفنا إلى أن نعود سالمين إلى ديارنا إن كان في أعامرنا بقية).

(وهل يمكن لإنسان سليم معافى أن يعيش بدون عواطف؟)

(غصبا عنه، لأن دموعاً في غير محلها عبط، هبل، وجنون).

ثم أنشد بصوت عالي:

(نحن جند الله، جند الوطن

إن دعا داعي الفداء لن نخن

نتحدى الموت عند المحن...)

رددت الحناجر الجافة من خلفه مقاطع النشيد، رجّع صداها حفيف أوراق أشجار الغابة، وحلقت نفوس مجاهدة في آفاق بعيدة.

انتابتهم لحظات صمت طويلة، غفا فيها من غفا، نام من نام وملأ وأزعج بشخيره السامعين، إلا هو لم يزل الحدث الكئيب حياً ماثلاً في

داخله، صورة الفتى الشهيد منزوعةً من بطاقته الشخصية ومثبتة بمسامير في عينيه.

بدت هالة سوداء من بعيد غير محددة المعالم، الشاحنات تنهب الأرض نهباً، الهالة تبين وتتضح أكثر وأكثر، أطلت أشجار مانجو عالية ضخمة، وأشجار نيم داكنة الاخضرار، دخلوا قرية من شارعها الرئيس الذي يشطرها شطرين، تتسلق أسوار بيوتها نباتات ليف ولبلاب، تظللها كشماسي أشجار باباي مفلطحة أوراق، توقف متحركهم في الطرف الأبعد للقرية حيث خنادق محفورة وهياكل سيارات محروقة، نزلوا تعانقوا مع مرابطين في ذلك الموقع، تمددوا تحت ظلال الأشجار، دخلوا عشش قش، هجرها ساكنوها فراراً من ويلات حرب لعينة.

تمددوا، حامد، سالم، وجيمس تحت ظل شجرة نيم ضخمة، خاطبهم حامد بلهجة متعبة قائلاً:

(يبدو أن أحمد وخالد ما زالا نائمين داخل صندوق الشاحنة).

رد جيمس قائلاً:

(أحمد ممكن يكون، لكن ولد شقي داك لازم يكون يعمل مصيبه جديدة، ولد مكار).

رد سالم قائلاً:

(خالد المكار لسه ما شاف حاجة، خلاص، الدوشمان يبدأ من هنا، أحسن يعمل حسابه).

لفّهم صمت كئيب، حركوا أطرافهم التي تخشبت من طول الجلوس، رقدوا على ظهورهم تارةً وعلى بطونهم تارةً أخرى، قعودهم غير المريح لفترة طويلة أوقف جريان الدم في عروقهم، وصلّب العصب الذي يحرك عظامهم؛ بعد فترة وجيزة رأوا أحمد قادماً

نحوهم وفي مشيته عرج، جلس وسطهم ثم خاطبهم في نبرة لا تخلو من قرف وبرم قائلاً:

(انظروا في أصابع قدمي اليمنى، أنظروا فيها).

رأوا أظافراً سميكة كأظافر تمساح تخرج من فتحتين كبيرتين في مقدمتي فردتي البووت الذي ينتعله. في هذه اللحظة ظهر خالد، كأنه سقط من السماء، عاط وهو يدخل في ضحكة هستيرية:

(المشكلة يا أخوانا مش في البووت، البووت جديد لنج، ما عنده ذنب، المشكلة في الداخل البووت، مش يقد بووت، يقد ستين ألف بووت، مسكين أنت يا أيها البووت، والله يستر على أخوانك الباقين اللابسنهم جماعة طيبين خطرين).

لأول مرة خرج أحمد من وقاره وصرخ بلهجة لا تخلو من ضيق قائلاً:

(يا جماعة الخير ده جلد غنم ما جلد بووت، البووت التمام لا ينقد ولا يكمل، يلزق فيك لمن تزهق منه، لمن تكره ريحته، تقوم ترميه في أي حتة، نحن لابسين جزم عيال).

رد سالم قائلاً:

(يا أخي عملته بيه كم صفا وكم انتباه؟ شُته بيه كم حجر؟ خلاص كفاه).

هب واقفاً وخاطبهم بلهجة حازمة قائلاً:

(قسماً عظماً لن يتبعني ثاني أبدا، هو بي درب وأنا بي درب).

قذف به بعيداً، قهقه باقي الجماعة كالمجانين، خرج صوت أحدهم قائلاً:

(طول بالك يا أبو حميد، زهجان وقرفان ليه؟ ما ذنب البووت الذي جناه، هذا ما جنيته على نفسك وليس ما جناه عليك بووتك).

خرج صوت آخر قائلاً:

(أها رأيك شنو تمشي. حفيان ولا تعمل سطو مسلح على أكياس مهمات؟)

رد بلهجة حاسمة وهو يهرول نحو شاحنتهم قائلاً:

(أصبروا شوية، أبو عيون كحيلة، دقائق قليلة فارقني وفات).

تسلق صندوق الشاحنة على عجل، بحث عن حقيبته بين حقائب مبعثرة متراكمة بدون نظام فوق بعضها البعض، عثر عليها بصعوبة، انتزع (الدُخري) من داخلها، أدخل قدميه في فردتيه وخاطبه قائلاً:

(جاء يومك يا دخرينا، خاتيناك لليوم الأسود، واليوم الأسود جاء خلاص، يلا ورينا فنونك، يا الوحيد في سماكة جلدك وقباحة لونك).

قفز من فوق صندوق الشاحنة في نشاط لم يألفه في نفسه من قبل، عاد وانضم إلى رفاقه، خاطبهم في نبرة لا تخلو من زهو وانتصار قائلا:

(أنظروا، أملوا عيونكم في (دُخرينا)، بُووت ولا أي بُووت، يدونا جزمة (باتا) رهيفة ويقولوا لينا بووت، متعوا نظركم فيه، بس الله يكفيه عيون الحاسدين، وعين الحسود الله يقدها بالعود).

رد سالم بنبرة مازحة قائلاً:

(نحن خائفين دُخريك يطلع بسبوسة، يطلع كلام فارغ).

رد بنبرة واثقة قائلاً:

(لا تسبقوا الأحداث، دخرينا موجود، وأي كلام فارغ يا فارغين بدون فهم قلتوه محفوظ، نشوف بعدين من يوطئ رأسه من الخجل)

تناهت إلى مسامعهم قهقهة خالد الغجرية الذي غادرهم خلسة، أقبل نحوهم وفي يده خمس أرغفة، نظر في وجوههم، خاطبهم بابتسامة خبيثة قائلاً:

(لمحت من بعيد حرباء تتسلق الشاحنة، تابعتها ورصدتها، تمكنت في النهاية من تحديد إحداثيات موقعها بالضبط، وعشان أنتم مساكين حقوقكم ضائعة جبت ليكم شوية تموين يسد جوعكم).

أدخل حامد مسبحته في جيب سترته، تمتم بكلمات غير مفهومة ثم رد بنبرة هادئة قائلاً:

(اتفقنا يا خالد منذ البداية أن نكون سوى، ولكنك دائماً تفارق الجماعة وتتصرف كبعشوم، أعمل حسابك بعشوم بعيد من القطيع ما يساوي أي حاجة، غنم تبهدله).

خاطبه سالم ويده ممدودة لتمسك بواحدة من الأرغفة قائلاً:

(زودنا بالأخبار يا أبو الأخبار).

اتبسم تنحنح ورد بنبرة لا تخلو من ازدهاء وخيلاء قائلاً:

(إحيم إحييم، أول هام السيارة المحروقة دي قام فيها لغم، نفر مات، نفر رجله راحت، ثاني هام ساعتان فقط تفصلكم عن الخطوط الأمامية، خطوط النار محل الدوشمان - حدج جيمس بنظرة خبيثة - أوعه يكون بينا ناس كابتن ماجد، وثالث هام...)

قبل أن يكمل بقية حديثه صوتت الصافرة مرةً أخرى: (تووووووت.. تتو.. تتو.. تووت)، هرولت كل القوة، وقفت أمام الشاحنات، تراصت الصفوف:

(طابور.. صفاااااااا. انتباااااااه.. عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، ويبدأ العد، واحد اثنين ثلاثة.. حكمدارية سرايا.. - طق.. طق...طرق - حكمدار كتيبة.. - طق.. طق...طرق- تمام؟ تمام، القائد: صفا.. انتباه.. استرح، مساعدين.. إعادة تقسيم الكتائب والفصائل حسب نوع الضرب بالسلاح.. الاندماج لاحقاً في كتائب الصندوق القتالي المتمركز في الخطوط الأمامية.. المبيت الليلة هنا.. التحرك في الصباح الباكر.. صفا.. انتباه.. انصراف).

توارى قرص الشمس وراء الأشجار، زحف الظلام رويداً رويدا وغطى كل المكان، افترش مشمعه وتدثر ببطانية الصوف، كلما اشتد الزمهرير أكثر ازداد التصاقه بأعواد وقش الراكوبة أكثر؛ سرت سخونة في أصابع قدمه اليمني، حركها، اصطدمت بجسد يرقد لصقها، سمع أنيناً خافتاً وسعالاً متواصلاً، نهض واقفاً، دنا منه، انحنى فوقه، هز كتفه برفق، خاطبه قائلاً:

(يا أخي تبدو عليك أعراض نزلة شديدة، هل تناولت علاجاً أم أعطيك فصاً من القرض الذي لا يفارقني أبداً؟).

رد في صوت متكسر متهدج وسط نوبة سعال متواصلة:

(شكراً يا أخي أخذت كفايتي من الدواء).

رد قائلاً:

(تغطي يا أخي جيداً، حافظ على نفسك).

بلل منديله بالماء، فرده فوق رأسه ليخفض من درجة حرارة جسمه، خرج صوته ضعيفاً مبحوحاً:

(بارك الله فيك يا أخي).

عاد إلي مكانه، رقد على جنبه الأيمن كعادته دائماً، افترش التراب وتغطى بالبطانية، كور جسمه لأنه طويل والبطانية قصيرة، راح في سبات عميق.

مع الفجر ومع تباشير الصباح سمع صوت نداء الآذان، تفقد المريض، جس درجة حرارة وجهه براحة يده ثم خاطبه قائلاً:

(كيف أصبحت يا أخي؟)

أجاب باقتضاب:

(الحمد لله أحسن حالاً).

توضآ، وقفا متلاصقين الرجل مع الرجل، والكتف مع الكتف، أديا صلاة الفجر جماعة، أمسك كل منهما بمسبحته، سبحا، كبرا، وحمدا الله خالق الوجود.

خاطبه قائلاً:

(اسمي أحمد أعمل فكهاني في سوق الملجة).

رد قائلاً:

(اسمي عبد الله، طالب جامعي، معي كثير من زملائي هنا، سوف أعرفك بهم إن شاء الله).

رد قائلاً:

(الجايات أكثر من الرايحات، معرفة الرجال كنز، وربنا يكتب لينا عافية، سلامة، ونصر).

صوتت الصافرة مرةً أخرى: (تووووووت.. تتو.. تتو.. تووت)، هرولت كل القوة وقفت أمام الشاحنات، تراصت الصفوف:

(طابور.. صفاااااا.. انتباااااه.. عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، ويبدأ العد، واحد.. اثنين.. ثلاثة، حكمدارية سرايا - طق.. طق...طرق - حكمدار كتيبة - طق.. طق...طرق - تمام؟ تمام، القائد: صفا.. انتباه.. استرح.. التحرك نحو الشاحنات.. انصراف).

ضم صندوق الشاحنة نفس الوجوه مرةً أخرى بلا زيادة أو نقصان، تحركت الشاحنات وصدحت الحناجر بالنشيد:

(نحن جند الله، جند الوطن
إن دعا داعي الفداء لن نخن
نتحدى الموت عند المحن...)

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة خمسة وأربعين فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(٩)

عـــــــــودة

يرى، تيارات هواء الصباح البارد تنعش نفوس المقاتلين، تملؤها بهجةً، حبوراً، ونشاطا، ازداد اندفاع الهواء من الجهة المعاكسة مع تزايد سرعة الشاحنة، رمشت عيونهم، احمرت، ضعفت قدرتها على النظر، انزووا داخل صندوقها، تثاءب سالم وسألهم قائلاً:

(كيف مضت ليلتكم الفائتة؟)

رد باقتضاب بنبرة متعبة:

(على خير).

رد سالم بحزن:

(أنتم محظوظون، نحن زارتنا عقرب، قرصت أحدنا، طيرت النوم من عيونا).

رد خالد بنبرته الساخرة المعهودة:

(العقرب داهمكم يا أيها غجر، أم أنتم داهمتموه في جحره؟)

رد سالم بنبرة فيها بقية من نعاس:

(طيب إنت يا تيس الغجر، نحن مش ضيوف على العقرب، وإكرام الضيف واجب).

رد حامد مبتسما:

(الظاهر أنكم مع التعب الشديد نسيتم الأدعية المنجية من كل هامة، سامة، ولامة).

نأى عنهم ببصره، بفكره، وأحاسيسه، مد بصره في آفاق بعيدة، حدق في شفق الصباح، في ألوانه الصفراء الذهبية البهية، في قرص الشمس لحظة ظهور أطرافه، قلبه سبح ومجد الخالق الذي أوجد هذا الكون الرائع الجميل، مع تمدد خيوط ضوء أشعة الشمس

فيوض من نور غمرت حناياه، فكره اصطرعت فيه صور شتى (شاحنة مقلوبة، سيارة دمرها لغم أرضي، دماء، جراح، آلام، موت، كل حفرة تقول تحتي لغم، كل شجرة تقول خلفي قناص، كل واد يقول عبوري فيه هلاك، يا الله، هذي جهنم الدنيا فكيف بجهنم الآخرة؟).

مروا على فيافي وبراري لا فيها راع يرعى غنماً ولا مسافر يرقب قبة السماء ليستهدي بنجومها، وعلى قرى بيوتها متناثرة مهجورة، تزمجر فيها الريح، تملؤها تراباً وغباراً، تبعثر قشها وأعوادها في الأرجاء، لا ديك فيها يصيح ولا حمار فيها ينهق، ثم بدت لهم غابة ملتفة من شجر طلح، أرسل بصره إلى أعالي أغصان جرداء، لا فيها أوراق ولا أزهار، رأى كريات صمغ تتوهج وتتلألأ كبلور مع ضوء الشمس، فاح عطر الاشتهاء من لسانه، رجع بذاكرته إلى أيام خلت، بواكير صباه، كانوا يسرقون السكر خلسة من مخزن داخلية مدرسة ود البولاد، يذهبون إلى الخلاء الرحب حيث تنمو أشجار جنائن هشاب، يتخيرون (كعاكيل) صمغ كبيرة الحجم، يحفرونها بأصابعهم من الداخل، يملؤونها بحبات سكر، يلمظونها في غبطة وجذل، ثم يمسحون على شفاههم التي يبسها رحيق الصمغ، يدخلون سباباتهم في أفواههم ليخرطوا لماظات علقت بأسنانهم ولثاتهم، وحين يأخذ العطش والتعب منهم كل مأخذ يعودون أدراجهم قبل غروب الشمس خلسة إلى عنابر داخليتهم.

فوقته من خواطره أصوات صرير مكابح سيارات، شاحنات، ومجنزرات المتحرك وهي تتوقف فجأة ثم تواصل سيرها، دفعه ذلك لأن يدقق النظر فيما حوله، رأى مجموعة من بيوت وعشش قش وقد تحولت إلى فحم وهِباب، ومجنزرة محروقة بالكامل تسد طرفاً من طريق متعرج، دلته هذه الشواهد على أن الرحلة ربما أوشكت على بلوغ منتهاها، بعد فترة وجيزة سمع صوت تكبيرات:

(الله أكبر.. الله أكبر.....الله أكبر).

وصوت مقاطع نشيدهم المحبوب:

(نحن جند الله، جند الوطن

إن دعا داعي الفداء لن نخن

نتحدى الموت عند المحن...)

انخفض الصوت، ثم علا، ثم تصاعد إلى عنان السماء، قفزوا من فوق صناديق الشاحنات، تعانقوا مع إخوة لهم مرابطين، تعانقوا في محبة صادقة، الصدور التحمت بالصدور، القلوب امتزجت في القلوب، الأكف ضربت كالمطارق على الكتف، تحول المكان إلى مهرجان فرح، إلى باقات ورد، إلى بيوت من أعذب الشعر، إلى سيمفونية لم يعزفها موسيقار من قبل، إلى نجاة من بعد غرق، إلى نصر من بعد بوادر هزيمة، وإلى حياة من بعد دبيب موت.

صوتت الصافرة.. (تووووووت.. تتو.. تتو.. تووت)، هرولت كل القوة، وقفت أمام الشاحنات، تراصت الصفوف:

(طابور.. صفاااااا. انتباااااه.. عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، ويبدأ العد، واحد.. اثنين.. ثلاثة... حكمدارية سرايا.. - طق.. طق...طرق - حكمدار كتيبة.. - طق.. طق...طرق - تمام؟ تمام، القائد: صفا.. انتباه.. استرح، مساعدين الكشوف جاهزة.. كل القوة الاندماج في قوات الموقع.. صفاه.. انتباه.. استرح، واحد.. اثنين.. ثلاثة.. سبعة عشر.. الانضمام إلى كتيبة بروندي: صفا.. انتباه.. عمداً سلاح.. على اليمين معتدل مارش).

شملت القوة المختارة للانضمام إلى كتيبة بروندي أفراد الجماعة الخمسة، جاءتهم الأوامر:

(معتدل مارش.. قف.. من واحد إلى ستة عشر على اليمين معتدل مارش.. قف، من واحد إلى خمسة عشر على اليمين

معتدل مارش.. قف، واحد على اليمين معتدل مارش.. قف، كل واحد يحفر خندقه بين الخندقين المحفورين قصاده.. انصراف).

مالت الشمس نحو المغيب، تمددت الظلال ببطء تحت الأشجار، نظر مشدوهاً إلى صف من خنادق محفورة على هيئة قوس، حول نظره عنها إلى شجرة تبلدي ضخمة تقف أمامه على بعد مئتي متر، لا تختلف عن شجرة أرز عمرت لمئات السنين، خلفها شريط من أشجار عُشَر ودوم ممتدة بلا نهاية، امتد بصره إلى أفق بعيد، إلى غابات طلح أحمر لونه عجيب، متدرج بين أصفر وبني، مد يده صافح مقاتلاً كان جالساً خلف رشاشه داخل خندقه، سأله قائلاً:

(كم مضى لكم من الوقت وأنتم هنا؟)

رد قائلا:

(ثلاثة أيام فقط).

سأله مرة ثانية:

(والعدو مشى وين؟)

رد قائلاً:

(عمل أجنحة وطار، مشى لي ناس البي بي سي، ليدبجوا له أخباراً مُفبركة).

أتاه صوت حامد وهو ينادي عليه:

(تعال يا أحمد معدات الحفر موجودة هنا، حفار، كوريك، طوريه، عتلة، وفأس).

صافح مقاتلين متخندقين داخل خنادقهم وهو في طريقه إلى حامد، ولما رأى سالم يحفر في همة ونشاط خاطبه بنبرة فرحة قائلاً:

(ما شاء الله على الشباب، قوة فتوة، اللهم زيد وبارك).

رد بصوت خافت قائلاً:

(استعجل أعمل حسابك الظلام قرب).

خرج صوت من خندق قريب، خاطبهما بلهجة آمرة قائلاً:

(اعملوا حسابكم يا مستجدين هوي، بعد مغيب الشمس الحركة ممنوعة، كل واحد يقعد زي الفأر داخل خندقه، التدخين ممنوع، أي ضوء ممنوع، إشعال الكبريت ممنوع، النار ممنوعة).

أجابه قائلاً:

(شكراً يا جنابو نورتنا الله ينور قلبك وبيتك).

حمل حفاراً وكوريكاً، جرجر رجليه، مشى- نحو قطعة أرضه الجديدة التي لا تحتاج إلى صك ملكية من سلطات، مساحتها الكلية تبلغ ثلاثة أمتار في متر ونصف، على قدر مساحة القبر بالضبط، نظفها من حجارة وأعشاب، استلقي على ظهره فوقها ومدد رجليه قدر ما يستطيع، نهض، حدد الأبعاد المطلوبة، حمل الحفار، حفر طبقة طينية إلى عمق ثلاثة أقدام، كوم الطين وجعله ساتراً، فرش مشمعه ووضع كلاشا فوقه والبطانية عند موضع قدميه، لهث لهاثاً متواصلاً، بعد أن هدأ قليلاً وتنفس الصعداء جلس داخل خندقه، خلع بزته العسكرية نفض عنها غباراً وتراباً ثم قام بارتدائها مرةً أخرى.

أتاه صوت مقاتل من الخندق جهة يمينه قائلاً:

(أنا اسمي رابح، اسمك منو؟ لازم تكون شبعته تعب وسهر، الله يكون في عونك، شد حيلك، القعدة هنا حارة، إن ما قويت قلبك، حرم تفك البيرق).

رد قائلاً:

(أنا اسمي أحمد، خرجنا من بيوتنا من أجل عازة، والتعب والسهر عليها ما كتير أبدا، ونسأل ربنا الثبات).

رد بنبرة لا تخلو من إحساس براحة قائلاً:

(جيتكم لينا فرحتنا وريحتنا، زادتنا قوة وثبات ومنعة، والزول ما بموت قبال يومه، لذلك ربنا يكفينا شر موتة البعير).

رد قائلاً:

(البلـد كلهـا واقفـة معكـم، شـدوا حـيلكم، المقـاتلين والمجاهـدين التركناهم ورانا كثيرين، أعدادهم لا يعلمها إلا الله).
رد قائلاً:
(خدوا راحتكم، بعد هذه الليلة ما في ليكم راحة).
تمـدد مـرة أخـرى عـلى فراشـه الـوثير، نظـر متعجباً إلى سـاق شـجرة هجليج تبعـد عنـه مسـافة أربعـة أمتـار، زاد عجبـه أكـثر لمـا نظـر إلى خنـدق محفـور تحتهـا، بعـد قليـل لمـح مقـاتلاً مسـتنداً بظهـره عـلى جـذعها ملامحـه غـير بائنـة، ثـم لمـح ثلاثـة مقـاتلين آخـرين يمشـون نحوه، وقفوا بجانبه، خرج صوت أجش قائلاً:
(الثلاث جماعات من المقاتلين خدمتهم الليلة كالعادة، (ديدبان) كل سـاعتين مـن السـاعة السادسـة مسـاءً إلى السـاعة السادسـة صـباحاً، المجاهدين في الراحة).
سأل رابح بصوت خفيض قائلاً:
(من ذلك الذي يصدر الأوامر ومن هم الذين معه؟)
أجابه بلهجة لا تخلو من عدم رضا قائلاً:
(إنـه الشـيطان عـادل رقيـب أول الفصـيلة يصـدر تعليماتـه للرقبـاء، السـمين القصـير الأهبـل ده اسـمه عمـاد، الطويـل العـوير ده اسـمه خليفة، المحترم الواقف في نصهم ده اسمه جادين).

صمت لبرهة ثم استطرد قائلاً:
(أعمل حسابك الرقيب عماد ماشي علينا عشان يملانا تعليمات).
جذب بطانيته الصوف من طرفها، غطى جسده كله تاركاً وجهه للهواء الطلق، ملأ صدره وخياشيمه برائحة الطين، سرعان ما دب النوم في بدنه المتعب المنهك.
أطل وجه الصبح المشرق، زفه للكون آذان صلاة الفجر الساحر الجميل، غرس في قلوب المقاتلين إحساساً بعظمة الله خالق الوجود، جمعت الصلاة بين مجاهدين ومقاتلين، جلس بالقرب من حامد الذي كان ممسكاً بمصحفه الصغير، يتمايل في لذة لا يعرف سرها إلا العارفون.
تمتم حامد بنبرة لا تخلو من شعور بطمأنينة قائلاً:
(صدق الله العظيم، من كان في معية الله فهو حسبه).
وضع مصحفه في جيب سترته، التفت نحوه، خاطبه قائلاً:
(أشعر يا أخي أننا في عالم آخر، عالم يفيض سناً ونور).
أطرق وهو يحدق في الثرى، ثم أجاب قائلاً:
(حالتي الشعورية يا أخي لا يعلمها إلا الله، منذ أن تحركنا وإلى أن استقر بنا المقام هنا وأحوالي النفسية في استقرار عجيب، إني في حالة انسجام تام مع خالقي، مع وجودي، مع الناس، ومع نفسي، إني أشعر بنشوة روحية غامرة).
رد قائلاً:
(بإذن الله ما دام نياتنا خالصة، ونفوسنا راضية، فإن جهادنا مقبول مقبول).
تعالت أصوات من تحت أغصان شجرة هجليج قريبة منهما، حجبت شجيرات وأعشاب كثيفة صفراء اللون، رؤية ما يجري في أسفلها:
(يلا يا مقاتلين شاي الصباح جاهز).

نهضا، أخرج كل منهما كوبه البلاستيك من داخل خندقه، زاحما مع متدافعين، عبيا كوبيهما بشاي حليب، جلسا على طرفي خندقيهما يرشفان بمزاج رائق، جذب انتباهه منظر غريب، ندت منه صرخة:
(هل ترى ما أرى يا حامد؟)
رد مذهولاً:
(وماذا ترى؟)
(الطين يزحف كمد البحر في مشمعي، وبطانيتي، وكل أشيائي).
قهقه حامد عاليا ثم قال:
(أنظر يا أخي إلى جذوع الأشجار من حولنا أليست يكسوها طين أحمر؟)
(نعم).
(إنها دابة الأرض التي أكلت منسأة سيدنا سليمان (الأرضة)، هذه هي بيوتها، ولذلك الناس هنا خوفاً منها يبنون بيوتهم فوق قوائم ودعامات من أعمدة الشجر).
تمتم مسبحا:
(سبحان المصور الخالق عجائبه في خلقه لا تحصى ولا تعد، كل يوم نكتشف عجيبة جديدة).
صوتت الصافرة.. (تووووووت.. تتو.. تتو.. تووت)، هرولت كل القوة وقفت وسط الميدان، تراصت الصفوف:
(طابور.. صفاااااا.. انتباااااه.. عمداً سلاح.. أرضاً سلاح.. استرح، ويبدأ العد، واحد.. اثنين.. ثلاثة.. حكمدارية سرايا.. - طق.. طق...طرق - حكمدار كتيبة.. - طق.. طق...طرق - تمام؟ تمام، القائد: صفا.. انتباه.. استرح).
مشهد صباحي مهيب رائع، المقدم، الرواد، الملازمون، المساعدون، الرقباء، صفوف المقاتلين والمجاهدين، وقفوا كبنيان مرصوص، وصدحت الحناجر بالنشيد:

(نحن جند الله، جند الوطن
إن دعا داعي الفداء لن نخن
نتحدى الموت عند المحن...)

تسمرت أنظارهم في المقدم، خرجت كلماته قويةً مدوية مؤثرة، تردد صداها فوق أشجار، بين أعشاب، وبين حجارة، صعد معانقا عنان السماء:

(أنتم هنا على خطوط النار الأمامية.. جئتم بمحض إرادتكم.. دفعكم لبذل غالي ونفيس إيمانكم بدينكم وإحساسكم بانتمائكم لوطنكم.. جئتم لترفعوا رايات عزة وكرامة،عاليةً خفاقةً، رغماً عن كل أراجيف، مؤامرات، دسائس، فتن؛ إنكم تسابقون إلى العلياء بقلوب ثابتة لا تعرف خوفاً، هلعاً، ولا جزعا، بعيون حمراء تقدح شرراً، بجباه عالية، لا تخشون ولا تهابون الموت، لأن موتكم عزة، شهادة، وحياة، وموتهم ذل، هوان، وخسران؛ إنكم إخوة متحابون في الله والوطن، صفوفكم متراصة، كتف لصق كتف، ساعد زند ساعد، صدر ترس صدر؛ ثقوا في قادتكم الميدانيين، إنهم حريصون على وضع خطط عسكرية كفيلة بتحقيق النصر- بأقل خسائر، لا تستعجلوا ملاقاة العدو، الأمور كلها موزونة بموازين ومحسوبة بحسابات دقيقة، أصبروا، صابروا، واحتسبوا؛ أكرر ثانيةً، هدفنا الأول والأخير هو تحقيق النصر- على العدو بأقل خسائر؛ أختم كلامي لكم بكلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان، إما نصر وإما شهادة).

كبرت الحناجر: (الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر...).

وصدحت بالنشيد:
(نحن جند الله، جند الوطن
إن دعا داعي الفداء لن نخن
نتحدى الموت عند المحن...)

ردد صباح ندي، طير، أشجار، طين، أرض، سماء، كل الوجود معهم نشيدهم السلس العذب.

مياه نيل زرقاء اللون تفصل بين مُتَحرِكين، متحركهم من الضفة الغربية ومتحرك ثاني موازي له من الضفة الشرقية، لا يعلم وجود رابط بينهما من عدمه، فهو بندقجي نفر ومثل هذه الأمور من شأن قيادة عليا، تأتيهم بوضوح أصوات أسلحة خفيفة، متوسطة، وثقيلة من وراء النهر من الجهة المقابلة، أخبار المعارك هناك تأتيهم متقطعة، كلها انتصارات في انتصارات ربما رفعا للمعنويات، دخلوا معركتين خفيفتين، خرجوا منهما بخسائر طفيفة لا تذكر، ولكنهم نجحوا في تحقيق عديد من المكاسب، شلوا حركة العدو، أوقفوا تقدمه تماما بعد أن كان مهاجماً انقلب مدافعاً.

بعوض، أرضة، أنواع أخرى من حشرات الأرض، ثعابين، وعقارب، تنزل من سلاسل جبلية، تمرح على هواها في أرجاء المكان الممتد بينها والنهر والغابات الكثيفة، سمع المقاتلين يقولون:

(كل مصائب الدنيا مقدور عليها إلا هذا البعوض الخبيث).

بالفعل كان على موعد مع ملاريا لعينة عجيبة، لم تنفع معها راحة، لا أقراص، ولا حقن، جعلته بين عاقل ومجنون، وبين حي وميت، أرسلوه على عجل للمشفى العسكري بالمدينة، خمسة أيام وحمى ملاريا خبيثة تفتت خلايا رأسه، قضاها وهو فاقد للوعي، خضع فيها لعلاج مكثف، حقن كينين بالوريد ومحاليل ومسكنات، في اليوم السادس جرّ نفسه شوية، فتح شوية، طلع لبر الأمان، سمع أصواتاً تقول:

(الحي والله ما بموت، الزول ده جهزنا كفنه، بحثنا عن عناوين أهله).

صور باهتة تراقصت أمام عينيه، بصعوبة ميز بينها، (أحبابه، أمه، حبيبته سعيدة، أولاده محمد وأخواته، النخلة، أفراد الشلة النائر وأصحابه)؛ قضى شهراً كاملا بمشفاه تحت مراقبة وعلاج مُرَكَز، رأى من المناظر ما تشيب له رؤوس الولدان، رأى ما تفعله الألغام الأرضية أفخخ الموت في البشر، أطرافاً مقطعة، لحماً آدمياً ممزق، عظاماً مفتتة، أمخاخاً مرتجه، رأى سيارات إسعاف تحمل جثثاً إلى خارج المشفى، رأى شباباً في مقتبل العمر ذهبت عقولهم من هول ما لاقوا، يتحدثون مع أنفسهم، يأتون بحركات بهلوانية، يمشون على غير هدى، يعالجون بحقن مسكنة، ومن تسوء حالته منهم يحول إلى مشفى آخر؛ استنشق روائح صديد، سمع أنات وعياط جرحى وهم يتعذبون من ألم كحت وتنظيف جروح، رأى لفائفاً قطنية غيرت دماء بشرية متجلطة لونها إلى أسود ونعومتها إلى بلاستيك؛ وهو في هذا الضيق من الحال كتب رسالة، بعث بها إلى النائر يرجوه فيها أن يبلغ سلامه إلى أهله، ويطلب منهم أن يسامحوه ويصفحوا عنه ويدعوا له بالتوفيق والسلامة، وأن عودته إليهم وشيكة بإذن الله.

بلغ الصحة والعافية، خرج من المشفى إلى مطار عسكري صغير طرف المدينة تم إلحاقه به ليُكْمِل ما بقي له من فترة مداها ستة أشهر، يحوط المطار ترس ترابي عالي من جهة الخلاء، الخدمة نفس الخدمة، المهام نفس المهام، الخنادق نفس الخنادق، ولكن هنا العيون مفتوحة ليل نهار، طائرات هيلكوبتر تهبط وأخرى تقلع، دائرة الخطر أكبر وأوسع، الحيطة والحذر أوجب من الواجب.

أيامه الأخيرة مرت بسرعة غريبة، في ليلة حالكة الظلام وهو ممسك بكلاشا داخل خندقه تملكه شعور قوي في تلك اللحظة بأن الدُخري أصابه داء من أدواء الأحذية، ثقل وزنه، حل وثاقه، أفرغ طيناً وتراباً من جوفه، مسح بلطف على جلده، وضعه برفق على

حافة تراب الخندق، نزع جواربه واسند ظهره على حافته، رائحة الدخري والجوارب أصبحت لا تطاق، أبعدهما قليلاً عنه وطفق يتطلع في نجوم السماء التي بدأت في التلألؤ.

حدق فيه بمشاعر مزيج من دهشة، ألفة، ونفور، اشتم فيه تركيبةً فريدةً من روائح جاذبة ومنفرة، صاحبه الوفي، أمامه بلا حول ولا قوة، يرقد كجثة هامدة تستدر عطفه ورثاءه، إنه يذكره بشوارع وأزقة، حفر وبالوعات، رمال، طين، حصباء، وحجارة، روث حمير وفضلات بشر، قطعاها وداسا عليها معاً، وبنفس القدر كان الدخري يرمقه بنظرات كسيرة، مغزاها ودلالاتها تقول:

(يا تُرى هل ستمضي بنا الأيام معاً إلى النهاية، مع وحدة المصير، ووحدة الهدف، أم مصيري نبذ في عراء؟ أم سنظل معاً، رمزاً من رموز وفاء؟)

ردد في نفسه:

(يا دخرينا أنت لست حذاءً فرعونياً تستحق مقبرةً مزينةً برسومات، ولست حذاءً ملوكياً تحلم بأن يقتنيك متحف أو ثري من الأثرياء، ولست منحوساً كحذاء الطنبوري لا تجر إلا المصائب، ولكن في إمكاني أن أعدك بواحدة، أن تبقى ذكراك حيةً في أذهان الناس على مر الأيام وكر الدهور، أخلدك بملحمة، عميقة المعاني، مقطعها الأول يقول:

يا ديار عازة افرحي   بي دُخرينا العزيز
لما يَقْدِل لا فاضي لي   عمدة لا دوق لا مركيز
يستحق عدة تماثيل   وصور داخل براويز
بطل من بين أبطال   شالوا دوشكا وعكاكيز
عَمَرَ عُمراً طويلاً   يتمناه كهول وعواجيز

حفر حفرة عميقة طمره فيها وهو ينظر إليه بعينين تحملان ألم فراق، وألم عُشرَة لا ينساها إلا قليل أصل، انتهت نوبته، جاء بديله، مشى حافيا إلى عشتهم.

أيام قليلة وجاء يوم الفراق الأكبر، سلم كلاشا والمهمات، استلم إذن التحرك، غادر المعسكر بعد أن ودع الجميع، الأستاذ عبد المجيد، مدير مدرسة، تركها وجاء إلى الخطوط الأمامية، أنور، مصرفي، ترك مصرفه وجاء ليدفع ضريبة الوطن، بهاء، طالب جامعي، ترك قاعات محاضراته ومكتبته وجاء ليسجل اسمه في سجل الأبطال الذين يلبون الداعي في أوقات الشدة، نمر، غاوي متحركات، ما سمع بمتحرك إلا وانضم إليه، ودعهم وداعاً يجل عن الوصف، وداع أرواح سمت فوق كل شيء، أرواح حلقت وحلقت ما شاء الله لها أن تحلق، أرواح ما عادت تحفل بطين أو مادة، تمنى لهم نصراً، تمكيناً، وحفظاً من رب العالمين، ومن ثم انْفَتِح على مصراعيه باب شوق كبير، حنين، وهيام لأهل، وأحباب، وصحاب.

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة خمسين فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع،

جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(١٠)

بشـــــــريات

يرى، ذهب إلى ساحات الفداء بغير ميعاد، وعاد منها كذلك بغير ميعاد، لم يصدق أهل بيته عيونهم لما رأوه، عرفوا الحقيقة المرة في نهاية الأمر، عرفوها من النائر، لم يَسْقِها لهم جرعةً واحدة، وإنما نقطة من بعد نقطة، عملاً بالوصية التي أوصاها له، وما كان لهم إلا خضوع لأمر واقع، يعلمون تمام العلم أن الذين ذهبوا إلى هناك، إما أن يستشهدون وتأتي أخبارهم بعد فترة طويلة، أو يقعون في الأسر وهؤلاء قصتهم أطول، أو يُفْقدَون وهؤلاء يظل أهلهم معلقين بين يأس ورجاء، أو جرحى فيكونون نزلاء مشافي لأشهر طوال، أو يعودون، منهم صاغ سليم، ومنهم معطوب يعيش باقي حياته بعاهة مستديمة، ومنهم من في عقله لوثة يعيش بها أبدا في عالم المجانين، وعلى أية حال فإنهم يعودون عودة الأبطال؛ خرجت زغرودة لا إرادية من حاجة بتولة عبرت بها عن فرحتها بقدوم فلذة كبدها، جفى النوم عينيها منذ رحيله عنها، ظلت مواظبةً على الدعاء له بالحفظ والصون عند كل صلاة، كل غفوة، وكل صحوة؛ أما سعيدة تدحرجت دمعات الفرح من مقلتيها الجميلتين، خضبت وجنتيها اللتان لم تعرفا رفة ابتسامة منذ غيابه، محمد وأخواته التصقوا به، تمرغوا في جلده، استنشقوا عطر أنفاسه، نهلوا ما شاءوا من نور عينيه، مزجوا أرواحهم في روحه؛ الزغرودة نبهت الجيران، اقبلوا يستجلون الخبر، فرحوا فرحاً غامراً لعودته، لأن بعض الذين ذهبوا قبله من أهل الحي لم يعودوا أبداً، ولم يروا لهم نعوشاً، نظر ملياً في وجه محمد خاطبه بنبرة حنونة قائلاً:

(شعر رأسك طال أكثر من اللازم، الحلاقة غداً بعد الفطور، قبل ما تجي جيب موس جديد من الدكان، لا تنس بعدها أن تجمع شعرك وتدفنه تحت النخلة، عود إليه بعد ثلاثة أيام، تجده بإذن الله صار طيراً جميلاً يغرد فوقها).

خاطبوه في بلهجة معاتبة قائلين:

(تدس أخبارك منا، لا نعرفها إلا من النائر).

رد بنبرة ودودة قائلاً:

(ده نوع من الفطنة، ده سر المهنة، التجارة أسرار، ودي تجارة مع الله سبحانه وتعالى، يعني كده وروني المخارجة من الورطة دي كان تكون كيف).

في اليوم التالي بعد أن فرغ من الحلاقة، توكل على الله وتوجه نحو الملجة، فَرِح أهلها بعودته فرحاً عظيماً، عانقوه في حرارة، عدوه بطلا من الأبطال، لأن في نظرهم التجار أهل دنيا، لا يحسنون صنعا سوى جمع المال، سأله ود فنقوق بلهجته الساخرة قائلاً:

(يا خوي جيت كيف، ما قالوا البمشي لي هناك ما هُو راجع تاني؟).

رد مبتسما قائلاً:

(أها هسي أنا واقف قدامك، شائف في وشي ضربة ولا شختة).

توالت أسئلتهم وأجوبته:

(ما قالوا الخوارج عندهم كيماوي ما بخلي البُنْدُق تضرب؟)

(يمكن عندهم، لكن أنا ما شُفْتَه حاجة زي دي، والله أعلم).

(ما قالوا في خواجات كثيرين يحاربون معهم؟)

(أنا ما شفتهم، لكن قطع شك موجودين، الخواجات ديل عيال حرام، وود الحرام زي ود المويه ما تقدر تمسكه، ربنا ما كاتب لينا معهم راحة، ديل خرابين عامرة، يدوهم السلاح، ويِتَكْتِكوا ليهم، ويتكلموا بلسانهم).

(الكاسحين منو، نحن ولا هم؟)

(أنا شائف نَفَسْهُم قصير، لو جماعتنا ثبتوا ضحوة واحدة، حمالتك علي، ينظفوهم نضافه كريت لي طرق الشجر).

(طيب ومالك جيتنا ضعيف وتعبان؟ ما في أكل هناك؟ الحاصل عليك شنو؟)

(قدر الله نافذ، الملاريا الملعونة ما خلتني، لحقتني هناك).

(أنت غلطان، والله غلطان، تمشي ليها في محلها، يعني بصريح العبارة أنت واحد غاوي مشاكل، يعني ماك عارف إنه البعوض واحد من أسلحتهم الفتاكة).

قهقه ود فنقوق بصوت عال وتساءل قائلا:

(كلامك ده كلام خارم بارم، كيف البعوض سلاح من أسلحتهم؟ فهمنا يا أبو العريف؟).

رد عليه بعربي (جوبا) قائلاً:

(طيب نمسكها واهدة واهدة يا أبو مخ تَجِين، باعوض ده مش هشرة؟ هشرة، هشرة ده مش بَهِب هاجة حلو وبخلي هاجة مر؟ بهِب حاجة حلو، (مندكورو) ده مش سَكِل منقه؟ سكِل منقه، منقه ده مش هاجة حلو؟ هاجة حلو، وطيب!، بعوض ده بَمْسِي. وين؟ مُش بمسي مهل هاجة هلو؟ يعني بِبساتَة كِدَه بِيَمْسِي لي (مندكورو)).

ضحكوا، فروا مصارينهم من الضحك؛ اتفقوا على يوم الوليمة الكبرى فرحةً بعودته سالما، الوليمة محلها بيته، حسب عرفهم يتحملون تكاليفها كَثُرت أم قلت، ما عليه إلا دعوة من يشاء؛ جلس مع صهره النائر وصبي المحل، سووا حساباتهم، عرف ما له وما عليه، عاد في آخر النهار إلى داره وفي معيته النائر لأن زوجه نجاة وأولادها هناك، تناولا طعام الغداء، رشفا الشاي الأحمر، ثم تحدثا عن السوق، عن الكساد الذي ضرب في كل مكان، وأن هذه الحرب اللعينة إذا لم تصل إلى نهاياتها قريباً ببيوت الناس كلها مصيرها خراب.

أرخى الليل سدوله، هدأت حركة الشوارع، اصطحب النائر أهله، أوقف أقرب ركشا ويمم شطر داره.

لبس بيت العائلة الكبير في ذلك اليوم أبهى حلله، ازدادت نخلته سموقا، رونقاً، وجمالاً، بدلاً من سرادق عزاء كان متوقعاً في السابق، انتصب سرادق فرح، جاء أفراد الشلة، أصدقاء السوق، أهل الحي، أقارب، معارف، الكفيفان صابر وصبري، هنئوه بسلامة العودة، قضوا وقتاً جميلاً في أنس، ضحك، أكل، وشرب؛ فجر النائر قنبلةً مدوية، خاطب شلة السوق بنبرة لا تخلو من شعور بزهو قائلاً:

(اليومين دي في إشاعة حائمة في السوق).

رد ود جبر بنبرة متلهفة قائلاً:

(إن شاء الله خير).

رد قائلاً:

(خير، وأكثر من خير، يلا غنوا، ارقصوا من الفرح، وغني لنا يا بطل ساحات الفداء).

رد عليه بنبرة مازحة قائلاً:

(سيبنا من ساحات الفداء، خلينا في إشاعتك الهائفة دي).

رد قائلاً:

(شوفوا يا جماعة الخير، الإشاعة طالعة من المحلية، أدوني البشارة بالأول ثم أفتح ليكم غطايتها).

رد ود فنقوق ساخرا قائلاً:

(قبل ما تم كلامك، اسم (المحلية) ده، أنا مِقاشْرُه، ما فيه خير أبداً، يا حليل الاسم القديم، (البلدية)، شوف حلاوته، شوف غلاوته، أخوك البِتْريدو تقول ليه يا بلدياتنا، يا ود بلدنا، كان حبيت تطلب صحن كسرتنا المرة دي تقول أديني بلدي مصلح، بلدية يا بلد يا عبد الصمد).

رد عليه قائلاً:

(خلاص من اليوم ده كلنا نحول اسم المحلية إلى بلدية، ومنو عبد الصمد ده يا ود فنقوق؟)

رد قائلاً:

(يعني ماك عارفُه، ده ما ناظرنا، ناظر مدرستنا الأولية يا جاهل، في زول في الدنيا دي لا يعْرِف عبد الصمد، يا حليلك، ويا حليلها، ويا حليلنا نحن كمان، سنة، يا عبد الصمد، يا صمدو، يا سِيد النظار كلهم).

رد النائر بلهجة لا تخلو من تذمر قائلاً:

(يا أخوانا خلونا من حركات ود فنقوق، التي لا تقدم لا تؤخر، المختصر المفيد الإشاعة إنه طبلياتنا سوف يقومون بتحسينها، يُرَفِعُوها، تكون دكاكين بمواد ثابتة، مبنية طوب أحمر، وسقف مسلح).

تحول في تلك اللحظة السرادق إلى إستاد كرة قدم، خرجت أصوات، خرجت صيحات، خرجت هتافات: (تحيا البلدية.. تحيا المحلية.. تحيا الملجة.. تحيا الدكاكين، تحيا...تحيا...تحيا)، هتفوا حتى بحت أصواتهم، وتقطعت أنفاسهم.

خرج صوت مبحوح قائلاً:

(يا أخوانا ما قلنا اسم المحلية ده نمسحه بالأستيكة ونكتب محله اسم البلدية، هيع.. هيع، يعني نكون أصحاب حق، نبيع ونشتري في دكاكينا عَلي كيفنا).

صاح فيهم في نبرة حملت ما اختزن في نفسه من هواجس، أحلام، وآمال، ارتبطت عنده بشيء غالي نفيس اسمه دكان:

(أبشروا بالخير، عاد الليلة يا النائر ما جبت خبر، إن صح خبرك، ده ما يوم المُنا، يوم الفرح، عمرنا راح ونحنا منتظرين، منتظرين الكلام ده، منتظرين يوم نكون زي الرجال عندنا دكاكين، دكاكين عندها ورق رسمي، الكلام ده إن شاء الله يكون حقيقة، الصباح رباح، بكرة إن شاء الله أجيب ليكم الخبر اليقين، عندي أصحاب هناك، المهندس الكبير ذات نفسه لي معا هو معْرِفه قديمة).

انْفَض سامِرُهم، ونفوسهم مفعمة بأمل ورجاء، بخيالات مجنحة ذهبت بهم بعيداً، هومت بهم في دنيا كلها سعادة وحبور، بعد نيلهم دكاكين، لا ضياع، لا هم، لا نكد، ولا تهميش؛ قضى ليلته وهو يتقلب في فراشه على أحر من الجمر، همس لسعدية بهمسات ملؤها صفاء ورجاء:

(يا سعدية أرفعي يديك بالدعاء، الله يهون لينا أمورنا، ويحقق مرادنا).

همست قائلةً في صوت رخيم دخل برداً وسلاماً في أذنيه:

(الله يسعدك، ويسدد خطواتك، ويوفقك دنيا وآخرة، آمين يا رب العالمين).

غطى عياله ثم خاطبها في نبرة مملوءة بحب وشوق دافقين:

(محمد قال نبش الحفرة المدفون فيها شعر رأسه، ما وجد الشعر، لكنه شاف طيور تشقشق فوق النخلة).

ردت بنبرة حلوة لا تخلو من غنج ودلال قائلةً:

(ربما نبشت شعره قطط، أو عبث به عابث، خليه يعيش شوية مع نوادر طفولته، خليه، خليه يرتع ويمرح كما يشاء، خليه يحس إنه الدنيا حلوة، زيها وزي أحلى غنوة).

توسد راحة يدها، ومن ثم راحا في سبات عميق.

خرج في الصباح الباكر بعد أن ألقى كعادته بتحية الصباح على أمه، حدق في وجوه عياله وهم نائمون، ودعته سعيدة بابتسامة عريضة وبقلب يدعوا له بحفظ، سداد، وتوفيق، نظر إلى النخلة نظرة استلهام واستقواء؛ نزل من الحافلة مشى على رجليه لمسافة طويلة، استنشق بصدر مفرود هواء صبح عليل، خلا بنفسه، أعاد شريطاً طويلاً لذكريات حلوة ومرة، حاج الزين، سمع صوته، وما أحلاه من صوت:

(الراكوبة كان شعابها قوية مدفونة جوه الأرض الهواء ما برميها، القروش تمشي عليك مشي أبو القدح وتجري منك جري الغزال، يا ولدي إنت الظاهر عليك ود ناس ما شبه البهدلة، أسعى بيديك وكرعيك عشان تعمل ليك محل ثابت مِلِك، حكاية الباعة الجوالين دي مسخرة ولعب عيال، يوم في الشرق ويوم في الغرب، يوم في فتاشه ويوم في أم طرقاً عراض، خلي اللف والدوران اشتغل على المليان).

قال في سره:

(الله يِبَرِد تربتك يا حاج الزين، يغفر ذنوبك، يكفر سيئاتك، ويجعل قبرك روضة من رياض الجنة، مع أصحاب اليمين، في سدر مخضود، طلح منضود، وظل ممدود).

دخل أقرب مطعم، وضع طبق فول مصري أمامه، تناوله في شهية عجيبة، ذهب إلى مبنى المحلية ولسانه يلهج بقراءة مُسَهِلة الأمور سورة يسن، قابل المهندس الكبير، إنهما يتعارفان منذ فترة طويلة، رحب به وسأله عن أحواله كما يجامل الناس بعضهم بعضا حينما يلتقون بعد فراق، سأله عن

موضوع طبالي فواكه الملجة، أكد له صحة الخبر، وأن الترتيبات جارية على قدم وساق ليتم تنفيذه في القريب العاجل؛ شكره بفرح غامر وبلسان شاكر، تعجب المهندس! تعجب لأنه يتعامل مع رسومات وخرائط أكثر مما يتعامل مع بشر، حقيق به أن يتعجب، لأنه صعب عليه أن يستوعب كنه إلى أي مدى يمكن أن تكون واقعة أن يمتلك شخص بسيط دكاناً، فرحته لا تسعها كل أفراح الدنيا.

ما إن لامست قدماه تراب المحل إلا وأقبل عليه أفراد شلته، وأصحاب طبالي آخرون، وهم يسألونه في إلحاح عن صحة الخبر:

(أها يا أحمد إن شاء الله ولد؟).

(أها يا أحمد إن شاء الله بشارة خير؟).

(أها إن شاء الله الجَبَادة مسكت؟).

(أها إن شاء الله خلاص نَضُرْبَ الكوراك؟).

(أها إن شاء الله نخلي ستات السوق كلهن يزغردن؟).

(أها جبت لينا خبر الموت ولا العرس؟).

جاوبهم بنبرة مفعمة أملاً قائلاً:

(أبشروا بالخير، خبر صاحبي النائر صحيح مائة في المائة، أيام قليلة وتتضح لكم الأمور أكثر، استعدوا لاستقبال ذلك اليوم السعيد).

انقلبت الملجة في برهة إلى ساحة عرس، وزعوا حلوى، بلحاً، وفولاً مدمساً على رائح وغادي، وجوههم المكفهرة تبدلت إلى فرِحَة، مستبشرة، ومبتسمة، عندما يكون هناك أمل بعيد المنال ويصبح قريب المنال لا يشعر بلذته إلا من ذاق مرارة الحياة وقسوتها.

بعـد مضي- بضـعة أيـام دعـتهم المحليـة إلى تكـوين لجنـة ثلاثيـة للجلوس معها، اختاروها، ضمته ومعه النائر وود الفكي، تمخض عن اجتماعهم قرار تاريخي: (تحسين المواقع بترفيعها من طبالي فواكه إلى دكاكين، مساحة الدكان الواحد تسعة ونصف متر مربع، ترتيبها على نسق ترتيب الطبالي حالياً، يدفع كل صاحب طبلية مبلغ ثلاثة مليون دينار مقابل حيازته للدكان، تكفل له هذه الحيازة حق البيع للغير، استخراج رخصة تجارية سنوية حسب النشاط التجاري الذي يعجبه، يدفع إيجاراً شهرياً يتفق عليه مع السلطات)؛ وافقوا على مضض، لأن المبلغ المطلوب يفوق قدراتهم المالية، ولأنهم لا يريدون أن يضيعوا الفرصة ويندموا عليها فيما بعد، مهما كان الثمن، الأمر في نظرهم هدية من السماء، قفزة لا يتصورونها أبداً، من طبلية قفزة واحدة إلى دكان، من نكرة إلى معرفة، من ضيق باب رزق في فواكه إلى فتح باب رزق في كل شيء؛ فعلوا المستحيل لتوفير المبالغ المطلوبة، منهم أيتام، أرامل، وضعفاء، هؤلاء اضطرتهم ظروف قاسية إلى ما هو أشَدّ قسوةً منها، منهم من دخلوا في شراكات مع آخرين، منهم من استدان وعلى الله تيسير السداد، منهم من باع قطعة أرض، ومنهم من لم تتيسر له هذه الحلول فقبض مبلغاً حقيرا وتنازل للغير؛ ولى كل ذلك بخيره وشره وجاءت مرحلة التشييد، من استدان من قبل غرق في ديون أكثر، من باع مما يملك باع أكثر، من تمسك بمحله حتى اللحظة وجد نفسه مضطراً لأن يبيع أو يتركه أرضاً فضاء؛ استغرقت أعمال التشييد سنةً كاملة، رويدا رويدا أخذت الملجة زخرفها، ازدانت سرت الناظرين، هنا طاحونة غلال، هناك بقالة، لصقها محل اتصالات، لصقهما محل بيع بيض ودجاج، هناك...هناك حياة؛ إنهم يكدون يتعبون، ينتزعون لقمة عيشهم انتزاعا، ينتزعونها لأنفسهم، لعيالهم، ولمساكين يتسولون على أبواب دكاكينهم، إنهم الأوائل، الرواد، الذين عمروا هذا المكان بطبالي فواكه، عندما كان أرضاً جرداء

قاحلة، ما فيها إلا سور مُتَغْتِع لا هو واقف ولا قادر على صد مُقَتحِمين، يعمرونه الآن بتشييد دكاكين طوب، ذات أسقف مسلحة، مكان طبالي خشب بالية.

جلس القرفصاء فوق كرسيه داخل بقالته المتواضعة (بقالة الحاج أحمد) التي كانت فيما مضى- طبلية فواكه ليس إلا، لا تَوَدِي ولا تجيب، ابنه محمد، اسم الله عليه، برعم تفتق، واقف بجانب صبي المحل يبيع للزبائن، ضرب يداً بيد، سبح، حمد، وشكر ربه وخاطب ولده في نبرة حانية قائلاً:

(يا ولدي يا محمد اسمعني كويس، افتح أذنيك كويس، الدكان ده ما جاء بسهولة، جاء بعد نضال مرير، حافظ عليه، جدك مات وفي قلبه حُرْقة، وفي حلقه غُصة، مات وهو يرزح تحت رحمة المؤجرين).

رأى بريقاً عجيباً يتألق في عيني أبيه، لم ير مثله من قبل، تجاهل ذلك ورد عليه بنبرة رقيقة قائلاً:

(يابا ربنا يديك طول العمر).

(العمر يا ولدي عارية لا تدوم).

(ونِعْمَ بالله يابا).

(يا ولدي فتح عينيك كويس، الدنيا شقاء وتعب، الزول كان قال أنا مرتاح فيها كذاب، لا غني ولا فقير مرتاح، العيب في اللَم حلال وحرام، أبعد من الحرام، الحرام كثير، وأولاد الحرام أكثر).

(يابا كلامك ده كله في محله، المدرسين لما الطلبة يغشوا في الامتحان يعملوا منهم نائمين).

(يا ولدي، ما عليك بأولاد الحلال، ولا أولاد الحرام، خليك في حالك، عليك بنفسك، تمشي- عِدِل الله يِعَدلها عليك، تلف وتدور يدورها عليك).

مر ود فنقوق من أمامهم، حياهم وهو يدندن بمقاطع أغنيته التي قطعها من رأسه، وحفِظها أصحاب الدكاكين عن ظهر قلب، وكانوا يطلبون منه ترديدها في ساعات صفائهم:

تيت... تيييت... يا خرتيت
توت... تووت.. يا كتكوت
الدكان دكانا... حي قيـــوم
بي طوب دكانا... حي قيـوم
بي سيخ دكانا... حي قيــوم
فيهُو هَنَانــا... حي قيـــوم
فيهُو مُنانــا... حي قيـــوم
اللـه أدانـا... حي قيـــــوم
رزق وجانـا... حي قيـــوم
حي قيوم.. حي قيوم.. حي قيوم.

أنسته ترنيمات ود فنقوق حديثه مع ولده، انساق وراءخواطره:

(سعيدة الصالحة، الدكان، المال، محمد وأخواته، كلهم زينة الحياة الدنيا، ولكن! علمتني الحياة أن أكون حذراً، ما أقبلت وإلا أدبرت، الدنيا أضداد، نور وظلام، دمعة وابتسامة، حياة وموت، تديك وما تديك، فيما مضى أدتني ما أريد وفي الآتي أخشى تديني ما لا أريد).

داهمته غفوة، نام على كرسيه، ربت محمد برفق على كتفه، همس بنبرة بريئة:

(خلاص يابا الشمس قربت تغيب يلا نمشي بيتنا).

أغلقا باب البقالة، وصلا موقف الحافلات، توكلا على الله وركبا الحافلة التي توصلهما إلى دارهما.

مع إرهاصات استخراج البترول ومد خط الأنابيب إلى موانئ التصدير، لاحت في الأفق بشارات كثيرة، بدأ الناس في التقاط أنفاسهم قليلا، بدأوا في الخروج من حالة جمود، قنوط، ويأس، إلى حالة حركة، استبشار، وأمل، بدأ الاقتصاد في التعافي، أخذ السوق حظه من ازدهار، أتى إلى الملجة صينيون يعملون في شركات البترول، وصينيون يقفون في الطرقات يعرضون أدوية شعبية، راجت لأجلهم تجارة جراء الكلاب، ومصريون يزيتون ويشحمون أبواباً جرارة، ويصلحون بوتاجازات، ويعملون في تشييد مباني، وأثيوبيون، وجنسيات أخرى، أتوا هاربين من بؤس وفقر في بلادهم، البيض بلونه الأبيض الناصع لَوَنَ غالبية الدكاكين، رائحة بيض فاسد، وبيض مكسور، وغاز كبريتات الهيدروجين انتشرت في المكان؛ جاءتهم أخبار بأن أصحاب الدكاكين في كل الأسواق الشعبية بالمدينة في حالة لا توصف من الفرح، لم يعودوا مجرد مستأجرين لدكاكينهم، ملكوها لهم نظير دفع مبالغ للدولة، أضاعوا هذه الفرصة، لم يغتنموها، لم يستثمروها كما ينبغي، كان في إمكانهم الانضمام لدكاكين الطرف الآخر من السوق ويحظون بنفس المعاملة، لكنهم فوتوا هذه الفرصة، وما هو متاح في لحظة ما، قد لا يكون متاحاً في لحظة مقبلة.

مرت الأيام، شهدت قدرا كبيرا من التحولات، لم يكونوا مواكبين للأحداث، كانوا منغلقين في ملجتهم، لم يكونوا يعلمون بما يخبئه لهم القدر، المحلية في واد وهم في واد آخر، تخطط وهم لا يخططون، صاحية وهم نائمون في العسل، لها استراتيجيات،

وخطط، وبرامج وهم لا ينظرون أبعد من تحت أقدامهم؛ أحياناً يتفقون معها، وأحياناً كثيرة لا يتفقون، وفي كل الحالات كانوا يطمعون في تسوية العلائق بينهم بالتراضي لا ظالم ولا مظلوم، هكذا العرف الذي يعرفون، البلدية على قلب رجل واحد وهم قلوبهم شتى، الذي كان يحدث خطير جدا، لم يقدروه حق التقدير، إنهم سذج بسطاء على قدر حالهم، غافلون، مخدرون، يعيشون في غيبوبة لا يدركون ما يجري تحت الجسر. من حولهم؛ مررت عليهم المحلية نصوص عقد جديد، وقعوه على انفراد، فات عليهم أن سماً أحياناً يكون مدسوساً في دسم، وأن قشة قد تقصم ظهر بعير، وأن التوقيع على عقود بلا روية يورث خيبة وندامة، بنص العقد الذي وَقعُوه دكاكينهم التي بنوها بدمهم، عرقهم، دموعهم، وشقائهم، أصبحت لقمةً سائغةً للمحلية، إنهم مجرد مستأجرين، لا أكثر ولا أقل، يجري عليهم ما يجري على غيرهم، ضاعت حيازاتهم إلى الأبد، ضاعت بجرة قلم حيازاتهم التي دفعوا فيها ما دفعوا، لم تعد سوى ورقةً قديمة لا قيمة لها، لا تصلح إلا أن تكون تذكاراً ينبه غيرهم من الغافلين.

فطنوا بعد فوات الأوان إلى أنهم وقعوا في مصيدة كفئران غبية، قعدوا يتلاومون، وفي قناعة عاجزين يقولون:

(ربك يعدلها).

(وإن غداً لناظره قريب).

(ما معروف تجي على الجَمّال ولا على الجَمَل).

(نحن ركاب قطر، لا نستطيع تغيير القضيب ولا المحطات).

(ما معروف الحياة والموت لينا ولا ليهم).

(يمكن تقوم القيامة وتريحنا منهم).

انصرفوا إلى تدبير شؤونهم ونسوا الموضوع، نسوا وجع الرأس، عملوا بمقولة: (الباب المِنُه الريح سِدُه وأستريح).

ثم بدأت حكاية، طويلة، بدايتها سعيدة، ونهايتها أليمة، خرج ذهب أسود من باطن الأرض، جرى في خطوط أنابيب، وصل إلى مصافي، وصل موانئ تصدير، وصل أسواقاً قريبة وبعيدة، تحول إلى دولار، ين، ويورو، تحول إلى ثروة، ومن ثم إلى قوة؛ انحسر سوق أسود، أصبحت الأسواق حرة بحق وحقيقة، امتلأت رفوف المحال التجارية التي كانت خاوية ببضائع من شرق وغرب، تدفق سلاح، سلاح زائداً شجاعة، إقدام، وإيمان، محصلته النهائية الحتمية نصر مبين، اختل ميزان قوة عسكرية في ميادين القتال، فطن المتمردون إلى أن الجنوح للسلم أفضل، أبرمت اتفاقات سلام، ذهبت حرب وحل محلها استقرار، أمن، وسلام؛ ومن ثم توقفت كَشَات، ومطاردات شوارع، عاد الدفار سيئ السمعة إلى حيث كان، عادت الحياة إلى طبيعتها، الناس يتجولون على سجاياهم في الشوارع، لا يخشون إلا تراب، عجاج، وأشعة شمس حارقة؛ اختفت خيام ومكبرات صوت مبثوثة في الأسواق، اختفت كل الأشياء التي كانت تجعل الناس في حالة رعب، ضياع، وعدم أمان، سفلتوا الطريق الترابي الذي يمر أمام محله، تضاعف عدد السيارات نصف النقل التي تنقل البيض من المزارع إلى دكاكينهم، مع زيادة مداخيل الناس زاد عدد الزبائن، وزاد إقبالهم على الشراء.

بذهن ثاقب، بخبرة تجارية طويلة، بدأ في التفكير فيما يجري من حوله، الدنيا بدأت تتغير تغيراً سريعا، الذهب الأسود سَحَرَ كل شيء، سَحَرَ عقولَ الناس، جنح بعضهم إلى القول آن الأوان لأن ينبزوا عمة، جلباباً، وشال، ويلبسوا بدلاً منها ثوباً وعقال، سَحَرَ قلوبَ الناس، صارت أكثر ميلاً وحباً للدنيا، سحر أعين الناس، لا يرون من الحياة إلا قشورها، رصفت طرق، شيدت جسور وسدود، فتحت مدارس وجامعات جديدة، وفرت كهرباء، حدثت طفرة اتصالات ما كانت لتخطر على بال، أصحاب الدكاكين يطلبون الشاي بهاتف جوال،

غزت الشوارع لافتات مطاعم تبيع أطعمة هندية، فارسية، صينية، وتركية، وهوت دوق، اجتاحت وجابت الشوارع سيارات فارهات آخر موديل، عمارات شاهقات اشرأبت برؤوسها في كل مكان، جامعات، مدارس، ومشافي خاصة تتنافس مع رصيفات عامة، خادمات أجنبيات يعملن في البيوت؛ إنه أحد المتفرجين، لا حول له ولا قوة، يتفرجون على مباراة بين فريقين، خير وشر، غنى وفقر؛ نعم، تجارته بدأت في الازدهار، تعاظم رأسماله، حياته أصبحت أسهل وأيسر؛ خرج من دائرة الضيق إلى دائرة الانفتاح على الحياة، شاخت البتولة ولكنها لم تزل متماسكة، سعيدة أولادها يملؤون عليها حياتها وما عادت تهتم به، نجوى ونجاة هموم ومشاغل الحياة المتزايدة جعلتهن أكثر التصاقاً ببيوتهن ولم يعدن يكترثن بزيارات؛ الكفيفان يزورانه من وقت لآخر، ولكنهما ليس بنفس الوتيرة السابقة، بدلاً من ذلك يتصلان عليه من هاتف جوال، كل شيء تغير وما هو بناج من تيارات التغيير؛ وبينما هو في خضم هذه الدوامة، بدأ يحس بأن تيارات جامحة دوامة تدور من حوله، تتهيأ لأن ترسله في رحلة طويلة إلى عاقها، وهو على هذه الحال تلقى خبراً مشئوماً، اتصل به الحسين هاتفياً وأنبأه بوفاة ود البولاد، غشي عليه من هول الصدمة، وبعد أن استفاق، عاود الاتصال به، بنبرات باكية تبادلا التعازي، قرأ سورة الفاتحة على روحه وخاطبه بنبرة حزينة قائلاً:

(لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، الدوام لله، اليوم أوغداً بالكثير بإذن الله نكون معكم).

سهى مع خواطره:

(هكذا هي الحياة، نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم خلق آخر، تبارك الله أحسن الخالقين، ثم موت في شباب، أو في أرذل عمر، نأتي ثم نذهب، أين الأولون؟ كانوا أكثر منا منعة وأولادا وأموالا، ذهبوا ونحن على آثارهم ذاهبون، وأمام

مليك عزيز مقتدر واقفون، كنت نعم الأب، نعم الأخ، نعم الرجل، والرجال في هذا الزمن قليلون).

اتصل على صهره النائر أخبره الخبر وحثه على المجيء إليه، اتصلا على نجاة أخبراها الخبر، أمليا عليها الخطوات المطلوب اتباعها: ترتيب أمورها للسفر، تأخذ أولادها معها وتذهب للبيت الكبير، تخبر سعيدة الخبر وتهيئها للسفر؛ تناهى إلى أسماع أصحاب الدكاكين الخبر، توافدوا قدموا لهما التعازي؛ رتبوا أمورهما وأمور سفرهما.

سمعا بكاءً ونواحاً عند مدخل البيت، النخلة واجمة، جريدها جامد لا حركة فيه، عم الخبر بيوت الجيران، تحول البيت إلى مناحة، قابل سعيدة ودموع غزيرة تنهمر على وجنتيها، ضمها وضمته في قوة، ود البولاد قاسم مشترك بينهما، ينبوع حياتهما الدافق، حياتهما بدونه لا تسوى شيئا؛ تركوا محمد، وأخواته، وأولاد نجاة مع جدتهم التي لم تعد تقوى على تعب السفر، جلسوا على مقاعد وثيرة لسيارة هايس مكيفة بدلاً من شاحنة نقل بضاعة، عدهم، كانوا اثنا عشر راكباً، هو، وسعيدة، والنائر وعائشة، وثمانية ركاب آخرين، لحسن الحظ كلهم لنفس العزاء ذاهبون؛ دامت الرحلة زهاء الأربع ساعات بدلاً من ست ساعات قاتلة، لم يشعروا بمرور الزمن، انساق وراء خواطره، تدفق صوت ود البولاد رقيقا كما سمعه لأول مرة قبل خمسة وثلاثين سنة، عندما نادى عليه بعد قراءته للخطاب المعنون لأولاد البولاد:

(تعال، تعال يا ولدي يا أحمد، خلاص وصلت عند أهلك، أبوك صحته كيف؟ وأحواله كيف؟ وأهلكم عاملين كيف؟ إن شاء الله كلهم طيبين ومبسوطين؟)

ثم رنت في أذنيه كلماته المترعة شهامة وكرم وطيبة:
(وصلت خلاص يا ولدي أمورك تب مقضية ومحلولة).
ثم شنف أذنيه صوته الحنون وهو ينادي على ولده بصوت عال:
(تعال، تعال يا الحسين، إنت وين؟ تعال ودي أخوك أحمد البيت وقوم بالواجب، تعشوا أنا يمكن أتأخر شوية).

راه حاملاً عصاه يسير أمامه نحو مدرسة ود البولاد، شاهد أحداثاً كان هو قُطْبها، محورها، ومحركها، بشخصيته الطاغية، الجاذبة الساحرة؛ راه شجرةً ظليلة، بقرةً حلوباً، شمسية، ناموسية، نخلة، مرآة تعكس جمال الحياة؛ غلبته الدموع، جرت، بللت وجهه، نقطت كحبات ندى على ملابسه؛ انساقت سعيدة وراء خواطرها، عادت بها ذكرياتها إلى أيام طفولتها، رأته يأتي ويذهب، عندما يأتي، يأتي حاملاً سلال خير، بركة، وسرور، عندما يذهب تذهب معه الأفراح، أمها نفيسة في وجوده طفلة، وفي غيابه، يتصحر بيتها، ويتعكر مزاجها، لما تقدم بهما العمر ظل شمسها التي تضيء نهارها، قمرها الذي ينير ليلها، سحاباً يروي ظمأها وجدبها، مناً وسلوى لجوعها، وريشاً ولباساً لسترها، والآن! ها هي بعد أن كان يكفكف دموعها، يلاطفها، يداعبها، يقبلها، يشمها وهي طفلة، ويسهر ويمرض لمرضها.. ها هي عاجزة تذرف عليه الدموع، وما أرخصها من دموع؛ نجاة، وهي تنظر في وجه سعيدة، عاد إليها شريط من أحداث لا تنسى، انساقت وراء خواطرها، رأته لأول مرة في زواج أخيها، ثم في زواج ابنه الحسين، كأنما يعرفها كما يعرف بنياته، دخل في قلبها على طول، كريم، شهم، صريح، مرح، ما في قلبه على لسانه، يذكرها بكل الناس الطيبين الذين قابلتهم في حياتها، سقطت الدموع من عينيها؛ النائر، حالة صمت ووجوم، منظر وجوه حزينة كئيبة، جعلته ينساق وراء

خـواطره، استحضر روحـاً طيبـةً جذابـة لرجـل فريـد في عصره، التقـاه مـرتين، الأولى في عـرس أحمـد، والثانيـة في عرسـهما المـزدوج مـع الحسـين، صُـحبته عجيبـة، يـدخل في قلـوب النـاس بسـهولة، قلبـه مفتـوح للآخـرين، يـده في جيبـه باسـتمرار، ينفـق انفـاق مـن لا يخـش الفقـر، لسـانه لا ينطـق إلا بخـير، سـباق في الملمـات لا تسـتطيع أن تمـيز أهـو ضـيف أم مضـيف، لـم يـر لـه ندا في حياته.. وسالت دموع من عينيه.

وصـلوا القريـة، وقفـت بهـم السـيارة أمـام سرادق العـزاء، عـلا صـوت نـواح، خرجـت نسـوة مـن داخـل البيـت، أمـواجهن ابتلعـت سـعيدة ونجـوى، بعينـين بـاكيتين احتضـن كـلاً مـن الحسـين، الحسـن، الخـير والفـاتح، سـألهم في نـبرة لا تخلـو مـن مـرارة وحـزن دفين:

(كـل شيء بـأمر الله، كلنـا إلى زوال، لـم تخبرونـا بمرضـه قبل وفاته).

رد الحسين بنبرة كسيرة قائلاً:

(القـدر حصـل، الحكايـة كلهـا سـاعتين، رجـع مـن عنـد بهائمـه ورقـد في عنقريبـه، قـال للحاجـة شـاعر بوجـع بسـيط، وألـم في الصدر، ولفة رأس، طلب كباية شاي).

قاطعه النائر متسائلا:

(ما عندكم دكتور في القرية؟)

رد بنبرة حزينةً قائلاً:

(هـو أدانـا فسـحة للـدكتور، كبايـة الشـاي مـا رفعهـا مـن الطرابيزة وبدأ نفسه يضيق، قبل ما نوصله المستشفى تِعِبْ).

رد بنبرة مواسية قائلاً:

(دي أعـراض سـكتة قلبيـة، جـدي رحمـة الله عليـه مـات بنفس الأعراض).

رد الحسن بنبرة لا تخلو من مرارة قائلاً:

(اليومين دي الموت واحد من اثنين، يا قلب ويا كلى والعياذ بالله).

رد الحسين بنبرة مشحونة بألم قائلاً:

(لما دخلناه على الدكتور وكشف عليه قال لينا (البقية في حياتكم، نبض قلبه وقف).. الموضوع من بدايته إلى نهايته ما أخد ساعتين).

رد بنبرة لا تخلو من أسى قائلاً:

(كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، إنا لله وإنا إليه راجعون، لك الرحمة يا ود البولاد، قدمت الكثير وما قصرت أبدا).

رفع الجالسون أكفهم بالدعاء، دعوا له بالنجاة من عذاب القبر، بالفوز بنعيم الجنة، والنجاة من النار، دعوا للأموات بالرحمة، وللأحياء بحسن الختام.

انتهت مراسم العزاء في اليوم التالي، اليوم الذي يليه كان خميساً، يوم السوق، ذهب في زيارة خاطفة إليه، كل شيء فيه تغير، بعض الدكاكين أعيد بناؤها بهندسة معمارية جديدة وبأبواب سحابة، بعضها جرى ترميمها، زيدت صفوف جديدة، امتلأت رفوف الدكاكين ببضائع من كل الأنواع؛ إدارة السوق في الماضي كانت على عاتق سبعة أشخاص الآن عساكر بأزياء مختلفة، أفندية وأفنديات يحملون دفاتراً يلفون على المحلات، وعلى الفريشّة، الجميع يدفعون لهم، من أصغر إلى أكبر ذقن، الناس يحملون هواتفاً جوالة في أيديهم، يتحدثون وهم على عجلة من أمرهم، وجوههم ليست كالوجوه التي أَلِفها من قبل، ليس فيها طيبتهم ووداعتهم، ليس فيها ما في وجه ود البولاد من قسمات ساحرة جذابة، جالبة لخير ومحبة، قال في سره:

(يبدو أن لعنات الذهب الأسود قد وصلت إلى هنا).

عادا هو والنائر وتركا سعيدة ونجاة في القرية، التي لم تعد قرية، تحولت إلى بلدة، بيوتها بها خدمات كهرباء وماء، غرفها مبنية من طوب أحمر وبلوك ومبلطة بسيراميك، بدلاً من قش وشوك، نوافذها تهبهب فيها ستائر حرير ومخمل، أثاثها مجلوب من صين وتايوان؛ وصلا المدينة، وجدا الأولاد وجدتهم كما تركوهم، في أحسن حال.

في الصباح الباكر وهما يدخلان السوق أول من قابلهما ود فنقوق، بعد أن حمد لهما سلامة الوصول نبئهما بخبر شؤم، مصيبة وحلت بالسوق:

(المحلية رفعت الإيجار الشهري من أربعين إلى ثلاثمائة جنيه مرة واحدة، العاجْبُه عاجْبُه والما عاجْبُه يسلمهم المفتاح، ولا يقع البحر، أو يَطُق رأسه في الحيطة).

رمق صاحبه بنظرة تحمل كثيراً من معاني وخاطبه قائلاً:

(أها يا ناير الجَرْجَرة والمرْمَطة بدت، العقود التي وقعتم عليها قلت ليكم ستُعَجِل بأجلكم، لم تسمعوا كلامي، خلاص، كل ما بنيناه انهد فوق رؤوسنا).

رد بلهجة متوترة قائلاً:

(أها، والعمل كيف مع مسمار خازوق الركب فينا ده، إن دفعنا الثلاثمئة السنة دي ندفع البعدها أربعمائة، والبعدها ستمائة، وفي الآخر ينططونا دكاكينا جري عديل).

تجمع حولهم أصحاب الدكاكين، نسوا حاجة اسمها تعزية في الميت، انخرطوا في الحديث، الخبر سَوَد وطَيَن عليهم عيشتهم.

خرجت أصوات ثائرة غاضبة من هنا وهناك:

(يعني ده آخر تعبنا وشقانا)

(حرام يضيع في غمضة عين عرق جبينا).

(حرام يعصرونا، يطلعوا زيتنا في دكاكين، بنيناها بدمنا وعرقنا).

(الشقي يلقى العظمة في الفشفاش).

(شوفوا يا رجال هوي إن رخينا ليهم الحبل حقنا راح، أحسن نُوقف وقفة جامدة، وقفة رجال).

(الموت حق، والحياة باطل، نحن أصلنا كده كده ميتين، نموت في حقنا أحسن من نموت فطيسة).

اغتنم ود فنقوق الفرصة لدغهم بلهجته الساخرة قائلاً:

(فطيسة، يا فطائس، من زمان ما عارفين إنكم فطائس، وينك يا عبد الصمد، يا حليلك، وينك يا صمدو؟).

رد بنبرة رزينة هادئة قائلاً:

(يا ود فنقوق رُوق وأحْلَى، خلينا من صمدو بتاعك ده، ده ما وقْتُه، الناس في شنو وإنت في شنو، يا جماعة إن مَشْينا الإيجار الجديد الرماد كال خشومنا، البِسَوه فينا النجار في العود ما سواه، الرأي عندي لازم نوحد كلمتنا، نمشي ليهم في مكاتبهم، نعرض عليهم قضيتنا، ويمكن ربك يفرجها).

اتفقوا والفأر يلعب في عبهم، الحاضر يِكلم الغائب، والكسيح يكلم المكسر، التجمع بعد ثلاثة أيام أمام مبنى المحلية، يدفع كل دكان كبداية مبلغ عشرين جنيهاً كصندوق دائم لمقابلة أيتها مصاريف أو أتعاب.

تجمعوا في اليوم المضروب، توقفت حركة المرور في الشارع العام أمام مبنى المحلية، أفهموا موظفي الاستقبال بأنهم أصحاب دكاكين الملجة، يريدون مقابلة المسؤول لرفع ظلامتهم، وأنهم لن يغادروا المكان بدون الوصول إلى نتيجة؛ وبعد أخذ ورد، وشد وجذب تم اللقاء بينهم والمسئول في قاعة الاجتماعات، سمع كل طرف من

الآخر، اتفقوا على تكوين لجنة مصغرة تمثل أصحاب الدكاكين، تجلس معهم لاحقاً لبحث الأمر.

جلست معهم اللجنة، أكدوا لهم على أشياء كانت غائبةً عنهم: الدكاكين بموجب العقود الجديدة أصبحت ملكا للمحلية، حيازتهم انتهت ولم تعد لها أية قيمة قانونية، للمحلية الحق في رفع الإيجارات متى ما ارتأت ذلك، مدة العقد خمس سنوات تنتهي في العام ألفين وإحدى عشر، بينوا له وجهة نظرهم: لهم حق تاريخي في هذه الدكاكين، كانوا أصحاب طبالي فواكه في السوق الكبير منذ السبعينات، رحلوهم في الثمانينات، رُفِعَت هذه الطبالي إلى دكاكين في التسعينات، أربعين سنة وهم يشقون ويتعبون، هم المالكون الحقيقيون للدكاكين، لديهم حيازة دفعوا فيها دم قلوبهم، رصفاؤهم في الأسواق الشعبية الأخرى ملكوهم دكاكينهم؛ خلاصة الجلسة، خلاصة حكم القوي على الضعيف، أن كل الذي يمكن أن يُحْفظ لهم هو أن يمنحوا الأفضلية في حال جرى مستقبلاً أي تغيير في وضعية الدكاكين.

خرجوا من هناك وهم يضربون أخماسهم في أسداسهم، يتلاومون، يسخطون، يصبون جام غضبهم على ذلك اليوم الأسود الذي وقعوا فيه على تلك العقود المشؤمة، خرجت تعليقات محبطة من حلوق مرة، وشفاه يابسة:

(خلاص علينا وعلى دكاكينا العوض).

(قروش حيازتنا المدفوعة، ودكاكينا المبنية، راحت كلها شمار في مرقة).

(خلاص التراب والرماد كالوا عيونا).

(خلاص نشرط هدومنا، ونهج على وجوهنا، مجانين في الشوارع).

بعد تفكير عميق خاطبهم قائلاً:

(يا أخوانا الكلام واضح، أخذوا حقنا بالقانون، والقانون لا يحمي المغفلين، خلونا نرجع السوق، نفكر بهدوء وروية، الحلول موجودة، لأن ما أخذ بالقانون لن يعود إلا بالقانون).

رد أحدهم بنبرة مستنكرة قائلاً:

(لكن درب القانون طويل، وما عنده نهاية).

رد آخر قائلاً:

(القانون دائماً مع الحكومة، الحكومة هي القانون، ما سمعنا بواحد قاضى الحكومة أدوهو حقه، قال قانون قال).

رد بنبرة متفائلة قائلاً:

(شعارنا يا أخوانا منذ اليوم، لا ننتظر، نتحرك، كل حركة معها بركة، وما ضاع حق وراه طالب، نفعل كل ما نستطيع، نزرع في قلوبنا الأمل، وبإذن الله يأتي الفرج).

العقول غير العادية تتعب أصحابها، ربط بين ما جرى لهم وما يجري من حولهم، حدث استفتاء الجنوب، تبخرت أحلام اليقظة، حظوظ التفاؤل كانت أكثر من التشاؤم، ولكن النتيجة جاءت بالمعكوس، لأن ما في النفوس أعمق من أن تزيله محاولات إغراء وتحفيز، ولأن ما كان يجري وراء الكواليس أقوى مما كان على العلن، تنفس الطرفان المتحاربان الصعداء، مشكلة مزمنة وانحلت، تم الانفصال، ذهب غالبية الذهب الأسود إلى هناك وبقي خط الأنابيب هنا، لم ينعم من هم هنا ولا من هم هناك بسلام ورخاء، عاد الدولار إلى سوقه الأسود، أطل التضخم برأسه من جديد، ارتفعت الأسعار، تعثرت الأمور، انكمش السوق وكسدت البضائع، عادت دوائر اقتصاد

خبيثة كما كانت، فرضت المحلية مزيداً من الجبايات، ولكن من أين يتأتى لهم الخم؟ قوة شرائية ضعيفة، سوق منكمش، الصيف ضيعت اللبن؛ ولسد الخلل عاد دفار الكشة من جديد، هذه المرة ليس للقبض على قادرين على حمل سلاح، وإنما للقبض على باعة جائلين يفترشون الأرض بدون تراخيص، يأخذون بضاعتهم الهائفة قسراً، يصادرونها مع تغريمهم غرامات مالية؛ تراجع وتدهور دكانه إلى حافة الإفلاس، البضاعة غالية، والزبائن كيفوا أحوالهم مع هذه المستجدات، قللوا من استهلاكهم، بدوره قلت أرباحه، عادت متاعبه من جديد، نفقاته من رسوم، إتاوات، ضرائب، زكاة، تكاليف معيشة، تعليم، علاج، ماء، كهرباء، ومصاريف أخرى كثيرة، لا تتوازن مع دخله المحدود، وبقلب طيب متوكل قال في نفسه: (فوضت أمري لله).

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة خمسة وخمسين فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشف رشفةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(١١)

ساحـــات كفاح

يرى، هو ومعه ود جبر جالسان داخل دكانه يتحاوران في كيفية اللجوء للقانون، عنت لهما فكرة أن يستعينا بمحامي شاطر، فهما على قناعة تامة بأن متاعبهم سببها جهل فاحش بالقانون، وبأنهم فهموا ذلك بعد أن وقعت الفأس في الرأس، المحامي يمتلك القدرة على تبصيرهم، توعيتهم، وتعريفهم بواجباتهم القانونية، وهو الأقدر على بيان حججهم وأدلتهم، وهو الأعرف بمعاملات، وحضور جلسات، وإجراء مرافعات؛ ولأن قضيتهم شائكة، وعدوهم لدود، فهي تحتاج إلى محام عنيد له خبرة في مثل هذا نوع من قضايا، ذو اسم، صيت، وشهرة، ما ترافع في قضية إلا وكسبها، ما من دكان إلا وأستله كالشعرة من العجين، طفقا يبحثان عن ضالتهما، سألا عنه كل من يعرفان ممن لهم صلة بمهنة القانون، وبعد جهد جهيد دلوهم عليه، على الأفوكاتو العنيد، ذهبا إليه بلباس شغل متسخ في مكتبه الذي يقع في الطابق الثاني لإحدى بنايات سوقهم القديم، قابلا سكرتيرته التي قابلتهما بابتسامة وبوجه هاش باش، طلبت منهما الجلوس على أريكة وثيرة لحين خروج من هم بالداخل، دخلوا عليه بعد دقائق، لفت نظرهما كثرة أوراق وملفات، بعضها على رفوف دواليب، بعضها على الأرض، وبعضها الآخر فوق طرابيزته الكبيرة التي تذكرهما بترابيز الفواكه.

ألقيا عليه التحية وجلسا على كرسيين قبالته، رد عليهما تحيتهما، ونظر إليهما من خلال نظارة سميكة من تحت لفوق، مستكشفا زبائنه مُرَيِشين أم أي كلام، ثم سألهما قائلاً:

(إن شاء الله خير؟)

رد بنبرة هادئة مهذبة فهو أما محامي كبير قد الدنيا قائلاً:

(بصراحة يا أستاذ نحن أصحاب دكاكين الملجة من الناحية الشرقية، نحن والمحلية الظالمة التي لا تخاف الله نتنازع ملكيتها، دخلنا السوق القديم سنة ألف وتسعمائة وسبعين، حولونا في سنة ألف وتسعمائة خمسة وثمانين إلى الملجة، أدونا فيها تصديقات ترابيز فواكه، عددنا واحد وخمسين، في سنة ألف وتسعمائة سبعة وتسعين حسنوها رفعوها لدكاكين، دفعونا مبالغ طائلة مقابل حيازتنا لها، بنينا هذه الدكاكين من حر مالنا وفقاً لرسومات هندسية رسمية، بعد سنتين مضونا على عقد جديد، لم يتطرقوا فيه لحيازتنا، عملية مقصودة منهم، كل ما يتبهدل حالهم يرفعوا علينا الإيجارات، إن شاء الله حالهم دائماً مبهدل، يعني من دِقْنُه وأفتله).

رد متسائلاً قائلاً:

(فهموني ماذا تريدون بالضبط؟)

(نريد يا أستاذ مثل ما ملكوا غيرنا يملكونا دكاكينا).

(أين مستنداتكم وأوراقكم التي تستندون إليها في موضوعكم؟)

مد له ملفاً كبير البطن بداخله صور كل المستندات التي بحوزتهم: حوى ورقة قديمة مشرشره من أطرافها، عليها بقع من شاي أحمر، بها أسماء أصحاب الترابيز الذين تم تحويلهم من السوق الكبير، إيصالات حيازة مالية، رسومات هندسية للدكاكين، رخص تجارية سنوية، عقد جديد، وإعلانات.

أمسك بالملف، قلب أوراقه على عجل ثم خاطبهما بنبرة متأسفة قائلاً:

(ارتكبتم غلطة فادحة بعدم استشارة قانوني قبل توقيعكم للعقد، حكايتكم زي حكاية مريض السرطان - والعياذ بالله - يقابل الطبيب

بعد فوات الأوان، اتركا الملف وأرقام التلفون مع السكرتيرة، ترقبوا اتصال مني بعد دراستي للحالة).

قبل أن يخرج أعطاه مبلغاً تحت الحساب كعربون على جِدِيتهم، بمجرد عودتهما إلى السوق التف حولهما رِفاقهما كأكلة حول قصعتها، بوجوه خائفة، متوجسة، مترقبة سألوهما عن الأفوكاتو، أجابهم بلهجة ساخرة قائلاً:

(الملف الآن بحوزة الأستاذ الكبير الأفوكاتو، وهو يحتاج إلى وقت ليقوم بدراسته باستفاضة، وإنه ضحك على غبائنا، وما فضل إلا يقول لينا ما ناقصكم إلا بردعة، سرج، ولجام).

منذ البداية أصوات قليلة منهم بدأت تتشكك في جدوى النهج الذي يتبعانه، نهج الأفوكاتو، سموه استهزاءً (نهج الدراويش)، وهذا طبيعي، فالاختلاف سنة الحياة، واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية؛ بعد مرور أسبوع اتصل الأفوكاتو، ذهبا إليه في مكتبه، جلسا على نفس الكرسيين، خاطبهما بنبرة لا تخلو من مواساة قائلاً:

(يا حجاج بعد دراسة مستفيضة لأوراقكم، تبين لي أن حججكم ضعيفة واهية بسبب عدم درايتكم، وبسبب عدم توفر حسن النية من الطرف الآخر).

رد قائلاً:

(يا أستاذ فهمنا الحكاية بهداوة).

(نصوص العقد الذي وقعتموه مفصل على مقاسهم، حيازتكم ضيعتموها بسوء تصرفكم، أنتم الطرف الأضعف، هم بيدهم الحل والربط، يتلاعبون بكم كما يشاءون).

(يا أستاذنا الفاضل، ورطتنا دي، ما ليها مخرج؟)

(من الناحية القانونية موقفكم أضعف من ضعيف، موقفكم حرج (كِرِيتكَال)).

(في المرة الأولى ملكوا كل ناس الأسواق الشعبية دكاكينهم ونحن ما ملكونا، طلعونا من المولد بدون حمص، في الثانية مضونا على عقود مهببة، طلعونا حمير، يعني نمشوا على وين؟ يا أستاذ قول لينا بالمكشوف، جينا بعد خراب سوبا؟ ما في لينا أمل نهائيا؟).

رق لحالهم خاطبهم بنبرة رقيقة قائلاً:

(أعطوني فرصة أقابل مستشارهم القانوني وبعد تقييمي للوضع أعطيكم النتيجة).

وافقا بدون تفكير لانعدام البدائل وانسداد الأفق أمامهما، دفعا مبلغاً آخر تحت الحساب، ودعاه وخرجا، وهما في الطريق خاطب صاحبه ساخراً قائلاً:

(عشان موضوعنا ما يتركن لازم يدنا تكون واصلة على طول، لأنه الأفوكاتو بشفط شاي وقهوة، وسيارته تشفط بنزين، وبيني وبينك أبان شريط خانق الرقبة ديل لو ربنا رماك فيهم شفاطتهم ما بتوقف شفط أبدا).

بمجرد عودتهما إلى السوق وجدا رفاقهما في انتظارهما، بوجوه متعبة شاحبة هدها كدح، كَبَد، وكد سألوهما عن الأفوكاتو، أجابا بأنه بصدد الجلوس مع أفوكاتو المحلية، وبعد معرفة نواياهم يتصل علينا ليعطينا رأيه النهائي، تعالت أصوات معترضة على نهجهم، زادت هذه الأصوات بعد أن كانت قليلة:

- (طريقتكم فاشلة، المحامين ناس جرجرة، يلهفون، ويلفون ويدورون وبس، نضيع قروشنا، ونضيع وقتنا وقضيتنا معكم بلا فائدة).

بعد مرور شهر اتصل عليهما الأفوكاتو، ذهبا إليه في مكتبه، بعد أن جلسا خاطبهما قائلاً:

(قابلت مستشارهم القانوني، تحدثنا بطريقة ودية، النتيجة النهائية التي خرجت بها منه أنهم مصرون على موقفهم).

قاطعه بلهجة حادة قائلاً:

(ورينا يا أستاذنا الفاضل موقفهم بالضبط شنو؟)

(موقفهم أن العلاقة بينكما ينظمها العقد الجديد، يعني تنسوا حاجة اسمها حيازة، وحاجة اسمها تمليك).

(طيب يا أستاذ ممكن نشكوهم في المحكمة لأننا مظلومين ظلم الحسن والحسين؟)

(ممكن، لكن الطريق صعب وطويل، نقطة البداية من عندهم، أولاً تخاطبوهم بخصوص موضوعكم، تأخذوا ردهم كتابةً، إن عجبكم الحمد لله، وإذا ما عجبكم تمشوا للجهة الإدارية الأعلى، تشوفوا ردها، إن عجبكم خلاص، وإلا تمشوا للجهة الإدارية الأعلى منها، وهكذا إلى أن تستنفدوا كل الجهات الإدارية حتى آخر جهة أعلى، وبعد ذلك تخاطبوا الجهة القضائية المعنية لتعطيكم الإذن برفع الدعوى لأنهم جهة حكومية).

شكراه على مساعيه وخدماته التي قدمها لهم، على أمل أن يعودا لاستشارته متى ما يكون ذلك ضرورياً، بمجرد عودتهما إلى السوق وجدا الرفاق يترقبون وصولهما على أحر من الجمر، سألوهما عن الأفوكاتو، أجاب عليهم بأنه يقول:

(بالقانون لا يستطيع فعل شيء، لأنه بتوقيعنا على العقد جردناه من كل أسلحته الدفاعية والهجومية، أمامنا طريق واحد وهو طريق المحكمة، وهو طريق شاق، وطويل، ووعر).

تعالى هرجهم، مرجهم، زعيقهم، صراخهم، وعياطهم، وبعد أن هدئوا قليلاً، بقلوب مكلومة، وإرادة مكسورة، وشعور بحقوق مهضومة، فوضوهما إكمال المشوار، اتفقوا أن يفضحوهم إعلاميا بنشر القضية في الصحف اليومية، عليهما ولوج كل الأبواب، وهم من خلفهما لا يبخلون عليهما برأي أو جهد أو مال؛ وبالطبع أصبح

الصوت المعارض أكثر جرأة، خشونة، وقوة، اجتذب إليه عدداً أكبر من المؤيدين لأن الناس عليهم بالنتائج.

أعدا ملفاً جديداً كاملاً بالمستندات، ضمناه سرداً وافياً للحكاية، توخيا الموضوعية بقدر الإمكان، طمعاً في أن يقوم أحد رؤساء تحرير الصحف بتبني قضيتهم، ينشر الحقائق كلها، يخلق رأياً عاماً فاعلاً يسندهم في محنتهم، وربما بذلك يصل صوتهم لمسئولين في أجهزة مختلفة، عسى ولعل أن يتفاعلوا معها بإيجابية بعيداً عن أي تحيز أو محاباة بصفتها قضية إنسانية في المقام الأول، ترتبط بسبل كسب عيش كريم لمواطنين بسطاء؛ ذهبا إلى منطقة مكتظة بدور الصحف، طرقا باب أول دار صادفتهما، قابلا رئيس تحريرها، قرأ الأوراق، هزّ رأسه بعدم مبالاة، وخاطبهما قائلاً:

(آسف، صحيفتنا لا تتناول مثل هذه المواضيع).

ذهبا إلى دار ثانية، أتاهما الرد في لهجة طاردة:

(كفانا مشاكل ما فينّا مكفينا).

لم ييأسا لأنهما مؤمنان بأنه ما ضاع حق وراءه طالب، ذهبا إلى دار ثالثة، رئيس تحريرها رجل وقور، في العقد الخامس من العمر، بنظارة سميكة اطلع على الأوراق، خاطبهما بنبرة متواضعة شجاعة قائلاً:

(أبشروا ترقبوا نشرها على صفحات جريدتنا في الأيام القليلة المقبلة).

شكراه والدنيا لا تسعهما من شدة الفرح، عادا إلى سوقهما، بشرا رفاقاً متلهفين قائلين:

(ترقبوا.. أيام قليلة وصوت قضيتكم يملأ الدنيا ضجيجاً).

عاد مبكراً على غير عادته لبيته، بمجرد أن سمع صغاره صرير الباب تسابقوا نحوه، منهم من مسك بطرف ثوبه، ومن مسك بيده، ومن مسك بطرف كيس فواكه، ضاحكهم وهو يمشي نحو جدتهم، خاطبها بنبرة حلوة قائلاً:

(كيف حالك يا حاجة إن شاء الله طيبة؟)

ردت بصوت ضعيف خافت وسط موجة متواصلة من سعال:

(أهلاً يا ولدي، ما من عاداتك تتأخر، الصحة وين ثاني، الله يحسن العمل، الكحة، والعيون الله يكفيني شرهم).

(دواء الكحة المَعِك كِمِل؟).

(ما مِنُه فائدة).

(خلاص نرجع للطبيب، وبالمرة نقابل طبيب العيون).

أحضرت سعيدة كوباً من ماء بارد، خاطبته قائلةً:

(الجري لمتين؟ الدكاكين تطير خلوها ليهم، الله في).

(يا سعيدة ربنا لا يرضى بالظلم، صاحب الحق لازم يدور على حقه، الساكت عن الحق شيطان أخرس).

(دورتوا، ودورتوا، شن لقيتوا، الحكومة كمان معاها كلام؟).

(أدعي لينا ربنا يقوينا، وقومي يا بنت الناس رصي لينا الغداء، الحاجة جوعانة).

(الحاجة ما لافا زيكم، ولا بطنها لاصقة على ضهرها زيكم).

وضعت كوب شاي أحمر أمامه فوق منضدة خشبية، تأرجح بين صحو ومنام، سمع صوت ابنه محمد يدخل من الباب الخارجي، راح في سابع نومة، لا سأل محمد ولا شرب شاي، لم تدم غفوته طويلاً وإذ بأولاده يربتون على كتفه، يصحونه من نومه، يخبرونه بأن جارهم طه ينتظره بالديوان، مسح على عينيه، غسل على عجل وجهه بالماء، وضع طاقيته الحمراء على رأسه، وذهب إليه، تبادلا التحية، تعانقا في محبة، خاطبه قائلاً:

(وين يا جاري العزيز، مدة طويلة لم تشرفنا بزيارة، الشغل مكتفك للدرجة دي؟).

(شغل الحكومة ما بأكمل؟).

(الأمور كيف؟)

(زي الزفت، الحال باين، ماسورة المويه تنقط نقيط، الكهرباء بالقيراط واط، كان عندك مريض شيل شيلتك، كان عندك ميت شيل شيلتين، قفة الملاح ثلاثة شيلات، فطور المدارس أربعة شيلات، كده بالله عليك، وريني نشيل شنو، ونخلي شنو؟)

(نصيحتي ليك، شيل هدومك وهِجْ، وأعمل حسابك الشفع ما يشوفوك، يسيروك سيرة ليها ضُل).

غرقا في ضحك هستيري، لدرجة أن يده بضربة غير مقصودة، دلقت كوبي الشاي اللتين وضعها محمد أمامهما وهما لا يشعران.

سأله قائلا:

(وأنتم ماذا فعلتم مع دكاكينكم؟)

(جرينا جري الوحوش، لا خلينا محامي، لا جريدة، لا مكتب، ولا فكي، ولسه جارين، نجري لمتين مش عارفين).

(خلاص يا جاري العزيز نربط هدومنا في بقجة واحدة ونَهِج سوى).

رافق جاره حتى الباب الخارجي وهما يموتان من الضحك، ودعه وكل منهما يمني نفسه بهجرة ميمونة في أرض الله الواسعة.

ليلته كانت هادئة، خرج كعادته في الصباح الباكر، ليس من عادته شراء صحف الصباح، ولكنه شعر بدافع خفي يدفعه إلى الذهاب والمزاحمة مع متلصصي- ونصابي القراءة، الذين يقرءون عناوين الصحف مجاناً بمد البصر- من بعيد؛ لم يصدق عينيه، لمح عنواناً بالبنط العريض: (لأصحاب دكاكين الملجة قضية)، صرخ بصوت مكتوم، إنه عنواننا، خطف الصحيفة من يد الشخص الذي كان ممسكاً بها، رمقه ذلك الشخص بنظرة فاحصة، قرأ على عجل، وبعد أن تأكد له بأن رئيس التحرير قد أوفى لهم بوعده أعادها إليه ولسانه يلهج بشكر وثناء، دفع ثمن ثلاث نسخ، لفها وضعها تحت إبطه ويمم شطر دكانه؛ وجد الدكاكين مقلوبة رأساً على عقب، ما من دكان

إلا وبه الصحيفة، تبادلوها في لهفة، قرأوها مرات ومرات، رددوا بعض عباراتها المكتوبة، اثنوا على التي تعجبهم، وانتقدوا التي لا تعجبهم، وهم غير مصدقين، جزء يسير من حلمهم الذي يرونه بعيد المنال ها هو قد تحقق، هدأت نفوسهم نوعا ما، لاح لهم ضوء في آخر النفق، ثم ارتأوا أن يهدئوا من اللعب قليلا، ينتظروا ما تأتي به الأيام القادمة من أخبار، لعل ما فعلوه يكون حجراً يحرك مياهً راكدة.

مرت شهور، تلتها شهور، وما من جديد، خطوتهم التالية كانت بينة واضحة وضوح الشمس في كبد سماء صافية، الوصول إلى المحكمة، مهما كلفهم الأمر، والمحكمة تقتضي. طلوع الدرج الإداري إلى نهايته؛ شمرا عن ساعديهما توكلا على الحي القيوم؛ في طريقهما إلى مكتب صاحب الفخامة السيد الوالي، المكتب الذي لم يحلمان يوما أن تكتحل عيناهما برؤيته، مرا بشارع النيل، طفقا يمدان البصر. مع كل موجة مسافرةً نحو الشمال، مع كل طائر يرشف الماء أو يحلق فوقه، مع كل غصن يتدلى ليقبل الماء فيحول هبوب الرياح بينه وبين مشتهاه، ومع كل نسمة مشبعة بعبير النيل، ذلك العبير الذي يبث الوسن في العيون، يبعث الراحة في النفوس، ويثبت الإيمان في القلوب، نسيا الدنيا وما فيها من بؤس وشقاء، نسيا الملف، الدكان، الوالي، ومكتبه؛ استفاقا مما هما فيه وصوت سائق التاكسي. ينبهما بأنهما قد وصلا؛ ثم بدأت دورة بيروقراطية عجيبة: استقبال، فجلوس، فاتصال، فبطاقات، فدخول، فمقابلة مدير مكتب، فاستلام ملف.. أخذ منهما ذلك ساعة زمان، ولم يزد الرد عن عبارة واحدة: (المراجعة بعد أسبوع، السيد الوالي في زيارة خارجية).

عادا بعد أسبوع، مرا بنفس الدورة، النظام نظام، لا أحد فوق النظام، استقبال، فجلوس، فاتصال، فبطاقات، فدخول، فمقابلة مدير مكتب.. أخذ منهم ذلك ساعة زمان، والرد لم يزد عن عبارة واحدة: (لكثرة المعاملات، المراجعة بعد أسبوع)، عادا إلى سوقهما،

أخبرا رفاقاً متلهفين بما جرى، بثا طمأنينة فيهم بأن الأمور تسير على ما يرام، ومع كل تأخيره خيرة وبركة.

عادا للأسبوع الثالث على التوالي، نفس الدورة والنظام نظام، ولا أحد فوق النظام، استقبال، فجلوس، فاتصال، فبطاقات، فدخول، فمقابلة مدير مكتب.. أخذ ذلك ساعة زمان، والرد لم يزد عن عبارة واحدة:

(لسنا الجهة المختصة، جهة الاختصاص الشؤون الهندسية).

نظر كل واحد منهما في وجه الآخر بعينين تقولان:

(ساقية جحا، تشيل من البحر، وتكب في البحر).

حملا ملفهما، عادا إلى سوقهما، ومع أن اليأس بدأ يدب قليلاً في نفسيهما، إلا أنهما بإصرار منقطع النظير وبإرادة حديدية تعاهدا على عدم رفع راية بيضاء أبداً، لسان حالهما يقول:

(لا يهم، سنمضي حتى النهاية، إحدى الحسنيين، إما نصر، وإما شهادة).

أخبرا رفاقاً متلهفين بالنتيجة النهائية، هللوا كبروا وقالوا لهما:

(اذهبا على بركة الله، ونحن من خلفكما بدعوات صالحات، ما بأيدينا حيلة).

استراحا لعدة أيام ثم أخذا ملفهما وذهبا به إلى الشؤون الهندسية، مرا في الطريق ببنايات شاهقات، بعالم آخر لا يشبه عالم الملجة، بشوارع واسعة لا يختلط فيها حابل درداقات بنابل سيارات، بشوارع نظيفة لا تنقطها أكياس بلاستيك من كل مقاس ولون، لا مكان لبعوض، ذباب، فئران، قطط، كلاب ضالة، خرفان، حمير، وبرسيم، هنا نظام وانضباط، وهناك عشوائية وفوضى؛ قابلا موظف الاستقبال، استلم الملف، أخذ رقم الهاتف، مد لهما ورقة صغيرة، قال: المراجعة بعد أسبوع.

عادا بعد أسبوع، بعد أسبوعين، بعد ثلاثة، وما من رد، في كل مرة يعودان إلى رفاقهما خاليا الوفاض، ويقعد الرفاق يلِتُون ويَعْجِنون:

(تفاءلوا أبشروا بالخير).

(أمورنا الآن في أيد أمينة).

(ديل ما عندهم لعب، أمسك لي وأقطع ليك).

(يا ليت لو يدفعونا أي مبلغ، ويملكونا زي ما عملوا مع غيرنا، نحن مستعدين).

بعد شهرين بالتمام والكمال استلما الرد:

(راجعوا مكتبنا بمنطقتكم).

لم يفهما العبارة هذه المرة، تساءلا فيما بينهما، هل في الأمر مدعاة لضحك أم لبكاء؟ هل الرد سالب أم موجب؟ سأل ود جبر صاحبه سؤالاً لاذعاً قائلاً:

(يا خوي والله حيرونا، ما يدونا قرارهم، ويريحونا، الناس ديل يلعبوا بينا كورة ولا شنو؟ وأنا وإنت طرطورين في الزفة، ماشين وجائيين).

(الباقي لي يا خوي الحكاية ماشه على فرج).

(نحيا ونشوف).

قفلا راجعين إلى رفاقهما بوجهين جامدين، يحملان رداً مفتوحاً، رداً مبهماً، رداً غامضاً حمال معان عديدة، أصلاً رفاقهم منقسمون إلى طائفتين، التي معهم رأت أن التمليك أصبح قاب قوسين أو أدنى، تبادلوا التهاني فيما بينهم، فرحوا، وزعوا ابتسامات، حلوى، بلح، وشربات، والتي ضدهم رأت أن مبتغاهم لم يزل بعيد المنال، وأن الآتي أسوأ، سخطوا، لعنوا حظهم المائل، وأن نهج الدراويش يقود إلى تهلكة، تبادلوا التعازي فيما بينهم؛ كل طائفة شربت من كأسها حتى الثمالة.

ذهبا إلى مكتب المنطقة، اليوم كان قائظاً، درجة حرارته أكثر من خمسة وأربعين درجة سنتقرد، تصبب منهما عرق كثيف، دلهما موظف استقبال على موظف تسجيلات، ذهبا إليه في مكتبه، أكد لهما وصول الأوراق من الرئاسة، أشار عليهما بالذهاب إلى مكتب المدير، دخلاه، بدا لهما أن درجة حرارة المكتب لا تطاق بفعل انقطاع التيار الكهربائي، فعل ذلك فعلته في مدير كبير في درجته صغير في سنه، كان في تلك اللحظة غير طائق لرؤية مخلوق ولو كان أبوه، وقفا أمامه، تلميذان في الصف الأول بمدرسة ود البولاد الأولية، ضن عليهما بكلمة تفضلوا، سألهما باستخفاف قائلاً:

(أها، مالكم عندكم شنو؟)

تمالكا أعصابهما، ردا عليه في منتهى ذوق وأدب، في سبيل دكاكينهم كل شيء يهون:

(جئنا بخصوص موضوع دكاكين الملجة).

(أيوه ملفكم وصل من الرئاسة).

فتح واحداً من أدراج مكتبه، أخرج الملف، فتحه وبدأ يقرأ فيه مبتهجاً:

(القرار هو أن تنسوا مواقعكم الحالية، بدلاً عنها يتم منحكم دكاكين استثمارية في واحد من الأسواق الطرفية، مقابل تسديد ثلاثين ألف جنيه للدكان الواحد).

مثلما درجة حرارة مكتبه مرتفعة، ارتفعت درجة حرارتهما لحدها الأقصى، طلبا منه صورة من الرد، رفض بشدة، مدعياً أن ذلك يخالف اللوائح الإدارية، حرمهما بزندقته وثيقةً جديدة كانت ستجعل ملفهما أكثر قيمةً ونفعا، كبحا جماح غضبهما، لم يتركا زمام الأمور يفلت من بين يديهما، استدركا أن لهما أسراً وأطفالاً يقومان برعايتهما، لذلك صرفا النظر عن تلقين سعادته، بصفته الشخصية، وليست الاعتبارية

درسا لن ينساه أبداً، وما الصفع، الركل، والسحل منه ببعيد، حتى يكون عبرة لغيره من موظفين مغرورين فسدة، تمتم في سره:

(بسطاء هؤلاء الموظفين السفلة، عقولهم ضيقة، لا يقدرون الأمور حق قدرها، كغيرهم يقولون لصانع الأزيار سعرك خرافي، وهل ما تبيعه إلا طين، وأرخص ما في الدنيا الطين، متجاهلين أنهم خلقوا من طين، وأن هذا الطين يحمل في جوفه عرق، تعب، وكد مساكين طيبين).

آبوا إلى رفاقهم، هذه المرة اختلفت عن كل سابقاتها، إنهما يحملان لهم فاجعة، سأل كل منهما صاحبه عن كيفية إيصال هذا الخبر المتعوس، خبر الوفاة؟ بأي طريقة؟ بأي لغة؟ وبأي وجه؟

بدون أيتها مواربة، ومداراة، ولف ودوران، فجرا قنبلتهما الانشطارية، وزي ما تجي تجي، يا أخوانا الواضح ما فاضح، القرار كالآتي:

(تنطوا ليهم دكاكينكم، ويدوكم بدلاً عنها دكاكين استثمارية في السوق الجديد طرف المدينة، ويدفع كل واحد منكم ثلاثين ألف جنيه).

بهتوا، صدموا، أصابهم ذهول وشلل، مكثوا واجمين لفترة طويلة لا يعلم مداها إلا الله، أخفوا رؤوسهم في أكفهم، هذه النتيجة المدمرة ما كانت لتخطر على بال أكثرهم تشاؤما، علت وزمجرت أصوات غاضبة:

(يا أخوانا دي (الموركيه) ذات نفسها حقت أهلنا همج الأنقسنا).

(الحكاية شنو؟ زمان دفعنا مقابل الحيازة، تاني ندفع، لمتين ندفع؟ لمن تقوم الساعة).

(ندفع مقابل شنو؟ مقابل دكان آخر الدنيا، من هو المغفل الذي يمشي إلى هناك ليبيع أو يشتري؟).

(وكمان يركب مواصلات كركوبة).

(ما معروف بِتْبَهدل وبِطَقْطَق بالنهار).
(السوق داك داير ليهُ مية سنة عشان يَعْمَر).
(لمن يدفنونا في التراب ما يَعْمَر).
(يا أخوانا الكلام واضح، خلاص الفأس وقعت في الرأس، قدَتُه عديل، ورونا العمل شنو؟).
(دفقنا اللبن وقعدنا نبكي عليه).
(نطلع مظاهرة).
(ما منها نتيجة).
(نضرب عن الطعام).
(ما في نتيجة).
(نعمل عصيان مدني نقفل الدكاكين).
(يا أبو مخ تخين نأكل من وين؟ لقمة العيش جبارة، ما في نتيجة).
(كل حاجة ما في نتيجة، ما في نتيجة، خلصونا، رسونا على بر)
خاطبهم بنبرة لا تخلو من رجاء قائلاً:
(أدونا فرصة أخيرة، نجرب نواب الشعب، يمكن نصل إلى نتيجة).
رد أحد المعارضين بلهجة ساخطة قائلاً:
(يعني نمرق من السوق زي ما دخلناه، أباطنّا والنجم).
رد آخرون في لهجة برمة قائلين:
(كم سنة ونحن وراكم يا دراويش، ما في فائدة، دكاكينا وضاعت خلاص).
(يا أخوانا كل شيء بأمر الله، على الباغي تدور الدوائر، الواجب علينا نشكرهم، عملوا ما عليهم وزيادة، نديهم آخر فرصة).
(يا أخوانا من سار في الدرب وصل).
جاءت موافقتهم هذه المرة بأغلبية ضعيفة، تعبوا، ملوا، لم تعد الدنيا لهم مفرحة ولا المستقبل لهم مشرقاً، ماتت فيهم جذوة الأمل التي تجعلهم يناطحون الجبال، مات فيهم الصبر الذي يجعلهم

يتحملون كل ألوان العذاب، ماتت فيهم الروح التي تحبب إليهم كل شيء جميل وكل شيء مشرق في الكون.

أقبل شهر رمضان الكريم، الناس يشترون حاجياتهم قبل أن يبدأ، لذلك حركة السوق ضعيفة، الصائمون يفضلون البقاء في منازلهم نهاراً ويسعون ليلا، والمفطرون كلاب رمضان لا يسعون ليلا ولا نهارا، الدكاكين نهاراً شبه مهجورة، وليلاً مغلقة، حالهم واقف، ومع ذلك عليهم أن يدفعوا جبايات، نفايات، وإيجارات؛ اتفقا على تهدئة اللعب في رمضان، ما عندهما قدرة وقوة على المشي، ونواب الشعب إما في إجازة أو في حالة استجمام، واسترخاء، وربنا يجيب العيد، ويكون مجيد وسعيد؛ حل العيد، فرح كل الناس، إلا هم، فرحتهم منقوصة، كيف لهم أن يفرحوا وقطعة من لحمهم أُقْتُطِعت، عيونهم سُمِلت، فلذة من فلذات أكبادهم مُوِتَت؛ ذهب العيد، عادوا إلى دكاكينهم كما يعود نحل إلى خلاياه، يعطي عسلاً ويموت موتا بطيئا.

اتفقا هذه المرة على أن يعملا في صمت، ألا يعلنان عن خططهما إلا بعد الوصول إلى نتيجة نهائية، البناية التي ذهبا إليها مكونة من طابقين، معمارها ممتاز، طلاؤها الخارجي جديد، يخيل للناظر إليها من الخارج أنها مهجورة لقلة داخلين وخارجين، دخلا، وجدا المكان من الداخل في غاية الروعة، نظيف وهادئ، ولجا باب أول مكتب، في حيرة تبادلا نظرات دهشة، أصدفه هي، ضربة حظ، أم قدر مقدور؟ الموظف الكبير الذي طالما أسمعهما كلاماً غليظاً، وطالما كان حريصاً على انتزاع دكاكينهم بكل السبل جالساً متحكراً داخل ذلك المكتب، يبدو أن مزاجه ذلك اليوم كان رائقاً، ألقيا عليه تحية الإسلام، رد عليهما بأحسن منها، أشار لهما بالجلوس على إحدى الأريكتين الموضوعتين بالداخل، بعد أن جلسا خاطبهما بلهجة متعالية قائلاً:

(وجوهكم ليست غريبة علي).

رد بلهجة لا تخلو من عدم استلطاف مبطن:

(وجهك أنت أيضاً ليس بغريب علينا، جلسنا معك أكثر من مرة، تكلمنا معك أكثر من مرة، سمَعْتنا وسَمَعْناك كلام فارغ أكثر من مرة).

(أنتم ناس دكاكين الملجة).

(أيوه، عليك نور، بتعرفنا كويس).

(مالكم ماذا لديكم هنا؟)

(جئنا لنقابل رئيس المجلس، وأنت ماذا لديك هنا؟)

(أدوني مكتب هِنا لأنه هِناك المكاتب مشغولة، وشغلي مرتبط بي ناس هنا).

(قول لينا آخر أخبار دكاكينا شنو).

(شوفوا أنا ماسك الاستثمار كله في المنطقة دي، يعني دكاكينكم داخلة في مجال اختصاصي، في دكاكين كثيرة غير دكاكينكم ما معروف ليها رأس من قعر، رجعتها كلها، رجعت مليارات لخزينة المحلية).

(يعني معنى الكلام ده دكاكينا راجعة ليكم راجعة).

(يمشي عليها ما يمشي على غيرها، القانون قانون).

(قانون حمورابي).

(والله قانون حمورابي، قانون جن أحمر، القانون قانون).

(طيب ورينا مكتب الريس بي وين؟)

(في الطابق الفوق).

ودعاه وخرجا من مكتبه بوجهين عابسين، صعدا الدرج، قابلا شيخاً وقوراً في الممر، سألاه عن الريس، أجابهما بأنه غير موجود، وبأنه مشغول هذه الأيام ويأتي أحياناً، وإذا أرادا مقابلته عليهما أن يأتياه بعد الغد بعد صلاة الظهر، نزلا الدرج، وجدا صاحبهما على وشك أن يفتح باب سيارته الفارهة، دعاهما للركوب معه ليقوم بإيصالهما، الناس في طينتهم طيبون، نسي سلطاته وقوانينه، والحظوة التي يسعي لنيلها من رؤسائه، وأمجاد كاذبة، ومكاسب شخصية، وهما كذلك نسيا الدكاكين والمرارات التي أذاقها لهم،

تحدثوا عن أصولهم وفصولهم، عن الموردة، وعن السمك، وعن الدنيا الواسعة، وما فيها من عقلاء ومجانين، وملائكة وشياطين؛ ودعاه في حرارة، مشيا صوب دكانيهما وهما يهزان رأسيهما في عجب.

اتبعا كلام الشيخ، عادا في اليوم التالي عند الظهيرة، وجدا الريس في مكتبه، قابلهما مقابلةً طيبة، دعاهما للجلوس، وخاطبهما بنبرة هادئة قائلاً:

(انتقلنا لهذا الموقع قبل فترة وجيزة، أمورنا لم نكمل ترتيبها بعد، أعذرونا).

تنحنح، بلل حنجرته ثم حكى له قصة الدكاكين من الألف للياء، وعن كل الخطوات التي اتبعوها، والجهات التي وصلوها، وإلى ماذا أفضى.كل ذلك، وأنهم يئسوا من كل الجهات، إدارية وقانونية، وربما يأتيهم الفرج من الجهات التشريعية، ولم يبق لهم إلا طرق أبواب النواب، نواب الأمة، الذين بثقلهم، سياسي، اجتماعي، ونيابي، يمكن أن يجدوا حلاً لمشكلتهم.

أثنى على كلامه، وعلى الثقة الكبيرة التي يوليها الشعب لنوابه، وبعد أن فكر وقدر خاطبهما بنبرة لا تخلو من مجاملة قائلاً:

(طيب، يبدو أنكم جئتم متأخرين، كان الأوفق أن تأتونا قبل الذهاب إليهم لنتحاور معهم قبل أن يصدروا قرارهم، ولكن تغير الحال الآن، القرار صدر، من الصعب الإلغاء أو التغيير، ولكن دعونا نحاول).

شكرا له سعيه، ودعاه وفي قلبيهما حسرة، كانا يظنان أن طريق النواب مفروش بورود، وأن هؤلاء النواب ما عليهم إلا أن يؤشروا وما على الآخرين إلا أن يطيعوا، وبالرغم من ذلك صمما على أن يكملا باقي المشوار، أن يذهبا إلى نواب المجلس الأعلى.

قضيا وقتاً طويلاً يسألان عن نواب الخدمات الذين يتفانون في خدمة أبناء دوائرهم، أشاروا لهما على ثلاثة أسماء، حفظاها عن ظهر

قلب، استقلا سيارة أجرة تاكسي، في طريقهما إلى بناية المجلس الأعلى، قطعا جسر الحديد القديم الأصفر اللون، انحسرت مياه النيل صارت جدولاً ضيقا، توسع بر الجزر على حساب الماء، جزر ساحرة خضراء، جنان تخلب لباً ونظر، فلاحون يعزقون طين الأرض، يسوون جداولاً، مياه تنساب بين خضار غض، أبقار، عجول، خراف، معيز، وفراخ دجاج، كلها تتهادى، تتخير من عشب أخضر. وخشاش أرض ما تشاء، أينما اتجهت أنظارهما يريان خضرة بدرجات متفاوتة، جمال ما بعده جمال، كم من مرة مرا بهذا المكان، كثير، لكنهما كانا يمران عليه مرور الكرام، في نبرة لا تخلو من فياقة وراحة بال ولو مؤقتة خاطب صاحبه بنبرة رائقة قائلاً:

(سبحان الله، بلدنا جميل، جماله فايت الحد).

رد بنبرة مبتهجة قائلاً:

(كن جميلاً ترى الوجود جميلا).

(الأولى غلط، والثانية صاح، يا راجل اتقي الله، معقول تمشي علينا كن جميلا دي؟).

دخل السائق على الخط، اغتنم الفرصة التي كان ينتظرها لأن الدردشة مع الركاب، كما ترزي، حلاق، وعطار، جزء مكمل لعمله، خاطبهما متسائلاً:

(يعني أنتم ما عارفين حلم الجوعان عيش؟).

(جاء دورك أنت كمان، كلامك ده علاقته شنو بكلامنا؟)

(علاقته إنه إذا كان واحد جوعان سافر سويسرا، خليها سويسرا بعيدة شوية، قول سافر جبل مرة، يأكل جَمَال ولا يفتش على رغيفه يملأ بيها بطنه؟)

(معاك حق لو الجوع شاف الجَمَال لفرم رقبته وشرب من دمه).

خرج ود جبر عن صمته ورد متسائلاً:

(يا حاج أحمد ما تِجَنِنُونا، أسماء الجماعة الماشين ليهم ديل عندك؟).

(الأسماء مكتوبة في ورقة).

أخرج ورقة صغيرة مطوية من جيبه وأشار إليها قائلا:

(ها دي الورقة).

قاطعهما السائق قائلاً:

(يعني أنتم ماشين هناك تقابلوا نواب ما تعرفوهم، الله يكون في عونكم، موضوعكم شنو؟)

(ما سمعته بي دكاكين الملجة؟)

(في زول ما سمع بيها، دي ماليه الجرائد، دائرين منهم شنو؟)

(دائرين نشوف عندهم حل، المُوَدِر يركب الصعب، يفتح خشم البقرة).

(ما ركب معاي راكب في عربيتي دي إلا وقال نفس كلامكم ده، يا ناس ما عندكم حاجة تركبوها غير الصعب، أركبوا الحمير، أركبوا الجمال، أركبوا الطيارات، اركبوا سفن الفضاء، فتشوا ليكم على حاجة تانية، الأرضة جربت الحجر، وما عندكم حاجة تفتحوا خشمها إلا البقرة المسكينة دي، جربوا التمساح، جربوا الأسد، أطلعوا لي فوق شوية).

(يعني حسب علمك يا الأخ، يا تكاسي يا مِفَتِح، الحركة دي ممكن تكون وراها بركة؟)

(نحن ناس تكاسي كنا مفتحين زمان، لمن التاكسي كان تاكسي، وين مع ركشا، أمجاد، هايس، أمشوا للنواب أنتم خسرانين حاجة، السلام عليكم خلاص يا حجاج وصلتم).

هز رأسه واستطرد قائلاً:

(أهو داك المجلس، على الطرف الثاني للأسفلت، الله يوفقكم يا ناس يا طيبين).

نقده أجره، ودعاه شاكرين، وقفا ينتظران انقطاع سيل سيارات متدفقة في الشارع، دخلا من الباب الخارجي للمبنى، دلفا إلى اليمين حيث غرفة موظفي الاستقبال، قرأ الموظف الأسماء الثلاثة المكتوبة على القصاصة، دعاهما للجلوس ريثما يقوم بإجراء اللازم، بعد مرور وقت ليس بالقصير اعتذر لهما عن الانتظار وقال لهما:

(تفضلا، اثنان من النواب الثلاثة موجودان بقاعة استقبال الزوار)، مشيا على مهل، قطعا الفضاء المسفلت الواسع الذي يفصل بين الاستقبال وبناية المجلس، ولجا من عند الباب الداخلي، سألا عن غرفة الزوار، دلهما أحد العاملين عليها، دخلا، وجدا بداخلها شخصين، تبادلوا التحية مع بعضهم البعض، خاطبهما بنبرة هادئة وقورة قائلاً:

(نحن أصحاب دكاكين الملجة، ولنا قضية).

قبل أن يكمل كلامه قاطعه أحدهما قائلاً:

(سمعنا بها وقرأنا عنها في الصحف).

وضع ملفه أمامهما فوق الطاولة وأكمل حديثه قائلاً:

(الحمد لله أنتم على علم بقضيتنا وغير محتاجين لتوضيحات، ومع ذلك هذا هو ملفنا تحت أيديكم به كل المستندات، المكاتبات، والقرارات الإدارية التي صدرت في حقنا).

(نعم نحن كنواب للشعب من واجبنا خدمة مواطنينا، ولكن ما هو المطلوب منا فعله تجاهكم؟)

(لدينا مطلبان، الأول لنا حيازة دفعنا فيها دم قلبنا نريد أن نعرف مصيرها، الثاني نريد أن يملكونا دكاكينا التي بنيناها بعرقنا مثلما ملكوا غيرنا).

طيبا خاطريهما بناعم كلام، امتصا غضبهما، بذلا لهما من وعود ما أسكرهما وأنساهما ما هم فيه من هم وغم، وعداهما خيراً، سيبذلان كل ما في وسعهما لإيجاد الحل المرضي لكل الأطراف، أخذا رقمي هاتفيهما على أمل الاتصال بهما.

مضت شهور، ولا اتصال منهما، خاب ظنهما فيهما، بدا لهما أن مشوارهما قد أوشك على الانتهاء، تبقت لهما خطوة واحدة إن كان في عمريهما بقية، قبة البرلمان، تلك القبة التي لا تشبه قباب أضرحة أولياء الله الصالحين، تحت سقف الأولى أناس يسعون في مصالح الناس، وتحت سقف الثانية ثرى يضم رفات صالحين كانوا يهتمون بأمور الناس، إنهما يستجيران بجاه الاثنين أموات وأحياء، لعلهما يجدان الحل لمشكلة عويصة سلبت منهما كل شيء، جعلتهما يتيهان في مجاهل تيه بغير هدى.

نما إلى علمهما أن الدورة البرلمانية الجديدة قد بدأت، من حسن طالعهما أن هموم الناس من أولويات اهتمامات هذه الدورة الاستثنائية، إنهما يعرفان حق المعرفة عدداً لا بأس به من نواب أجلاء، أخذا ملفهما، الذي تغير لونه وملمسه من المرمطه والطلوع والنزول، استقلا سيارة تاكسي، مرا بقبة الإمام المهدي، عبق التاريخ أنعش ذاكرتيهما، سأل صاحبه قائلاً:

(لولا الإنجليز عليهم لعنة الله، ولو استمرت دولة المهدية، كيف كان يكون حالنا اليوم، وكيف يكون حالنا في المستقبل؟)

رد ود جبر في نبرة لا تخلو من حسرة قائلاً:

(رجعنا ثاني لي لو ولو، لولوتك دي لازم تكدرنا بيها، بالتأكيد يكون أسوأ مما نحن عليه الآن).

تدخل السائق خاطبهما بلهجة لا تخلو من استغراب قائلاً:

(إجابة غريبة!).

(كيفن غريبة؟)

(غريبة لأنه مش ممكن أجنبي كافر يكون أفضل من ود بلد مسلم).

(يا ابن العم الحكاية مش أجنبي ولا وطني، الحكاية في النهاية عدل، من يعدل هو الأفضل).

(المسلم يعدل، والكافر عمره ما يعدل).

(الله أعلم، من هو المسلم، المسلمين أنواع، فيهم صالح وفيهم طالح).

خوفاً من أن يكون السائق واحداً من الجماعة إياهم، الذين يجرجرون الناس في الكلام، وبعدين سين وجيم ومحاضر، ووييك ووااك، وسييك ومييك، خاطبه ود جبر بنبرة هادئة قائلاً:

(يا سواقنا الزول ده معذور، سيبك من كلامه).

هش لثلاثتهم جريد نخل مغروس في الشوارع، مروا ببوابة عبد القيوم، ترنم مدندنا: (أنا الطابية المقابلة النيل.. أنا العافية البَشِد الحيل)، دغدغت أنوفهم رائحة سمك مقلي، سمك فاسد، أمعاء، زعانف، رؤوس سمك مرمية، قطط، وكلاب، عرفوا أنهم يمرون بالموردة، موردة درمان وأمه الصالحة، ثم لاحت لهم قبة البرلمان بلونها الفضي، استدار السائق بسيارته وقف على مبعدة من البوابة الرئيسة، نقده أجره، ودعاه شاكرين، توجها نحو غرفة الاستقبال، سألا عمن يعرفان من النواب، أخذوا اسميهما، طلبوا منهما الجلوس، أجروا اتصالات هاتفية، أعطوهما بطاقتين، سمحوا لهما بالدخول، قابلا الثلاثة الذين يعرفون، أعادا على مسامعهم نفس أسطوانتهم المشروخة، ببغاوان يرددان عبارات محفوظة استلموا منهما الملف، طيبوا خاطريهما بحديث حلو، أخذوا رقمي هاتفيهما على أمل الاتصال بهما إن جد في الأمر جديد؛ عادا إلى سوقهما بخفي حنين، جاء الكفيفان صابر وصبري إلى الدكان، جاءا كما يجيئ المطر، يحملان معهما خيراً، بركةً، ونضرة، جلسا معه في دكانه الضيق الذي

صار أكثر ضيقاً لتكدس البضاعة فيه، وبعد أن شربا شاياً أحمراً حكيا له عن أحوالهما.

خاطبه صابر قائلاً وهو يكاد يموت من الضحك:

(بالأمس حكي لنا واحد مطموس حكاية، قال: ثلاثة عميان ودوهم لي مزرعة فيها فيل أليف، قالوا ليهم تحسسوه وبعدين وصفوه، الأول مسك بأرجله وقال: أربعة أعمدة، الثاني مسك بخرطومه وقال: ثعبان، الثالث مسك ذنبه وقال: مكنسة، وقامت الشكلة بين العميان، كل واحد منهم يقول أنا صاح والباقين غلط).

رد متسائلاً:

(وأنت رديت عليه كيف؟)

خرج صبري من صمته وخاطبهما مازحاً قائلاً:

(يا حاج أحمد ماك عارف صابر أخوي، ما يفوت كلمة، يعمل من الحبة قبة).

ضحك صابر ورد بابتسامة عريضة:

(قلت له يا ولد عيب عليك، ألعب بعيد، الكلام ده ممكن إذا كان الثلاثة ولدوهم عميان، وأنا وأخوي ولدونا مفتحين، يعني عارفين الفيل كيف، والأسد كيف، والفأرة مِثْلَك كيف).

رد بنبرة ضاحكة قائلاً:

(والله يا شيخ أدبته، لقنته درس قاسي لن ينساه، ثاني لمن يسمع ليهو كلام فاضي، أولاً يفهمه وبعدين يفكه في الهواء).

أوعزا إليه بأنهما جاءا ليودعاه لأنهما بعد طول غياب سوف يغادران إلى البلد صباح الغد، تمنى لهما سلامة الذهاب وسلامة العودة، وعدهما بملاقاتهما صباحاً بموقف الحافلات ليقوم بوداعهما وداعه الأخير.

بر بوعده، قبل شروق الشمس وصل إلى موقف الحافلات وبيده اليسرى حقيبة بها ثياب نسائية وباليمنى كرتونة معبأة بفاكهة، بحث عنهما، رآهما على وشك الصعود إلى الحافلة، هرول نحوهما، حياهما، مد إليهما الحقيبة والكرتونة وخاطبهما بنبرة مفعمة بالحب قائلاً:

(أمسكا هدايا الأهل يا أحباب الله).

ردا في صوت واحد:

(لماذا التعب يا حاج أحمد، جزاك الله عنا ألف خير).

ظل واقفاً يتبادل معهما الأحاديث من خلال النافذة إلى أن بدأت الحافلة في التحرك، رفع يده مودعاً، سرح مع خواطره وهو ينظر إليهما والحافلة تبتعد، تتوارى مع منحنيات شارع الإسفلت: (وجه جده آدم العجوز الكفيف يضيء بالنور، ابتساماته ترف على شفتيه، يسبح بمسبحته في خشوع، يمسك بعصاه يتحسس بها سجادة صلاته وأبريقه، يحمد ويشكر الله في صفاء روحاني إيماني عجيب، عادت له كل أحداث وادي العميان، حياة النور وحياة الظلام)، قال في سره:

(النعمة لا يذوق طعمها، ولا يحس بها، ولا يقدرها حق قدرها، إلا من فقدها، الحمد والشكر لله على نعمتي البصر والبصيرة).

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى، بعد أن استبدلت جبنته الفارغة بأخرى ملأى، (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة ستين فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله،

صـورة مقلوبـة، مغلوطـة، مخلوطـة، معجونـة، كراكـة، دفـار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلـة وبأيـديها الحـراب ودروع، جيـوش إنجليزيـة ببنـادق، مـدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشـف رشـفة عشرـ مـن كـوب قهـوة ثقيلـة، وكأنمـا رشـف مزيجـاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(١٢)

سهل أغنام

يرى جده آدم الشيخ العجوز الوقور مرةً أخرى تشع من وجهه هالة من نور، علامات الشيخوخة تظهر عليه ظهوراً بائناً، راه يخرج عن صمته وإطراقه، بدأ في الحديث إليه، خشي عليه من أن ينطق بكلام طير في (باقير)، حكاياته في كثير من الأحيان كانت تطفح بهذرات لنبوءات لا يستسيغها واقع ولا خيال، في تلك اللحظة من لحظات صفائه، وصحوته، وإلهامه، سمعه يقول وهو يمشط بأطراف أصابعه شعرات لحية خفيفة بيضاء كبياض الثلج، مسترسلة منسدلة كحرير كرات نبات العشر، نبتت على جلد ذقن مجعد خشن:

(الدنيا ليست التي خبرناها يا ولدي، انعدمت فيها البركة، وقل المطر، البذور لا تنبت، النسوان لا يلدن، وإن ولدن، المولود إما خليقة، وإما عبيط، وإما ميت).

رد عليه بنيرة ملؤها أدب واحترام قائلاً:

(يا جدي العيب ليس فيها، العيب فينا نحن، نسينا خالقها فأنسانا أنفسنا، وصدق من وصفها بفتاة لعوب، إن طلبناها تمنعت، وإن أهملناها أقدمت، ماتت فينا تعاليم وشرائع السماء، ماتت مبادئ مثل، وقيم، ماتت الروح فينا وبقي الطين).

أغمض عينيه، راح في ملكوت آخر، مضى زمن في حسابه قصير لا يتعدى دقائق معدودات، ولكن في حساب جده لا يعلم مداه إلا الله، ثم همس له بنبرات خافتة:

(هناك حكاية يا ولدي تناقلناها جيل بعد جيل، حتى وصلت إلى جيلنا نحن، عهد موثق علينا أن يتصل تواترها ولا ينقطع إلى أبد الآبدين، لذلك اسمعها جيداً ولا تترك كلمةً واحدة تفوتك أو يستعصي عليك فهمها).

أجابه قائلاً:

(اطمئن يا جدي سأحفظها كحفظي لسورة الفاتحة، وحقك عَلي كما رويتها أنت لي أن أرويها بصدق لأولادي وأحفادي من بعدي).

همهم وغمغم، بلل حنجرته بلعابه كما كان يفعل دائماً عندما يريد أن يدلي بحديث مهم، وهو لا يختلف في ذلك عن أي زعيم يخاطب شعبه في لقاء حاشد، لا ينقصه ليكون مثله إلا مكبرات صوت، وكاميرات، وصحافيين يلتقطون كلماته كما يلتقط دجاج حباً من على الأرض، ثم قال:

(الحكاية يا ولدي وما فيها، أن قطيع الغنم الأول كان يعيش في سهل أخضر- ممرع نضير يقع بين نهرين جاريين حيث تنمو أنواع عديدة من أشجار، حشائش، وزهور، تجري خلالها جداول وعيون؛ لا يشاركها هذه الخيرات حيوان آخر، أي حيوان غريب يقترب منها - مهما كانت درجة شراسته، أسد، فهد، نمر، ذئب، كلب مصيره الهرب، كلهم يعملون لها ألف حساب قبل ما يفكروا في الاقتراب منها، جيش الغنم بقرون مسلولة يقف لهم بالمرصاد، حياتها منظمة، وأمورها ماشه عال العال، تتفاهم فيما بينها بلغة صوتية حركية ؛ طاب لها المقام، تكاثرت وتضاعفت أعدادها مع مرور الأيام، ثم أتى ذلك اليوم المشؤوم، ضاق السهل الأخضر- بأهله من الغنم، كالنار في الهشيم استشرت بينها فتن، دسائس، ومكائد، تحزبت إلى شيع، فرق، وأحزاب حسب ألوان صوفها، حزب غنم بيض، حزب غنم سود، حزب غنم حمر، وحزب غنم شقر، كل حزب بما لديهم فرحون، كل حزب يتبجح بمصالح ومطامع خاصة، كل حزب في خفاء يدبر مكائد

ويضمر أحقاد، يدعي كل حزب أن له الحق، كل الحق في قيادة، زعامة، ورياسة، وقعت معارك طاحنة، رفسٌ بالأرجل، نطحٌ بالرؤوس، طعنٌ بالقرون، ارتوت أرض السهل بالدماء، تسللت خلسة الغنم الضعيفة هاربة، تاهت في أرض نائية غريبة، أمسك بها الإنسان، سخرها كما يشاء، حلب لبنها، أكل لحمها، صنع بجلدها قرباً لحفظ ماء شربه، فرشاً ينام عليه، غطاءً لخيامه، وسقفاً لبيته، بصوفها نسج لباساً وغطاءً يحميه زمهرير البرد القارس؛ رغبة الإنسان في ترويض المزيد منها تعاظمت، والطمع ودر ما جمع، دفعه ذلك للبحث عن موطنها الأصلي، بعد جهد جهيد، وصل في النهاية إلى ذلك السهل، تضعضعت حياتها أمام قوته، دهائه، ومكره، وقبل أن تتفرق وتشتت في أنحاء الأرض تداولت حملان صغيرة، وصيةً غالية، أمانة من غنم مسنة حكيمة).

ابتسم بسمة ضاحكة وتعابير وجهه لا تخلو من دهشة واستغراب ثم قاطعه متسائلاً:

(وهل يا جدي من بين غنم مسكينة وادعة غبية من يستحق كلمة حكيم؟).

حك فروة رأسه بسبابته في بطء ثم بادله ابتسامته بابتسامة أعرض منها، مملوءة طهرا، نقاءً، وجلالا، ثم خاطبه بنبرة مشحونة بعبق سنين قائلاً:

(نعم يا ولدي الغنم لا عقول لها، ولكنها تدرك ما ينفعها، يصلحها، ويضرها، المهم يا ولدي أن وصية الغنم، أمانتها، نبوءتها المخزونة، فحواها يقول: «يا أيتها الغنم البائسة المسكينة، في كل وادي، في كل سهل، في كل مرعى، وفي كل حظيرة مفتوحة أو مقفولة، إياكم ويأس وقنوط، سوف يكون لكم شأن عظيم في يوم من الأيام، سوف تعثر أخت لكم أصيلة، دمها زكي غنمي خالص، لا يشوبه دم عنز، أو أيل، أو أي حيوان آخر، تخرج من بينكم، تكون هي

المحظوظة الموعودة بالعثور على شجرة إكسيركم المفقود، بمجرد أن تمضغ أوراقها السحرية، وتبتلع عصارتها، سوف يتغير حالها، تتضاعف قواها، تنحل عقدة لسانها، وبذلك.. يكون في مقدورها إعادة ما فقدتموه من روح قطيع واحد، وجمع شملكم لتقفوا صفاً واحداً منيعا كبنيان مرصوص في وجه عدوكم الإنسان، ومقارعة سفهاه حجة بحجة؛ وفي نهاية المطاف على أسنة قرونكم يكون خلاصكم من ربقة عبودية، ظلم، واستغلال، والانطلاق إلى رحابة حرية، عدالة وسلام؛ يومئذ ستتمتعون بحقوقكم التي أهدرها الإنسان، ولم يعبه لها أبداً، وظل سادراً في غيه، وصلفه، وجبروته، وطغيانه»).

رأى جده يتثاءب، غشته نوبة طارئة من نعاس، خشي- من أن يسكته سلطان النوم، فتضيع منه إلى الأبد خاتمة هذه القصة العجيبة، ومن حسن طالعه أكمل جده على عجل قائلاً والحروف تخرج بصعوبة من فيه:

«وهكذا يا ولدي إنك ترى الغنم دائماً لا ترضى ولا تقنع بنوع واحد من العشب، ولا بمرعى واحد، دائماً تركض نحو مروج عالية، دائماً في حالة استكشاف لما حولها، إنها في حالة بحث دائم عن شجرة إكسيرها المفقود».

أمال رأسه على الوسادة الموضوعة بجانبه، وراح في سبات عميق.

كرت السنون، مات جده، نسي. مع هموم الأيام تلك الحكاية، ولا يخفي سراً أن جده في أواخر أيامه كان يخلط معقولاً بلا معقول، يخلط بين أحاجي، أساطير، وخرافات مختزنة في قاع ذاكرته، ربما كان عقله في حاجة إلى بعض قطع غيار تجعله يعمل بكفاءة أكثر، وبمعقولية مقبولة، خياله الطاعن في السن كان يصور له في أحايين كثيرة الأمور بالمقلوب، إلى أن حدث ما حدث!، كيف حدث؟ الله ورسوله أعلم؛ قرأ في إحدى المجلات التي تُعْنَى بغرائب وعجائب هذا

الكـون قصـة طريفـة ادعى كاتبهـا بـأن أحـداثها واقـع لا خيـال، وأن مسرحها جزيرة نائية من جزر البحر الكاريبي، فحواها يقول:

(أصابت الدهشة رجل الأمن الذي كان يحرس بوابة بناية البرلمان في تلك الجزيرة النائية وهو يرى خروفاً يتجه نحوه في خطوات ثابتة، مرفـوع الـرأس، لا يأبـه لغـادي ولا رائـح مـن مخلوقـات الله، زادت دهشته أكثر لما وقف الخروف أمامه وخاطبه بلغة سليمة، في أدب جم، بعد أن ثغا ثغاءً حلواً:

(أريد مخاطبة النواب، الذين يمثلون إرادة شعوب هذه الجزيرة، أريد أن أخاطب الجميع بكافة ميولهم واتجاهاتهم، ليبراليين، يمينيين، يساريين، متطرفين، معتدلين، ومستقلين، لا أستثني منهم أحداً أبداً لأن الأمر جد خطير، جزيرتنا في كف عفريت، إما أن تكون أو لا تكون، إنها تغرق، تغرق، تغرق، وإن غرقت لن ينجوّ أحد).

استسلم الحارس - الذي صُدِم ودُهِش لما يرى ويسمع - إلى نوبة متصلة من الضحك، سقطت قبعته من على رأسه، سقطت بعض أوسمته ونياشينه من على صدره، فرك عينيه لعدة مرات، ثم حدق بنظره أكثر وأكثر فيمن يقف أمامه، هتف قائلاً بعد أن تبين له أن الواقفة أمامه نعجة وليس كبش:

(من تنوي أن تخاطبين أيتها النعجة المسحورة المعتوهة، أيتها الموبوءة بجنون غنم، بقر، وخنازير؟ أعجوبة من أعاجيب الزمن أن تأتي أيتها النكرة البائسة طالبةً دخول هذا المكان المقدس الذي لم يحلم سيدك يوماً برؤيته ناهيك عن أن تتطلعي أنت إلى دخوله، غوري من وجهي أيتها البلهاء أذهبي لتدري اللبن لعيال سيدك الغافل الذي حسابه عندنا عسير، طحنتنا مصائب الدنيا ولم يبق إلا أن تأتي أنت يا حثالة غنم لِتُكْملي ما بقي منها).

كسـت وجههـا الوديـع تعـابير باسـمة، تألقـت عيناهـا الواسـعتان البيضاوان بشعاع من نور، انتصب رأسها كرأس وعل وحشي. جميل،

مسحت حوافرها بدلال على طرف رصيف شارع منمق بحصباء ملونة، أمالت رأسها يمنةً ويسرى، فتمايل كيس كبير يتدلى من شريط حول رقبتها، همست بدلال في أذنه بنبرة رقيقة قائلةً:

(اسمي يا حارسنا العزيز (لوريكا)، تعني في لغتنا (المنقذة)، إن الأمر الذي جئت من أجله جد خطير، إنه يمس الأمن القومي، يمس الوحدة الوطنية، يمس التعايش السلمي بين مكونات مجتمعات فئات هذه الجزيرة الفاضلة، من بشر، حيوان، وحشرات وغيرها.. يمس.. ويمس.. ويمس.....).

قبل أن تكمل باقي حديثها قاطعها قائلاً في عجرفة خفر، بوليس، وعسكر استمرأوا إصدار أوامر تقابلها طاعة عمياء:

(إن كان الأمر فعلاً كما تقولين أيتها المعتوهة البلهاء، اذهبي، غوري من وجهي، خبري ما تصادفين من جهات أمنية، استخباراتية، ووكالات متخصصة، ومنظمات مجتمع مدني، ولا تنسي- منظمات الرفق بالحيوان، التي تهتم بشؤونكم وأموركم).

ردت في نبرة لا تخلو من أسى قائلةً:

(ذهبت إليهم كلهم، قبل مجيئي إليكم، لا أذن سمعت، ولا عين نظرت، سخروا مني طردوني شر طرده، قذفوني بأقذع شتائم، نعتوني بأشنع أوصاف، هددوني وخفت أن يقتلون).

قال في برم وسخط بعد أن نفذ صبره:

(أنصحك أيتها البائسة أن تذهبي إلى سيدك، لعله يجد لك علاجاً ناجعاً من القراد الذي نخر في جمجمة رأسك وأصابك بالجنون، عسى أن يريحك من الحال الذي أنت فيه، ولا تنسي- أن سيدك يتمتع بشخصية اعتبارية، ويمكنه التحدث بحرية نيابةً عنك أمام كل المحاكم، جنائية، مدنية، شعبية، دستورية، وأمام كل الإدارات، مدنية وعسكرية...).

قبل أن يكملا حديثهما تنامت إلى أسماعهما جلبة تزاحم ألوف مؤلفة من أغنام آتية من الاتجاه المعاكس وهي تثغو في أصوات منغمة، وعلى ظهورها لُفت لافتات مكتوب عليها بخط جميل:

(لن نتهاون أو ننهار أو نغفو، ما بقي فينا خروف يثغو).

(حوافرنا حديد لصياغة غد مشرق جديد).

(وعد الجدود مصون في حدق العيون).

هنا ازدادت حماستها، خاطبته بلهجة حاسمة بجرأة لم تعهدها في نفسها من قبل:

(خذ يا أيها المسكين من هذا الكيس الذي يتدلى بحبل من رقبتي ما يعينك على مجابهة مصاعب الحياة، واتركني أمضي في طريقي بسلام).

تطلع بعيون خائفة وجلة في صفوف غنم متراصة، وإلى جموع غفيرة من سكان الجزيرة، فضوليين يقفون مشدوهين، دس يده في الكيس، رفع بيده الأخرى جهاز اتصال، قال على عجل كلمات معدودة، ثم خاطبها في نبرة جديدة لا تخلو من أدب واحترام قائلاً:

(تفضلي بالدخول يا أيتها المناضلة الشريفة).

قبل وصولها إلى مدخل القاعة تحلقت حولها مجموعة من مصوري محطات تلفاز، ومندوبي صحف وإذاعات عالمية، توهج المكان بأضواء آلات تصوير، تزاحموا حولها وهم يمطرونها بوابل أسئلة...

(بوصفك زعيمة لهذه الحركة الثورية، هل لنا أن نعرف شيئاً عن سيرتك الذاتية؟).

(إننا نطمع في الحصول على نبذة من تاريخك النضالي، والشعارات التي ترفعونها، والخط الأيديولوجي الذي تتبعونه).

(هل لك أن تجودي علينا بفكرة مبسطة عن المراحل التنظيمية التي مرت بها حركتكم؟).

(نود أن نعرف مطالبكم بالتفصيل، وما هي خطواتكم القادمة إذا ما وصلتم إلى طريق مسدود في مفاوضاتكم مع نواب الجزيرة؟).

(هل ستنبذون الإرهاب، والطعن بالقرون، والركل بالحوافر، وتتبنون الخط السلمي؟).

(هل هناك جهات خارجية تقدم لكم الدعم والمساندة؟).

(هل...؟ وهل.....).

ثغت ثغاءً مملوءً عزاً وفخاراً، تجاوب مع صداه ثغاء غنم واقفة أمام المدخل، وحول سور بناية البرلمان، هزت رأسها، تلفتت يمنةً ويسرى، طقطقت برفق بأشياء كثيرة كانت تتدلى بحبال من رقبتها، ثم أجابتهم بلطف وكياسة، كما يفعل سياسيو هذه الأيام، الذين يقطبون وجوههم في صلف وتكبر، مدعين علمهم بكل شيء في الوجود، لا تخفى عليهم خافية، لديهم الحل لأي مشكلة، لديهم العلاج لأي مرض:

(أيها الأعزاء، لحساسية اللحظة، ستتكشف لكم إجاباتي على كل هذه الأسئلة بعد مقابلتي لرئيس البرلمان، أتمنى أن تكون امرأة، لأن مراسها سوف يكون سهلاً، ولأننا نفهم بعضنا بعضا لحد ما، فإن الوصول إلى اتفاق حول المسائل المطروحة للحوار والنقاش بيننا لن يكون صعباً).

وصلت الأخبار على جناح السرعة إلى أمين عام البرلمان، والتي مفادها أن غنم الجزيرة في مظاهرة سلمية تحاصر بناية البرلمان، وأن لهم زعيمة تعقد الآن مؤتمراً صحفياً في بهو القاعة الخارجي، وأنها تدلي بتصريحات وتهديدات خطيرة؛ لم يضيع الوقت، خشي على نفسه من أن يحملوه مستقبلاً مسئولية ما يمكن أن ينجم من تداعيات غير محمودة العواقب؛ الوضع المتأزم يجبره على الاتصال على عجل برئيس البرلمان الذي كان وقتها يترأس جلسةً غير عادية مع

بعض سفراء الدول، أفضى إليه بأن الوضع خطير، وأن الأجهزة الأمنية غير قادرة على السيطرة، أوقف الريس جلسته وخرج على عجل.

بمشقة وجهد جهيد مرق من بين الزحام، وضع نظارته الطبية السميكة على عينيه ثم رفعها، فرك عينيه ثم وضعها مرةً أخرى وهو غير مصدق لما يرى ويسمع، ولما وصل قبالتها، خاطبها بلهجة لا تخلو من قرف واشمئزاز، والدهشة تملؤه من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه:

(يبدو أن علامات الساعة الكبرى قد بدأت في الظهور، أكُلُ هذا الهرج والمرج بسببك أنت أيتها النعجة العاهرة التافهة المهينة؟).

ازدادت دهشته أكثر عندما سمعها ترد عليه في نبرة واثقة ثابتةً:

(اسمي (لوريكا)، (المنقذة)، إذا لم يأت الزمان بما تريدون وتشتهون يا بني الإنسان تنعتونه بأبشع النعوت، وإن صفا ولان لكم تنسون أن هناك شيء اسمه زمان، يا سيادة الريس إن الأمر بلغ أقصى درجات الخطورة، تعدى كل الإشارات، خضر، صفر، وحمر، إنه يتعلق بدستور، قوانين، وتشريعات هذه الجزيرة...).

(في هذه الأثناء زادت الغنم من جلبتها، هتفت هتافاً متصلاً، ثغت ثغاءً عالياً).

أرغى وأزبد الريس، في حدة سخط وشحط في وجهها بلهجة غاضبة قائلاً:

(افصحي عما تريدين أيتها النعجة البليدة البلهاء، وعودي على عجل إلى حظيرتك قبل أن آمر بتأديبك الأدب اللازم، الذي يجعلك ترين نجوم الليل في عزّ الضحى، لا وقت عندي للمضيعة معك في سفسطة وجدال أجوف).

ردت عليه في عزيمة لا تعرف خورا، ومداهنةً، و خوفا:

(أريد مخاطبة نواب شعب الجزيرة المهندمين، المنعمين، المتورمين بشحم ولحم، الجالسين هناك على أرائك قاعة لا تعرف شمسا ولا زمهريرا).

رد في لهجة لا تخلو من تأفف واستخفاف قائلاً:

(ولكنك أيتها البهيمة النكرة لا تتمتعين بهذا الحق).

ردت بلهجة صارمة قوية قائلةً:

(صدقت أيها الإنسان المبجل، يجري علينا ذلك ونحن حيوانات خرساء لا تنطق، ولكنك ترى الآن في هذه اللحظة التاريخية الفارقة، الفارقة بين ظلم وعدل، بين ماضي مظلم وغد مشرق، أن فينا الآن من ينطق، يجادل، ويشاغب، بل ولديه القدرة على أن يقاتل، أترى تلك الحشود الهائلة الواقفة هناك؟ إنها تنتظر إشارة، إشارة واحدة مني، لكي تأتي بما يجعلكم تتسابقون إلى جحوركم).

انبسط وجهه المتجهم قليلاً، لأنه أدرك الآن أن كلامها لا يخلو من تهديدات مبطنة، وأنه لا يخلو من صواب، همس لها بنبرة خفيضةً قائلاً:

(ولكن يا عزيزتي لا تنسي أن أعضاء البرلمان يرعون على السواء، مصالح من ينطقون ومن لا ينطقون).

ردت عليه في نبرة هادئة لا تخلو من طول بال قائلةً:

(يا صاحب الفخامة هل تستطيع أنت نفسك أن تقيس، وتستقرئ، وتستنبط مصالح من ينطقون، دعك من الذين لا ينطقون؟).

أطرق لبرهة قصيرة ثم قال بنبرة مستكينة:

(حسناً سأحاول تدبير الأمور بقدر الإمكان، أتبعيني).

مشى أمامها بخطوات مرتجفة، وبأفكار مشتتة، وبرأس ثقيل يتلفت يمنةً ويسرى بفعل دهشة لبسته، وخوف تملكه، مشت من

ورائه في خطوات ثابتة مرفوعة الرأس، طقطقت بحوافرها على بلاط مموه بطقطقة مدوزنة منغمة:

(طَقْ...طق...طق.....).

ضجت القاعة الكبرى بقهقهة، امتلأت بغمز، لمز، زفير، شهيق، ونهيق حين دخل ريسهم من الباب ومن ورائه خروف، تهامسوا فيما بينهم بأن عقله طار، وأصيب بلوثة جنون غنم، بقر، وخنازير.

ضرب على المنصة بقبضة يده في غضب بائن، ثم خاطبهم بامتعاض بلهجة آمرة قائلاً:

(يا نواب هذه الجزيرة الآمنة أنصتوا وعوا، يبدو أن زماننا هذا هو زمان الأعاجيب، غنم جزيرتنا تحزبن وتنظمن، ها هي الآن تقف حول أسوار برلماننا، تحاصرنا من كل الجهات، زعيمتها كما ترون واقفةً أمامكم - أشار بيده نحوها- تريد أن تخاطبكم في أمور تتعلق بدستور، قوانين، وتشريعات جزيرتكم العامرة).

وقف عضو بارز، صاح في لهجة ساخنة، والزبد يتطاير من بين ثنايا أسنانه التي نخر فيها السوس:

(ماذا يعني هذا الكلام يا سيادة الريس، إنه يعني شيئاً واحداً، أن هناك جهات متطرفة، لا تريد الخير لجزيرتنا، اتصلت بهذه الغنم الساذجة ولوثت أفكارها، لقد كانت هذه الغنم حتى الأمس القريب هادئةً وادعة، قانعةً بما نوفره لها من عيش رغيد، إنني أقسم جازماً أن غنمنا أسعد حالاً من مثيلاتها في جزر مجاورة، لا تتعرض لإهانة، لا تتعرض لسوء معاملة، لا تخشى نقصا في ماء، أو كلأ، أو مرعى).

وقف آخر، نظر يمنةً ويسرى، عبس وبسر، هز كتفيه ثم قال:

(إن الأمر برمته يعني أن أجهزة الأمن في هذه الجزيرة لا تقوم بواجبها على الوجه الأكمل، خلال الثلاثة أشهر الماضية امتلأت أعمدة الصحف بإعلانات عن غنم مفقودة، لم تحظ هذه الظاهرة بعناية، دراسة، وبتحليل مطلوب، والآن، الآن اكتملت خيوط

المـؤامرة، النتيجـة ماثلـة أمـامكم، نتيجـة حتميـة لغيـاب حـس أمـني وإهمال، إنكم ترون بأم أعينكم زعيمتهم بجلالة قدرها أتت إلى بناية برلماننا لكي تتفاوض معنا، اليوم ضاعت قدسية هذه البناية، تدنست أرضـها بـأن وطأتهـا حـوافر غنميـة قـذرة، اليـوم في نظـري يمثـل نهايـة تـاريـخ جزيرتنـا الإنسـاني المتحضر؛ الغـنم البهـائم المتخلفـة السـاذجة واقفة بالخارج تمارس ضغوطاً ابتزازية علينا، إنه تحد سافر لنا، ولأمن جزيرة رائعة، ولتاريخ عريق مجيد، ولحاضر مشرق، ولمستقبل واعد، لا بد من أن نضرب بيد من حديد على كل خائن، عابث، متخاذل، مقصر، ومتواطئ، لتفهم كل فئات الحيوان الأخرى بأننا لن نتساهل أبداً، لن نتهاون أبداً، وأن سنة الله في الكون ماضية في هذه الجزيرة أبد الآبدين؛ لكم أن تتساءلوا من أين لهذه الأغنام البليدة العبيطة الحصول على أقمشة؟ ومن أين لها الدراية بكتابة على لافتات؟ لولا أن هناك متواطئون من بيننا نحن البشر قدموا لها مادة خام، خبرة، ومعرفة تكنولوجية لفعل ذلك؟ أضربوا على هؤلاء الخونة المارقين على إجماع الشعب بيد من فولاذ وليس من حديد، بيد لا تعرف رحمة، لا تعرف إلا تنكيلا، تعذيبا، وتقتيلا، لا تأخذكم شفقة أو رحمة بجماعات مارقة، وبغنم مُضَللة).

وقف آخر، مظهره يدل على اعتداد فائق بالنفس، ضرب بقبضة يده على الطاولة، زعق كما أسد هصور جائع، قائلاً:

(يا سعادة الريس حل هذه المشكلة أسهل من حلب هذه الغنم الضَالة المُضِلة، نجلب مجموعة من كلاب، ذئاب، وبنات آوى من غابات بعيدة، نسجنها ونجوعها في منطقة سرية لا يعلم بها أحد، ومن وقت لآخر نطلقها وسط هذه الغنم الغبية، ثم نعيدها مرةً أخرى إلى مكانها السابق، كلما أمعنت هذه الغنم في غرورها، نمعن أكثر في إشباع وحوشنا الكاسرة الجائعة من لحمها، ولحم حملانها).

حاول الريس أن يتسم بالوقار بقدر الإمكان لأن الموقف خطير وحرج، وإذا ما انفلت زمامه ستكون النتائج كارثية، وخيمة مدمرة، لذلك تحدث بنبرة حكيمة قائلاً:

(لنستمع أولاً أيها السادة الفضلاء لما تريد أن تقول هذه (الليدي)، وبعد ذلك يمكننا أن نحلل، نقيس، نقوم الوضع، وبناءً على ذلك نتخذ ما ترونه مناسباً من قرارات حازمة حاسمة، تُوقِف كل هذا اللقط والجدل العقيم).

تقدمت نحو المنصة في خطوات ثابتة، حيتهم بثلاثة انحناءات برأسها، ثم أنشأت قائلةً بعد أن رفعت حافر رجلها الأيمن، وحركته يمنةً ويسرى بإشارة النصر:

(سيادة الريس، السادة الأعضاء الموقرين، إخوتي الأغنام الواقفة خارج الأسوار، أقف أمامكم في هذه اللحظة التاريخية لأنقل لحضراتكم كل ما يدور وسط أهلي الغنم الطيبين الوديعين المسالمين، الذين يقفون الآن وراء الأسوار يترقبون ما تسفر عنه هذه الجلسة، وأحذركم في نفس الوقت مغبة ما يمكن أن تأتوه من أفعال، (ولا عذر لمن أنذر)، إني أرى في وجوهكم دهشة واستغراب، إنكم تستعجبون من أين لبهيمة بلهاء خرساء مثلي قدرة على كلام، وقدرة على تفكير وتحليل، لا تستغربون!! مخلوقات الله غيركم أمم أمثالكم، لها طرقها الخاصة في التخاطب فيما بينها، ولكنكم لا تفقهون حديثها، ولها وسائل خاصة في تدبير سبل عيشها وحياتها، واحدة من المعجزات التي أجراها خالقنا سبحانه وتعالى على يد رسوله سليمان أنه كان يفهم كلام الطير والنمل، ومن المعجزات كذلك أن أخاطبكم اليوم بلسان غنمي فصيح، علا صوتها أكثر.. لقد طفح كيلنا، نفذ صبرنا، في الماضي البعيد كنا نتقاسم معكم خيرات أرض هذه الجزيرة، تأكلون لحومنا الشهية، لا تتركون منها كبداً، كلوةً، قلباً، مخاً، أحشاءً، طحالاً، ولا رئةً، تشربون ألباننا، تستخدمون جلودنا وأصوافنا في صنع

ملابسكم وأحذيتكم، وبالمقابل كنتم تطعمونا كلأً أخضراً طازجاً، وتسقونا مياهً حلوةً نظيفة، وبعد أن جلبتم سلالات أغنام أرقى منا من أماكن بعيدة، وبعد أن هجنتم بعض سلالاتنا بها، وبعد أن جلبتم وسائل نقل حديثة، جرارات، قطارات، وطائرات، وشيدتم قصوراً مشيدة وبنايات رائعات ليس فيها متسع لحظائر تؤوينا، نظرتم لنا نظرة استعلاء، ازدراء، واحتقار، ووصفتمونا (بمخلفات ماضي بغيض)، علا صوتها أكثر فأكثر.. زهدتم فينا، بعتمونا ببخس أثمان لأهل الريف، أما هؤلاء فقصتهم معنا طويلة أليمة، استخلصوا كل ذرة من قوة كامنة فينا، لم نلق منهم إلا عذاباً وهوانا، أحسبوا معي أيها السادة المبجلين كم من السعرات الحرارية نتناول فيما يجودون به علينا من نفايات عشب يابس مخزون في جحور مخازن بائسة؟ كم من سعرات حرارية نجد فيما نتناول من أكياس نايلون، خرق بالية، وكناسة أرض؟ وكم من أرطال لبن يريدونا أن نحلب؟ وكم من أطنان لحم يريدونا أن ننتج؟ وكم من جلد وصوف يريدونا أن نعطي؟ يريدونا أن نعطي، ونعطي، ونظل نعطي، بعظام هشة هزيلة، لا تكسوها إلا طبقة رقيقة من جلد ولحم، يريدونا أن ننتج مع كل الأمراض التي تفشت فينا، مع كل القراد الذي مصّ دمنا، حالنا يغني عن سؤالنا، غثاؤنا ملأ الآفاق وما من مجيب؛ إنكم تتبجحون في وسائط إعلامكم أن الدخل القومي في هذه الجزيرة ارتفع إلى مستويات عالية لم تبلغها من قبل حيث وصل إلى معدل زيادة سنوية مقداره عشرة في المائة، ولكن سؤالي هل تبع ذلك ارتفاع في مستوى معيشتنا؟ هل تَبِع ذلك تحسن في عدالة اجتماعية بين كل مكونات مجتمع هذه الجزيرة؟ هل تبع ذلك إصلاح هيكلي في اقتصاد بحيث يكون في صالحنا نحن الفئات الحيوانية الضعيفة، التي طحنتها المسغبة، وليس في صالح فئات الإنسان الغنية التي أتخمها الثراء الفاحش؟ هل، وهل، وهل؟ نحن لا نطالب بمدارس، لا نطالب

بمستشفيات، لا نطالب بوظائف، لا نطالب بماء ولا كهرباء، ولا نطالب بعدالة ولا مساواة، وإنما نطالبكم بأن تتركونا في حالنا، نعيش في سلام، نستنشق هواءً عليلاً، نمرح في الأرض الخضراء حسب هوانا ومزاجنا، كما نشاء، وننظر بعيون حامدة شاكرة إلى السماء).

ألجمتهم الدهشة، أصابهم وجوم، كأنما حطت على رؤوسهم أبابيل من طيور بوم، وطاويط، حدآن، وغربان.

شعرت بقوة عجيبة لا تعلم مصدرها، خرجت كلماتها من بين فكيها كطلقات مدافع بعيدة المدى، أصابتهم في مقتل:

(صمتنا أيها النواب النبلاء، طالت نظراتنا البائسة الكليلة إلى الأرض، عسى ولعل أن ويعود لكم صوابكم، فتتحسن أحوالنا، ولكنكم تماديتم، كرهتم الأرض فكرهتكم، نزح أكثر أهل الريف إلى المدينة، والذين لا يزالون يمسكون بنا في قاع الريف لا أمسكونا بإحسان ولا تركونا نرتع في أرض الله الواسعة نأكل من خشاشها، وبعد طول ظلام، طول عسر، طول مسغبة، أتانا الفرج، عثرنا على إكسيرنا المفقود، إنه سر من أسرارنا التي لم ولن تدركوا كنهها أبداً، أنظروا لإخوة لنا من الغنم تعيش في الجزر المجاورة، إنها تنعم بحياة سعيدة متطورة، تمشي في دروب خضراء تتبختر آناً، وترتع، وتلهو، وتمرح آناً آخر، في وئام، سلام، وأمان، لا يعكر عليها صفوها إنس ولا جان، ترعى مصالحها وشؤونها وكالات، ومنظمات، ومؤسسات عديدة منها، (المنظمة الخضراء للمحافظة على البيئة)، (منظمة المحافظة على حقوق الحيوان)، (منظمة المحميات الحيوانية المتكاملة)، (بنك الحيوان الدولي)...).

زاد الهرج والمرج في هذه اللحظة بين أوساط النواب، وجد الريس نفسه مضطراً لاستخدام مطرقته الخشبية لينبههم إلى حفظ النظام داخل القاعة، ثم أشار إليها لكي تواصل حديثها.

ازدادت حماستها أكثر، هتفت بلهجة ساخرة:

(وقبل أن أتقدم إليكم أيها السادة نيابةً عن أهلي الغنم الطيبين بمطالبنا العادلة العاجلة أود أن أذكركم، بأن كلامي لكم ينسحب على باقي فئات الحيوان، التي تستغلونها استغلالاً فاحشاً في حمل أثقالكم، وحرث زرعكم، ولا تهتمون بها، أو تأبهون لها، لأنكم لا تأكلون لحومها، ولا تشربون ألبانها، ثم إن البعض منكم يقولون: (أن كثرة التكرار لا تعلم الخروف ولكنها تعلم الحمار)، لأن الخروف في نظرهم أغبى من الحمار، ولكنكم أنتم أنفسكم لا تتعلمون من التكرار، ألم تسمعوا بحكاية مزرعة الحيوان التي حكاها السيد (جورج أورويل)، إنها تحكي عن حيوانية، سلطوية، وسذاجة البشر، ألم تسمعوا عن أبطالها من الخنازير، ميجور العجوز، نابليون، سنوبول، سكولز ومينيمس، ومن الأحصنة، بوكسر، كلوفر ومولي، ومن الحيوانات الأخرى: الجراء، والغربان، والخراف، والماعز، والجرذان، والدجاج، والبقر، والقطط؛ وأخيراً ألم تسمعوا بالدور العظيم الذي لعبناه نحن الخراف في تلك الثورة الحيوانية المجيدة، كنا ندين بولاء أعمى للثورة، نحن الذين كانوا ينشدون أناشيد الثورة، خصوصاً ذلك النشيد الخالد (أربعة أرجل حسن، رجلان سيء)، نحن الذين أخمدوا أي معارضة للثورة بصراخ وتهليل، نحن الذين أنشدوا بغباء ذلك النشيد المُحَرف بعد أن تعلم الخنازير سادة المزرعة المشي- على رجلين كالإنسان: (أربعة أرجل حسن، رجلان أحسن)؛ نحن شعب الغنم صبرنا كثيراً على جوع، ألم، وهوان، ولكننا لا نستعجل النتائج لأن نصرنا حتمي، ولا بد له من أن يأتي في نهاية المطاف؛ أحذركم، ولا عذر لمن أنذر، بأنه كما طردت الحيوانات الثائرة السيد جونز من مزرعته، وأقامت عليها مملكتها الخاصة، فإننا لن نتوانى عن حذو حذوهم، نطردكم من هذه الجزيرة إذا لم يتغير حال بغيض أوجدتموه بغبائكم، وجعلتموه أمراً واقعاً لنا؛ ألم تسمعوا رسالة السماء بأن امرأة دخلت

النار في هرة، حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا جعلتها تأكل من خشاش الأرض، وأن رجلاً دخل الجنة في كلب أحسن إليه، وأذكركم بأني لن أكون أكثر جنوناً من صاحبكم الإمبراطور الروماني (غالي كولا)، الذي أراد لحصانه أن يكون عضواً في مجلس شيوخهم، لأني لا أتحمل أبداً أن تنعتوني بجنون وغرور، ولا أطمع أبداً بأن أجلس بينكم كممثلة لأهلي الغنم الطيبين المغلوبين على أمرهم، لأني لن أكون معتوهة للدرجة التي تجعلني أفكر مجرد تفكير في السير عكس تيار المألوف، أو محاولة تغيير طبيعة الأشياء، وسنة الله في الكون ماا.....).

فجأةً، وبدون مقدمات وقف عضو ضخم الجثة، ذو كرش كبير، والزبد يتطاير كالحمم البركانية من فمه وصرخ بلهجة مهددة متوعدة قاطعها قائلاً:

(لا صبر لنا على سماع خزعبلات، ترهات، وأكاذيب، إننا نرفضها جملةً وتفصيلاً قبل أن نسمعها، نحن أيها السادة أدرى بمصالح هذه الغنم الملعونة المطرودة من رحمة الله، فكروا معي ماذا سيحدث غداً إذا ما رضخنا لهذا الابتزاز الغانمي الرخيص، معنى ذلك أن حمير، خيول، وأبقار سوف تتطاول بدورها علينا، وسوف نسمع فِريات لا أول لها ولا آخر اسمها (إكسير مفقود)).

ساد القاعة لقط وضوضاء، انبرى في وسطها شيخ طاعن في السن بللت دموعه أخاديد وجهه، قال في صوت متهدج تفوح منه رائحة السنين:

(حتى أنت أيتها الغنم البائسة أنطقتك مصائب الدنيا، لم يعد لنا خير في هذه الجزيرة، وداعاً أيها الريس، وداعاً أيها النواب، خرج من القاعة وتبعه آخرون).

أدرك الريس أن زمام الأمور على وشك أن ينفلت من بين يديه، وأن الظرف بات مأساوياً، وربما يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، أمر برفع الجلسة على أن تنعقد في اليوم التالي.

في اليوم التالي لم تأت (لوريكا)، اختفت في ظروف غامضة، لم يسمع أحد عنها شيئاً بعد ذلك، لم تأت غنم بلافتات أو بدون لافتات، لم يأت ريس ولا نواب.

تشابكت خيوط العنكبوت على سطوح القاعة، سرحت ومرحت عناكب وجرذان في ممرات وردهات؛ ومن بعد، أتى من حكام الجزيرة من حول بناية البرلمان إلى متحف، وهو قائم إلى اليوم فوق تلة وسط الجزيرة النائية الهادئة شاهداً على ما حدث، مكتوب بخط بارز على مدخله:

(تنشأ المفسدة من الذين يخلعون لباس البشر العاديين ويلبسون لباس الأنبياء وهم لا يفهمون معنى (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، ولا معنى (على القائد الناجح أن يكون كالراعي الماهر، الذي يقود قطيعه من الخلف بكل مهارة واحتراف)، ولا يتعلمون من الحكمة الربانية أن معظم أنبياء الله رعوا الغنم، لأن من أحسن رعاية الغنم أحسن رعاية الناس).

إن ما قرأه في تلك المجلة قلب رأساً على عقب كل أحكامه السابقة التي أصدرها عن جهل وغباء على جده، استيقن أن كل ما في جده كان يعمل بكفاءة عالية، وعقله ما كان يحتاج لقطع غيار، وأنه به أدرك أسرار الحياة على حقيقتها بدون شطط أو غلو، وما يحتاج فعلاً إلى قطع غيار، عقول كثير من الناس على شاكلة هذا ريس ونواب برلمان جزيرة منسية.

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة خمسة وستين فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة

الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة.

رشف رشةً من كوب قهوة ثقيلة، وكأنما رشف مزيجاً سحرياً، إنه يرى في بؤرة عدسته الهلامية العجيبة الأيام تتساقط من عينيه، تتمدد دوامة إثر دوامة، يرى نفسه، أحمد بشحمه، ولحمه، وعظمه، ممدداً فيها، تساءل في نفسه ما هذا الذي أرى؟

(١٣)
ما قبل نهايـــــــــــــة

يـرى، هـو ومعـه ود جـبر جالسـين عـلى مقعـدين قبالـة عشوشـة، يجـردان كشـف حسـاباتهما، لكل بداية نهاية، قـد يكـون للبداية لـون، وللنهايـة لـون آخـر، وقـد يكـون لونهمـا واحـد، ولكنهمـا يعلمـان علـم اليقـين أنهمـا بـدءا واللـون أبـيض فـاتح، وانتهيا واللـون أسـود قـاتم، مـا بأيـديهما حيلة، فعـلا كل مـا يمكنهمـا فعلـه، بـذلا كل مـا في وسـعهما، سَخَرا كل ما يمكنهما تسخيره، ولكن من سخرية القدر لم يجدا حلاً، ولـم يتصـل بهمـا نائـب مـن النـواب، ولـم يتبـق لهمـا إلا دعـوات صالحات؛ اتفقا على شكل النهاية.

أرسلا رسالتهما الخاتمة إلى رفقاء دربهما شفاهه وكتابة:

(لا نقول لكم أيها الرفاق: أن نهجنا الذي اتبعناه كان نهج دراويش، كان خاطئا.. ومضيعة لجهد، وقت ومال.. وأنا كنا نلعب أو نلهو.. وأنا كنا عميان.. نقودكم على غير بصيرة وهـدى إلى حـتفكم.. معـاذ الله.. كنـا مبصرين وعـارفين لكل سـكك ودروب.. ولكـن! نقـول لكـم: كانـت أخطاؤكم مميتة.. جعلت النهاية غير سعيدة.. الله يسامح الجميع.. نحن نقر أن النهج الذي اتبعناه فشل فشلاً ذريعا.. لا جلبنا لكم حيازة ولا تمليـك.. فشـلنا في أن نحقـق لكـم الحلـم الـذي يشرح صـدوركم.. فشلنا في أن نرسم البسمة على وجـوهكم التي جافاها الفرح منذ زمن

طويل؛ الوداع.. ثم الوداع.. وليستلم الراية منا إخوة جدد.. لا يهابون ولا يخافون في الحق لومة لائم.. يتقدمون الصفوف بروح جديدة.. بنهج جديد.. ونحن من خلفهم.. نشد من أزرهم.. متمنين لكم ولهم ولنا التوفيق والسداد).

المجموعة المعارضة كانت تنتظر هذه السانحة، لم تصدق، اغتنمتها على طول وشكلت لجنتها، أفصحوا عن نهجهم: (رفع رايات بيضاء، إطلاق حمائم سلام، جنوح لمصالحة، مهادنة، ومخاتلة، تقديم كل تنازلات ممكنة للمحلية يمكنها أن تؤدي إلى حلول وسط).

مع مرور الأيام بدأت اللجنة الجديدة في إطلاق بالونات وعود براقة في فضاءات الملجة، وعود بأن الحيازة سوف تأتي، وبأن التمليك أيضاً سوف يأتي، وسوف يعم الملجة حب، سلام، ووئام.

حمد الصديقان الوفيان ربهما سراً وعلانية، على حملهما الأمانة بكل إخلاص وتجرد، وإعادتها كاملةً إلى أصحابها، إن لم يخسرا لم يربحا، وإن لم يعطيا لم يأخذا؛ تتبعا أخبار اللجنة الجديدة كغيرهما من أصحاب الدكاكين، مضى وقت طويل تغيرت خلاله المعادلة، بعد أن كان أصحاب الدكاكين والمحلية طرفان متعادلان بينهما علامة التساوي، تغيرت العلامة إلى لا تساوي، بعد لقاءات تلتها لقاءات، واجتماعات تلتها اجتماعات، كان القرار النهائي، والذي لا رجعة فيه مطلقاً: يدفع كل صاحب دكان خمسة وثمانين ألف جنيه عداً نقدا، والعقد الجديد مدته عشر سنوات فقط.

رفضوا القرار جملةً وتفصيلا، لأنهم ببساطة لا يملكون هذا المبلغ.. التاريخ يعيد نفسه.. ورطة دفع رسوم الحيازة، ورطة تشييد الدكاكين، وورطة العقد المهور، كلها تتكرر، لم ينفع نهج جديد ولا قديم، حاصروهم وبالقانون في ركن ضيق، فئران مصيدة، استغاثوا ولات حين مغيث، نادوا ولات حين مجيب، لأن من يستغيثون بهم يقولون:

(السوق للذين يملكون المال، الذين لا يملكونه ليس مكانهم هنا، ليبحثوا لهم عن مكان آخر).

ضاعت حيازاتهم... ضاعت دكاكينهم... والساقية لسه مدورة... لسه مدورة... مدورة.

وهم في هذه حالة بائسة، حالة انعدام وزن، رؤية، ووجهة، أتاهم نبأ مأساوي حزين، تعرض أحد الباصات السياحية لحادث مروري، نتج عنه احتراقه بالكامل، لم ينج من ركابه أحد، الكفيفان صابر وصبري كانا من بين الركاب، حزنوا عليهم حزناً شديداً، حزنه لا يدانيه حزن، كانا له نعم أخوين، كانا له فأل حسن، كانا له زاد روحي يمنحه ثقة، قوة، إرادة، واعتماد على الله، همس في سره:

(سبحان الله، كيف حولا عجزهما إلى قوة؟ لا يقفان في طرقات يسألان الناس إلحافا، جبهتاهما دائماً مرفوعتان نحو السماء، أينما يحلان يحل معهما فرح، مرح، وسرور، إعاقتهما لم تكن يوماً حاجزاً بينهما وبين تعاطي الحياة، أحسبهما من أهل جنة خلود ونعيم).

لم يستفيقوا بعد مما هم فيه من ألم، حزن، وكرب، وإذ القرار الساحق الماحق، يصدر بإزالة دكاكينهم، ومحوها من على الوجود.

أتاه صوت عشوشة مرةً أخرى: (ثاني رجعت لسرجانك يا حاج أحمد)، التيار الكهربائي الذي صعقه هذه المرة قوة سبعين فولطاً، أيقظه من ذكريات حية كان يعيش فيها، عاد مرةً أخرى لحالة الوعي بما كان يجري من حوله، صورة مقلوبة، مغلوطة، مخلوطة، معجونة، كراكة، دفار أزرق، كروزر رمادية، أمواج متلاطمة من الناس، جيوش فرعونية بمركبات حربية بعجلات خشبية تجرها خيول، جيوش نبتية وكوشية تقاتل راجلة وبأيديها الحراب ودروع، جيوش إنجليزية ببنادق، مدافع، وقناها، جيوش مهدية بسيوف، وحراب، وعصي، وحجارة).

(١٤)

نهايـــــــــــة

إنـه الآن في يقظـة ولـيس في منـام، بكامـل قـواه العقليـة، يـرى بـأم عينيـه، ويسـمع بطبلـتي أذنيـه هـدير، وأزيـز، وشـخير كراكـة.. ذراعهـا المسنن.. يعلو.. ويهبط.. ثم يعلو مرةً أخرى.. يهتز.. ثم يضرب بقوة؛ يرى طوب دكانه يتشقق.. يهبط.. يتساقط.. نزلت دموعه؛ يرى سيخ سقف دكانه يتلوى من شدة الألم، يرى ألواح حديدية لبابه الجـرار تنصـهر وتـنعجن؛ يـرى ناطحـة سـحابه الـتي بناهـا في مخيلتـه تنهـد.. تتهاوى.. تنهار.. تتحول إلى شظايا.. تتحول إلى هباء في غمضة عين؛ يرى عمره.. كفاحه.. شقاءه.. غبار يتصاعد في السماء؛ يرى أحلامه.. آماله.. أمانيه.. تذر تراباً ورماداً في عيون فراجّة من الناس؛ كل شيء في الوجـود أمامه يذوب.. يتبخر.. يتلاشى.. يتبدد، كل ذلك يحـدث الآن بـدون لمسـة مواسـاة إنسـانية تطيب خـاطر محـزون.. ثم!!! ثم ماذا بعد؟ لم يعد يرى!!! وكيف له أن يرى؟ وبأي عين يرى؟ وهل تركت له الكراكة عيناً بها يرى؟

في تلك اللحظة العابرة من زمن ما، في مكان ما، لشخص ما اسمه حاج أحمد، الذي لا يستحق التفاته من أحد، لأن ما يجري له لا يمثل حدثاً جديراً باهتمام غافلين نفعيين لا تهمهم إلا مصالح ذاتية، تساءل في حشاشة نفسه:

(من أنا؟ أأنا حاج أحمد بلحمه وشحمه ودمه؟ هل اليد التي أراها يدي؟ هل العين التي أبصر بها عيني؟ هل العقل الذي يعمل داخل رأسي عقلي؟ ... يبدو لي أن عقلي لم يفهم أو يستوعب واقعاً أبداً، هل جذوري فعلاً ضاربة في جوف الأرض كجذور نخلة عائلتي، لا قدرة لرياح وأنواء مهما بلغ عنفوانها اقتلاعها، أم أنها جذور هشة؟ هل ولهي وعشقي لعازة، بتولة، سعيدة، ودكاني كان ضرباً من خبل وهبل؟ هل ما أفنيت زهرة شبابي لأجله ما كان إلا أحلاما مكسورة، عشم إبليس في الجنة؟ ... حجارةً كريمةً جمعتها على ظهري من كل مناجم الدنيا تبعثرت في غمضة عين، تطايرت هباءً في الفضاء، اتحدت مع عناصر ثاني أكسيد كربون منبعث من عوادم سيارات، مكونةً عنصراً جديداً لم تألفه الأرض من قبل، ما يوجد في صدري ليس قلبا، من عصب ولحم ودم، إنه يغلي كمرجل، بل أكثر من ذلك، إنه ثورة بركان، بل أكثر من ذلك، إنه قنبلة نووية تنتظر لحظة الانشطار، بل أكثر من ذلك...؛ قضبان حديد سحبتها على الأرض بيدي، تخيرتها وجمعتها من كل أسواق خردة تبيع حديداً مستعملاً، مغشوشاً، والذي لا تنطبق عليه معايير ولا مواصفات، ولكنها بكل عيوبها كانت تمثل لي أمناً أماناً، أمناً من كل طارئ، وأماناً من كل شر، تمسك وتشد بقوة هيكل ناطحة سحابي، وهيكلي العظمي، تمنعهما سقوطاً وانهياراً، وتمنعني مذلة فقر، فاقة، وبؤس، وتحول بيني وتحولي إلى قزم متسول، أعمى، أبكم، أعرج، يتجول في أزقة مدينة غير فاضلة تحت أشعة شمس حارقة؛ ها هي تتحول بقدرة قادر أمام ناظري إلى كتل معجونة، تحف فنية، ل (جقور)، تمتعت بحياة كريمة في دكاني، نامت ملء جفونها في جحور مشبعة برطوبة وعفن، عبر شبكة أنفاق

تحتية كانت تقضي أمورها في زمن قياسي، لا يدانيه ما أقضي من زمن في تنقلي عبر شبكة طرق فوقية لمدينة أشباحي، ل (أبْرُص)، ذات أصوات مقززة، كانت تتجول بحرية في داخل دكاني، ولا أحد يعلم من أن أين تأتي ولا إلى أين تذهب، ل (ذباب)، كان يجد في دكاني ملاذا آمنا، يعبث، يطن، ويتناسل كما يحلو له).

طار عقله، اختلت موازينه، خطأ عنده صواب، حرام عنده حلال، محظور عنده مشروع، شر عنده خير، ظلام عنده نور، حمامة عنده نسر، مسجون عنده سجان، ومجرم عنده قاضي.

كان مع رفاقه يتوقون، يتشوقون، يحلمون أن يجعلوا لهم أرجلاً يمشون بها، لكنها للأسف الشديد قُطِعت وكُسِحت، وأجنحةً يطيرون بها، لكنها نُتِفت وكُسِرت، ومصابيح يهتدون بها، لكنها حُطِمت وصُودِرت، وقوارب يبحرون عليها، لكنها أُحْرِقت ودُمِرت، وقلوباً يشعرون بها، لكنها أُفْرِغت ومُوِتت، وعقولاً يعقلون بها، لكنها عُطِلت وجُمِدت، وعيوناً ينظرون بها، لكنها فُقِعت وسُمِلت.

طلعت في رأسه فقاعتان كبيرتان، فقاعة من جهة اليمين، وفقاعة من جهة اليسار، بينهما مسافة واسعة شاسعة، فقاعة اليمين فيها سمو آدمي، فقاعة اليسار فيها انحطاط آدمي، الفقاعتان كبرتا ككرات ثلج متدحرجة، المسافة بينهما ضاقت ثم تلاشت، حدث اصطدام، اصطدام كوكبين عظيمين، حدث تَزَلزُلٌ، تفكُكٌ، تشظِي، تضعضعٌ، انهيارٌ، ثمة سقوط كل شيء فيه.

نهض، وقف، انتفض كملدوغ أفعى، ضرب عن قصد بيده صينية الجَبَنة، اندلقت القهوة، سالت في الشوارع، فاضت أغرقت السوق، زلت قدمه، اصطدمت بموقد عشوشة، تطاير الجمر في الأنحاء، نزل

حجارةً من سجيل، فقأ عيوناً، فلق رؤوساً، رجلاه اصطكتا، تصبب عرقه غزيرا، ارتفع ضغط دمه، انتفخت أوردة وشرايين يديه، كفاه انقبضتا وانبسطتا بلا توقف، شفتاه زمّا وانطلقا بلا توقف، أسنانه كَشِرت بلا توقف، ارتجف من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه بلا توقف، احمرت عيناه، قدحتا بالشرر، تبلدت وتبدلت ملامح وجهه، تجعد جلد وجهه، انتفخت أوداجه، كل شيء فيه تغير، وزنه خَفَ، إلى أقل من وزن ريشة... ولأن حياته كانت بالدكان، وللدكان، انحدرت دمعة على خده... دمعة واحدة فقط... دموع الرجال غاااااااااالية... دموع الرجال عزيييييييييييزة.

بعد أن كانت عشوشة تنادي عليه بنبرة رقيقة:

(يا حاج أحمد رجعت ثاني لسرحانك).

الآن تنده عليه بنبرة مفعمة برجاء:

(يا حاج أحمد استهد بالله).

(يا حاج أحمد أخز الشيطان).

(يا حاج أحمد أطرى الموت، أطرى يوم الحساب).

(يا حاج أحمد أوعاك من الغلط، وراك أم وكوم عيال).

(يا حاج أحمد حلفتك بالله).

(يا حاج أحمد اتق الله).

(يا حاج أحمد الغضب مفتاح الشر).

(يا حاج أحمد).

(يا حاج).

أحمد.

...

...

حافي قدمين، حاسر رأس، مغمض عينين مرق كما يمرق السهم من الرمية، اخترقَ الصفوف، وقف بصدر عاري أمام الكراكة، تحدى العسكر، قال ما قال، ما قاله ارتعدت له فرائصهم، جعل رؤوسهم تطأطئ مكسوفةً في خجل، جعلهم يحسون بأنهم فاقدي ذكورة، رجولة، وفحولة، جعلهم يشعرون ما هم إلا عبيد ينفذون مجبرين أوامر أسياد، فعل ما فعل، ما فعله جعلهم يهربون في كل ناحية، جعلهم ينبطحون على الأرض، جعلهم كقرود جزعة يطلبون السلامة، ما قاله وما فعله، أكثر من ذلك بكثير، لا يعلمه أحد، هو نفسه لا يعلمه، لا يعلمه إلا الله.

(١٥)

ما بعد نهايـــــــــــة

لك الحق أيها القارئ أن تتساءل عن مصير بطل روايتنا (حاج أحمد)، سؤالك يتحلى بدرجة عالية من مشروعية فكرية، شأن أدبي مستحق كغيره من استحقاقات سياسية، اقتصادية، واجتماعية، تفتقت عن أذهان البشر، وللإجابة عن سؤالك فإننا محتاجون لوضع مجموعة من سيناريوهات ممكنة، ومن ثم قبولها أو دحضها كفرضيات الواحدة تلو الأخرى، بعد إخضاعها لأسس تحليل علمي أدبي، بمنتهى شفافية، صدقية، ثبات، واتساق.

أول السيناريوهات أن حاج أحمد لم يزل على قيد الحياة، يأكل مما نأكل، يشرب مما نشرب، يجوع ويعطش، يعرى ويمرض، ينوم ويصحى، يسعى في الأرض ناشداً صلاحاً وخيراً للناس، راض عن كل ما جرى له، مؤمن بقدره خيره وشره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، دكانه ذهب مع الريح، ما كان إلا أضغاث أحلام مكسورة، وما عادت تجديه أحزان، زوج أولاده وبناته وفقاً لناموس الحياة، كما يزوج خلق الله أولادهم وبناتهم، يحمد الله في سره وجهره على نعمائه ظاهرة وباطنة.

يجلس تحت ظل نخلتهم العجوز، مستودع أسرار عائلته، التي تتوسط صحن البيت الكبير، كما كان يفعل أجداده من قبل، وأحفاده يتحلقون من حوله، يقبلهم، يطبطب على رؤوسهم، يزجرهم، يحكي لهم تفاصيل الحكاية، الأمانة التي استودعها له جده آدم:

(يا أولادي كان يا ما كان، قطيع الغنم الأول كان يعيش في سهل أخضر- نضير يقع بين نهرين جاريين حيث تنمو أنواع عديدة من أشجار، حشائش، وزهور، تجري خلالها جداول وعيون؛ لا يشاركها هذه الخيرات حيوان آخر، أي حيوان غريب يقترب منها - مهما كانت درجة شراسته، أسد، فهد، نمر، ذئب، كلب مصيره الهرب، كلهم يعملون لها ألف حساب قبل ما يفكروا في الاقتراب منها، جيش الغنم بقرون مسلولة يقف لهم بالمرصاد، حياتها منظمة، وأمورها ماشه عال العال، تتفاهم فيما بينها بلغة صوتية حركية؛ يطيب لها المقام، تتكاثر وتزيد أعدادها مع الأيام، ويأتي ذلك اليوم المشؤوم، الذي يضيق فيه السهل الأخضر- بأهله من الغنم...). ويدب النعاس رويدا رويدا في عيونهم، منهم من ينوم على كتفيه، منهم من يتوسد رجليه اللتين شققهما مشي في أزقة ودروب، منهم من اتخذ من جدته النخلة شمسية تقيةً من أشعة شمس، منهم من اتخذها ناموسية تقيةً من عضات بعوض، منهم من توسد جذورها الناتئة، وافترش فراشها المنسوج من ظل منمق ببقع ضوء، وجوه ملائكية تشع بهاءً ونورا، ونخلة تطلق رُشَاشا وبُخَاخا بروح ورد وصندل، يمنع عيناً، سحراً، وحسدا؛ تتدحرج دمعات تلألأت كالبلور على صفحة خديه المغضنين، ينده على أمهات أحفاده بصوت مشحون بحب ورحمة:

(يا بنات هوي تعالن لملمن زينة الحياة الدنيا، المشتتين مثل الورد والزهر ديل).

ثاني السيناريوهات أنه لم يزل على قيد الحياة، تجري دماؤه في عروقه بِوَهَن، تبصر- عيناه الضوء بصعوبة، زاده (جيراية) منقوعة في مرق قرع، شرابه ماء مطحلب لونه زرقة مشوبة بخضرة، دواؤه ما تفرزه كريات دمه البيضاء من مضادات حيوية، كساؤه زي مساجين، غطاؤه بطانية تتأفف منها تيوس معيز، فراشه قطعة حصير مهترئة؛ يقبع وراء قضبان أحد السجون، داخل أسوار عالية محاطة بأسلاك

شائكة، يمشي- برأس مرفوعة، فهو لم يرتكب جناية مخزية تورث ندماً، خجلاً، ومذلة، وإنما وقف مدافعاً بشرف بلسانه، ويديه، ورجليه عن أعز ما ملكت يداه، دكانه.

ثالث السيناريوهات أنه لم يزل على قيد الحياة، وَزْنة عقله تلخبطت، تغيرت كيمياء مخه، اضطربت بنية وظائف دماغه، اختلت وظائفه ومقدراته العقلية، اختلت مقدرته على التمييز، اختل تحكمه في إرادته، يلبس على رأسه طربوشا أحمراً مزيناً ببطاقات كل شركات الاتصال، زين، سوداني، كنار، أريبا، سيدكو، أشراف، يحمل تحت إبطه بقجة كبيرة من ثياب قديمة مثلما كان يحمل شنطة الحديد الصغيرة في زمانه الجميل الموغل في القدم، يلبس زياً أزرقاً، مبرقعاً، رثاً، متسخاً، ممزقا، يحمل بيده اليمنى عصاً غليظة معكوفة مثل غرافة الكراكة، يرفعها بحركة لا شعورية لأعلى وأسفل، يمشي- جيئةً وذهابا أمام دكانه (سابقاً) في زهو وخيلاء، منفوخاً في انتشاء، يردد في صوت خافت ولكنه مسموع:

(كا.. كا.. كان.. كان.. لي.. دكاااااان).

صبي من (الشفاتة) متشردي السوق يصيح فيه ويجري هاربا:

(يا مجنون دكانك الذي كان زبالة يتأفف منها الزبالون تحول إلى تحفة عصرية.. ديكور.. أنوار.. ألوان.. سيراميك.. رخام.. نظافة.. حلاوة).

يضحك، يفرفر من الضحك، يضحك الناس من حوله، يشيرون إليه ويقولون:

(اللهم لا اعتراض على حكمك.. الله يجازي من كان السبب).

يضحك، وهو يردد كلمةً واحدة:

(لكاعة.. لُكاعة.. لُكاعة..)

لذلك سماه أهل السوق لكاعة، كلما يرونه ماشياً على غير هدى يقولون:

(لكاعة ظهر، لكاعة وصل، لكاعة جاء، صفقوا للكاعة، حيوا لكاعة).

رابع السيناريوهات أنه لم يعد على قيد الحياة، دهسته الكراكة، وُوري جثمانه ثرى مدينته التي أحبها حباً منقطع النظير، يرقد جثمانه في قبره، روحه في حياة البرزخ، تحول هيكله العظمي إلى بذرة داخلها عظم صغير بعد أن أكل لحمه الذباب الأزرق والدود، إما في روضة من رياض جنة أو حفرة من حفر نار، إما بين يدي ملائكة رحمة أو بين يدي ملائكة عذاب، نحسبه في منتهى سعادة أبدية فهو كما نعلم كان يمشي- مع ضل حيطة، لا يلف يمين ولا يسار، حد الله بينه وبين حرام، بيته، مسجده، وسوقه، مساره واحد لا تغيره طارئات ولا حادثات؛ ربما يتم العثور بالصدفة، على مومياءه بعد آلاف السنين، لحظتها يفرح علماء آثار تلك الحقبة باكتشاف جديد، يضجون وهم يتبادلون حوله نظريات وآراء:

(انظروا، إنها مومياء بشرية، إنها هيكل عظمي لآدمي من الأوادم الذين عاشوا في ماضي سحيق، أنظروا إلى عظام جمجمته الملساء، أنظروا إلى فتحتي عينيه وأنفه، كانت عظامه مكسوةً بلحم وشحم، كان كل شيء فيه جميلاً رائعا). ربما يدخلونه معاملهم المتقدمة جداً بالمقارنة مع ما هو كائن اليوم، لمحاولة كشف أسرار وألغاز كانت تكتنف حياته، وربما يتبين لهم من صور دقيقة، ورسومات بيانية، وقراءات أجهزة (النانوكهروهادروماغنزيا) الفوق، فوق فائقة حساسية، بأنه كان يشعر بظلم ثقيل وقع عليه من أقرب الناس إليه، ونتيجة لعدم قدرته على التحمل، تأثرت خلايا مخه بدرجة كبيرة، وأدي ذلك إلى تأثر باقي أعضاء جسمه سلباً، مما أدى إلى تقليل كفاءتها، ومن ثم تعطلها بشكل فجائي ونهائي).

أسئلة أخرى تطرح نفسها عليك أيها القارئ، هل حاج أحمد هذا شخصية واحدة، محورية رئيسة تدور حولها وتتفرع منها الأحداث، يسلط عليها الراوي الضوء ليحاول أن يستكشف خبايا نفس بشرية عندما تُواجَه بصدمات صاعقة وتحديات عظيمة، في لحظات قوتها وضعفها، في لحظات هدوئها وثورتها، في لحظات سخطها ورضاها؛ وليرى ماذا تفعل في لحظة مواجهتها لخيارين أحلاهما مر، إما الموت بكرامة أو الحياة بذلة، وكذلك لحظة مواجهتها لخيار آخر، خيار المسكين جاليليو الذي أرغمته محاكم التفتيش على إنكار نظريته التي تقول بدوران الأرض حول نفسها، والتي عُدت في زمانه هرطقة، زندقة، وكفران صريح بخالق الوجود، وكان ذلك يستوجب الخضوع لأعظم وأشد أنواع عقاب جسدي، روحي، معنوي، ووجداني، وليتفادى هذا المصير أجبر على إنكار نظريته، والتنصل منها، ونبذها والتبرؤ منها، ولكنه كان يردد في داخل قفصه الصدري بصوت مكتوم: (إنها لتدور... إنها لتدور...).

وكذلك حاج أحمد ظل يردد على الدوام داخل قفصه الصدري: (إنه لدكاني... إنه لدكاني).

سؤال آخر، هل الحاج أحمد شخصية واحدة أم مركبة من عدة شخصيات، لأن شخصية واحدة لا تكفي لاحتواء كل مضامين وحكم ورسائل يريد الراوي أن يرسلها للناس، ولذلك فإن حياته مليئة بأحداث جمة، لا يمكن أن يحتويها عمر بشري محدود لإنسان واحد، إنسان لا يتعدى متوسط عمره الستين سنة في أحسن الأحوال.

سؤال آخر يطرح نفسه، هل عاش في زمانين، زمانه وزمان أجيال من بعده، كأهل الكهف، أنامهم الله ثلاثمائة وتسع سنوات، وبعد أن بعثوا من رقدتهم وجدوا وجه الحياة التي خبروها قد تغير، الاقتصاد ليس هو الاقتصاد بدليل أن العملة المتداولة تغيرت مرة من بعد مرة لأن العملة التي كانت معهم هي التي كشفت وجودهم، مع تغير

الاقتصاد بالطبع تغيرت الحياة، اجتماع، سياسة، وثقافة، وما كان في الإمكان أن يتكيفوا مع حياة جديدة ولذلك أماتهم الله بعد أن جعلهم للناس آية تدل على قدرته المطلقة، وتصرفه كما يشاء في ملكوته الواسع؛ في زمانه الأول، واسمه أحمد، كان يحس ويشعر بأن العسكري لابس الكاكي (الميري)، ناس البلدية، شيخ الحلة، العمدة، ناظر المدرسة، ضابط المجلس، ضابط السجن، المأمور، الحاكم، نائب البرلمان، والناس العاديين، حاجة واحدة، حاجة حلوة، سمن على عسل، كله داخل في بعضه، كلها عجينة واحدة، صينية أكل هذا لا تختلف عن ذاك، خياراتهم محدودة، ملاحها شبه واحد، وكسرتها شبه واحدة، البلديات كانت تقدم مأوى، طعام، وعلاج، توزع أكشاكاً ودكاكين، تعطي بلا من ولا أذى؛ وفي زمانه الثاني، واسمه الحاج أحمد، تغير الحال، السوق حر، كل شيء أصبح حراً، وهل من عاقل يكره الحرية، وهو والحمد لله عاقل يميز بين كوع وبوع، لم يستوعب أن البلدية تحولت إلى محلية، تعمل بآليات سوق حر، عرض وطلب يلعبان على المكشوف كقط وفأر، توم وجيري، يلعبان على بعضهما كيفما يحلو لهما اللعب، والسعر هو الحَكَم، ما في رحمة، البقاء للأقوى، الدنيا تغيرت، الدكاكين الحديثة هي سيدة المدينة، الدكاكين الكلاسيكية انقرضت؛ لم يستوعب التحولات، تركيبته غير مؤهلة إطلاقاً لإدراك أن الملجة في طريقها لأن تتحول إلى سوق عصري شاء أم أبى، لذلك كان لا بد من أن يُغَيَب من المشهد بأي شكل من الأشكال.

ولأن الراوي دخل في حيص بيص، استعصى عليه أن يهتدي إلى مخرج معقول ينال به استحسان القراء لجأ إلى حيلة سخيفة، أن يفك القارئ عكس الهواء، ليدخله في متاهة أكبر من متاهته التي هو فيها، متاهة أنه معلقاً رجليه لأعلى ورأسه لتحت، يلف ويدور

كمربوط على مروحة سقف، مشلول تفكير وإبداع، يسعى للخلاص والفكاك بأي صورة من الصور.

لجأ لكل الحيل، صحفية سينمائية، وأمنية، متاحة، وغير متاحة، ولكن بدون فائدة، بدون جدوى؛ وفي نهاية الأمر ترك القارئ وشأنه ليضع ما يعن له من أسئلة رئيسة، فرعية، وفروض، ويستخلص ما يروق له من نتائج بلا خوف من رقيب أو عتيد.

وفي نهاية المطاف إن وقفت أيها القارئ كحمار شيخ في العقبة، لك الحق في أن تذهب إلى النخلة العجوز، لتستجليها الحقيقة، إذا حالفك الحظ تجدها حيةً قائمةً في مكانها، بجذور واهنة تمتص في فتر ماء وملح الأرض، وإذا لم يحالفك الحظ تجد جذعها الخاوي ممدداً في فضاء بيت العائلة الكبير، لم تستسغ طعم الحياة بعد موت مجنونها الذي كان يرعاها، ويهيم بحبها، يلثمها، يشمها، وتعانق أنفاسه أنفاسها، عافت الدنيا، كما عافها هو، وفضلت اللحاق به في عالم آخر.